لبسْ

© حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتـــاب: لميسْ
تـأليـــــــف: مصطفى نمر
القـطـــــع: 21X14
تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح
سنـة النشـر: ٢٠٢٢
النـاشـــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 2022 / 28658
الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 384 - 4

دار الزيات للنشر والتوزيع
المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

ISBN 978-977-844-384-4

لميس

رواية

مصطفى نمر

الإهداء

إلى الذين لما علموا بأنا نحبهم.. رحلوا.
إلى طريق "Engac" تلك المسافة "الثلاثون دقيقة" التي أقطعها وحدي مرتان في كل يومٍ ، فأتقصى بالتفكير فيها.. فأحقق كل ما فكرت فيه.. ولم تكن هذه الرواية آخر أفكاري".
إلى أولئك السفهاء الذين يعتقدون أن "التصوف" هو إختلاط الرجال والنساء فشوهوا بذالك سمعته، وإلى الحمقى الذين يسبون ويلعنون "الصوفية" ولا يدرون بأنهم عظماء الدين والتاريخ
إلى أولئك الأبرياء الذين صدقوا كذبة أنني متزوج أود أن أعتذر لكم وأخبركم أن لميس ورامي هما أبطال روايتي وليس أبنائي
إلى صديقي الذي يظن أن القهوة لا يشربها إلا المثقفون، ولا يدري بأن صاحب المقهى الذي يتردد إليه كل يومٍ لا يجيد القراءة ولا الكتابة.
إلى روح ذالك الرجل الذي لم تكن أحلامه سوى أن يكن محاميا أو قاضيا يُحيي في وطنه العدل الذي فُقده وأفقده.. فقيد العلم،"حمدان غباشي"
إلى جميع الذين رويتُ قصصهم هنا بأسماءٍ مستعارة
إلى سجناء الذكريات
ثم إلى "لميس" صغيرتي الأولى التي تنبأت بها

"إلى "سماح" تلك الملاك التي أقسمت الأقدار أن لا تجمعني بها"

إننا نكتب غالبا عن الأشياء التي لامست دواخلنا أو اللحظات التي مررنا بها وتركت فينا أثراً بليغا، أو عن المسائل المعقدة التي لم نجد لها حلا، ولذالك فلعل جميعنا شهد تلك الثورات المتتالية من السنوات الأخيرة في الوطن العربي، ومن ضمنها كانت هذه _الثورة السودانية_ التي راح ضحيتها العديد من أرواح الشباب الأبرياء، لذا فأنا هنا من أجلهم، من أجل قصص الحب تلك التي نشأت بين دخاخين "البومبان" وأصوات الرصاص، ومن أجل أولئك الذين يموتون جوعاً كل يومٍ، والمهاجرين الذين يغرقون آلافاً كل عام في المحيط الأطلسي ولا يسأل عنهم احد، أنا هنا من أجل اولئك المهمشين في صحف النسيان، عن شهداء فلسطين الذين لا تذكر الصحف أعدادهم، من أجل الحزانى الذين يعيشون على بؤس الماضي وأرق الذكريات، من أجل أسرِ الشهداء الذين ما زالو يناضلون ليبقى الوطن، من أجل "المنتحرين" الذين ظنوا بأن الإنتحار هو الحل الأمثل لكآبتهم، ونسوا أن بإنتظارهم حياةٌ لا يعيشها من قتل نفسه،

أنا هنا لأكتب عن أولئك السفهاء الذين اعتقدوا أن "التصوف" هو إختلاط الرجال والنساء فشوهوا بذالك سمعته، ولأولئك الحمقى الذين يسبون ويلعنون "الصوفية" ولا يدرون بأنهم عظماء الدين والتاريخ، أنا هنا لأكتب عن جمال الصُدفة وقُبح القدر، لأكتب عن وطني، بعدما شُرّدتُ منه.

الفصل الأول
"صدفةٌ رتبها القدر"

أجمل ما في الصدفةِ.. أنها خاليةً من الإنتظار

"محمود درويش"

" ماجيك لاند/ أم درمان"

في يومٍ ما من أيام الشتاء القارص وتحديدا في ١٤ فبراير من سنةٍ ليست مرّقمة في حديقة "ماجيك لاند" بمدينة "أم درمان" جلس شاب في إحدى المقاعد الخلفية للملاعب _حيث يجلس الآباء ويراقبون أبناءهم_ يتأمل الملاهي والناس واللون الأحمر الذي حجب الكون بأسره، وبهاء السعادة الذي يرتسم في وجوه الفُتُوّةِ والأهرام والأطفال،
جلس وحيداً لا أحد بجانبه ولا حتى أحدٌ يلتفت إليه، كلٌ ملتهي بما يملك، وكلٌ يرتدي الأحمر.. إلاهُ، يحتفي وحده بالأبيض، هو غير ازدواجي لا يحب محاكاة الآخرين أو تقليدهم، ولا يؤمن بتلك الخرافة التي يدعونها "عيد الحب" لايحتفل سوى بالعيدينِ الإسلاميينِ ومولد النبي ثالثهما، لا فراغ بداخله ليضم تلك الشائعة، وأتى هنا ليس احتفالا بما يُدعى "الفالنتاين"، بل ليُغيّر قليلا من روتين العزلة والقراءة، فهو مدمناً للقراءة ولهذا الأمر فإنه يعشق الوحدة والهدوء أكثر، لأنه لا طائل من القراءة وسطُ الضجيج، لهذا حتى هنا يجلس وحيداً، بعد مللٍ وسأمٍ قرر أن يطوف قليلا في هذه الجُنَيْنةُ الخضراء ذات الألعاب الفريدة والأنوار الزاهيةِ والناسُ الرائعة علّه يجد ما يريح فؤاده
نهض من مقعده وأخذ يجول في أرجاء الحديقة يتأمل كل شيءٍ بتمعّنٍ ليكتب عنه بعد عودته، فعادته أن يُسطّر كل حدثٍ في حياته يميز يومه عن الأمس، وبينما هو في تأمّلاته تلك وجد شاباً وفتاةً وسيمَيْنِ تبدوا عليهما الألفةُ والأخاء، يتحدثان بمرَحٍ ودعابةٍ تظهر في وجوههم بشاشةٌ وبراءةً جذبت انتباهه، تارةً يتشاجران، وتارةً يبدوان وكأنّهما يتحدثان بجديةٍ صارمةٍ، وأخرى يضحكان حتى يكاد أحدهما يصطدم بالآخر، تأمّل حديثهما قليلا يترقب كيفيةِ طريقتهما في المؤانسة ويضحك معهما في بعض الكلمات المَرحة

وهو غارقٌ في سهوه بمحادثتهما، إذ لمحت عيناهُ فتاةٌ رائعة الحُسن ترتدي فستاناً باللون الأبيضِ، لا أدري إن كانت هي أيضاً لا تؤمن بتلكَ الخرافة التي جعلوا لها عيداً، أم أنها تحتفل بها بطريقتها الخاصة، أم أنها تلبس فقط ما يتناسق مع لون روحها، تكمل طقمها بطرحةٍ بيضاء بها خطوطٌ ورسوماتٌ ورديةٌ، وجزمةٌ باللون الأبيض أيضاً، تجلس واضعةً رجلها على الأخرى في مقعدٍ بالجانب الأيسر من خلف المُحبَّيْنِ الذَيْنِ يقفانِ أمامها، تُمسكُ في يدها كتاباً متواضعاً غلافه الأمامي أسودٌ به رسمةٌ بيضاء، والخلفيُ نصفه أبيضٌ والآخر أسودٌ بما في ذالك الكتابة التي عليه، وفي مؤخّرته من الجانب الأيْمنِ صورةً لمُؤلّفيهِ الثلاثة، رجلٌ يرتدي نظارةً طبيةٍ، وامرأتينِ إحداهما سعيدةٌ مبتسمة، والأخرى حادةٌ ملامحها بحاجبيها السيفيينِ تبدوا كما لو أنها مليئةٌ بمشاقٌ الحزن وبراكين الحنين، يبدوا عليه حواليْ مائتيْ صفحة يحملُ عنوان "بوليفونيا ٤٠٧٨ يوم" مكتوبةٌ باللون الأحمر الغامض أو القرمزي، لفت هذا الكتاب انتباهه أكثر من تأمل تلك الجميلة، لأنه قرأ الكثير، ورأى الكثير من الكتب، إلا أنه ما حدث أن صادف كتاباً بمثل هذا العنوان، وذالك لأنه مهووساً بقراءةِ الأدب الغربي أو الأجنبي، ولم يقرأ كثيراً للرّواء العرب، ولا يعرف إلا من ذاع صيتهم، أمثال: "الطيّب صالح، نجيب محفوظ، أحمد خالد توفيق، أدهم شرقاوي، بركة ساكن، أحلام مستغانمي.... " وغيرهم ممن علت أقلامهم على الغربيين، تأمل الكتاب قليلا ليقرأ أسم مؤلّفيه لكنه لم يتمكن، لأنه كان بعيداً شيئاً ما، فعاد يتأملها هي، رآها تقرأه ولا تميل عيناها لغير صفحاته، قال في نفسه "ربما قد يكن هذا كاتبها المفضل" تقرأه بصمتٍ وتأمّلٍ تبتسم تارةً وأخرى ترتشف جرعة من قهوتها التي كانت في كوبٍ أبيضٍ وصينيةٍ بيضاء صغيرةٌ بجانبها تضعه عليها كلما ارتشفت جرعة، لا أدري ما قصدها بالأبيض في ذالك اليوم الأحمر، هل أنها تستفزّ الناس بذاك اللبس؟ أم أنها تريد إخبارهم بأنه وشاح الرّاحة والسعادة والهدوء؟. ربما تريد أن تخبرهم بأن لا شيءَ يُدعى "الفالنتاين" _ويظهر في ذالك أنها وحيدة_ أو أنّ لها عشقٌ خاصٌ باللبس

الأبيض، تراها مرحةً في غاية الحبور، ولأنّما الأبيضُ وشاح السعداءِ، فلابد من أن لها مع هذا اللون قصةٌ أخرى.

اقترب منها ببطء وهمس لها بصوتٍ منخفضٍ ممتلئٌ بالرجاء

_أيمكنني الجلوس بقربك؟

أجابته بصوتها الدافئ ولكنتها البريئة

_لا بأس، تفضّل.

جلس بجانبها من الجهة اليسرى بترددٍ، أخرج هاتفه، رأى الساعة وأعاده إلى جيبِ حقيبته، مال إلى الخلف أسند ظهره في المقعد بسكون وبدأ يسترق النظر من ذاك الكتاب، فأول ما لمحت عيناه جملة في نصف الصفحة ال"١٧" تقول "أخبَرها مرة أن الأشياء ان افتدحت تصبح زجاجاً يتكسر، لا طائل وراء إعادته بعدها" أخرج مسرعاً مذكرته وبدأ يدون تلك الجملة، كعادته يقتبس من الكتب السطور الرائعة، بدأ بإسم الكتاب، ورقم الصفحة، ومن ثم بدأ يكتب سطر أول الكلمات" أخبرها أن الأشياء إن... " توقف.. يبدوا أنه نسي تلك الكلمة، بدأ يتذكر، وما لبث غير ثوانٍ حتى أملَته هي قائلة "ان افتدحت تصبح زجاجاً" أدار رأسه ورفع عينيه بحيرةٍ مذهولا من ردة فعلها، فرفعت هي حاجبيها وابتسمت ثم هزّت كتفيْها كعلامة استفهام وكأنها تقول له "مابك" أو "مم تتعجب؟"لكنها قالت

_كنتَ تخبرني أنك تود مشاركتي في القراءة، سأكون مسرورةٌ أكثر

أجابها: آسف، ما كنتُ أودُّ إزعاجك

قالت له بنبرةٍ هادئة تواسيه

_ هذا ليس إزعاجاً، إني أعتبره شيءٌ من الفخر لي، أن يلّخص أحدهم سطراً من كتابٍ أقرأه.. هذا يشعرني بالإمتنان والثقة بأن ما أقرأه ليس تافهاً.

ودار الحديث بينهما، فقالت له وهي ترمقه بعينيها العسليتان مازحةً بشيءٍ من الصرامة _كي لا تشعره بالذنب_

_هل أعجبك

_أنا لم أقرأ منه سوى هذا السطر الذي لم أكمل تلخيصه، فهذا يعني إن قرأته كُلّياً لأسرّني إلى حدٍّ ما...

_جميل، إذاً يبدوا أنك قارئاً متذوّقاً، أو أنك لم تقرأ الروايات من قبل

_بل لم أقرأ هذا الكتاب من قبل، أنا قرأت أكثر مما تتوقعين، منذ بلوغي ال 18عاماً وأنا أدمن القراءة بشكلٍ جنونيْ، لكني ما حدث أن صادفتُ مثل هذا الكتاب أبداً، لا في المعارض ولا في المكتبات الصغيرة

فأجابته بنظراتٍ مدققة ودفعةُ غضبٍ مصطنعٍ

_ ربما قد تكن محقاً.. ومخطئاً أيضا، محقاً لأنك تدمن القراءة إلى حد خرافي، وهذا يبين من إختلافك عن الجميع، شخصيتك الرهيبة، عيناك الصغيرتان، وجهك البني، إلى جانب الأبيض الذي ترتديه، ومخطئاً في أنك لم تجد هذا الكتاب أبداً، لقد أخطأت أخي، فكلٌ منا يجلب ما قد يراه مناسباً، ويقرأ لكتّابه المميزين، ونوعه المفضل من ألوان الأدب، وربما أنك مهوُوساً بالأدب الغربي كبقيةِ الشباب

_نعم أنا كذالك، لم أقرأ كثيراً للشّرقيين

_ولماذا؟

_لأني أنا شرقي، وأعيش نفس تلك السطور، فلماذا أقرأها إذاً؟ لابد من أن أنوع قراءاتي لأنمّي مستوى ثقافتي

_لا، هذا ليس صحيحاً، الجميع يبرر بهذا الإعتقاد، أنت لست شرقيٌّ ما لم تقرأ للشرقيين، ليس بمجرد أن تعيش في الشرق يعني أنك شرقي.. لا، قد تكون شرقيا بالنسب فقط، أما بالثقافة لا، فأنت لا تعيش الواقع بأكمله ولا حتى السطور التي يخطها الكُتّابُ في صفحاتهم

_صحيح، أنتِ محقة، لكني لستُ مرغما لأن أجعل ثقافتي شرقيةً، كما أنهم يقرأون لنا، فلابد من أن نبادلهم نفس الشيء ونتناول شيئاً من ثقافتهم

_نعم لستَ مرغما، لكن لا يجب أن تلقي اللوم على ثقافتنا على أنها لم تُنشر وانك لم تجدها، وأنا لا أقصد أن لا تطلع على ما يسطرونه، لكن يجب أيضاً أن تلقي نظرةً على ما يخطُّه أُدَباءنا.... ومهلا، من قال أنهم يقرأون لنا؟

_هههه... كفى كفى، أنا أعتذر، أنا المُخطئ، أراكِ مُلحّة متشددة يبدو أنني أزعجتك، أنا آسف، أنا أعتذر

_نعم. أنت مخطئ، وأزعجتني كثيراً، لكن لا داعي للإعتذار.

ثم دار بينهما صمتٌ كثيفٌ ممتلءٌ بالكثير من الإضطرابات والتساؤلات المُريبة التي تغوص داخل كلٍ منهما عن الآخر، مرت بضع دقائقٌ ليست طويلةٌ، لكن كلٌ منهما يراها كالدهور المليئة بالأساطير التي ستُمسي في آخر المطاف حكايات يقصّونها لما يأتي من أجيالٍ خاليةٍ من المُعجزاتِ.. كجيلنا

أعادت مذكرة ذاك الغريب لمكانها بعدما عبثت فيها قليلا بقلمها دون أن يراها، ثم شردت مرة أخرى منسجمةٌ مع ذالك الكتاب الذي طالما دفعت عنه الكثير من الإجتياحات من هذا الذي لا تفصلها عنه سوى بعض سنتميترات، لا أدري إن كانت تقرأ حقاً أم أنها تفكّرُ فيما قاله لها للتو، فقد عكّر مزاجها، لكنه كان غارقاً في تأمّل تلك المجموعة الصغيرة من الفتيان الذين يفترشون الأرض، يطبل واحداً منهم على الدّف الصغير الذي وضعه بين رجليه، ويغني واحداً منهم، بينما البقيةَ يكتفون بالترديد والتصفيق والتصوير، لم يشغل باله بتلك المناقشة التي جرت قبل قليل، عادته لا يطيل التدبّر في أشياءٍ يدركُ ما نهايتها، قطعت شروده كرّةً هوائيةٌ صغيرةٌ ضربته برجله فانحنى قليلا لينتشلها، وما إن رفع رأسه حتى وجد طفلا صغيراً ماثلا قبالته بإبتسامةٍ ملؤها الأملِ يخبره أنها له، فبدأ يداعبه وقال له مازحاً

_لماذا أفلتت منك؟

أجابه بعفويةٍ

_لأني ركلتها بقوة ولم أستطع اللحاق بها

_هذا يعني أنك لا تجيد اللعب

أجابه الطفل"والجميلة ترقبهما بصمتٍ"
_لا، أنا أجيد اللعب، لكنها أفلتت مني دون انتباه
فقال له قاصداً مواساته
_حسناً سنعقد اتفاقاً، أنا سأطلقُ الكرة من هذه الناحية، إن لحقتها قبل أن تصطدم بكشك "الآيس كريم" ذاك، سأشتري لك واحداً، وإن أخفقت، ستبتاع أنت لي واحداً
وافق الطفل بذالك العرض، وأطلق مالك الكرة ببطءٍ فالتقطها الطفل قبل وصولها، فاشترى له علبة، ولنفسه، ولتلك الجميلة، لكنها أجابته بأنها لا تريد، وبعد إصرارٍ منه أخذتها، ثم بدأت بالحوار معه مرةً أخرى، يبدوا أن "الآيس كريم" قد نشط عقلها، أو أنها قد أعجبتها طريقة تفكيره، قالت:
_هل تمانع إن أطرقتُ لكَ ببعض الأسئلة؟
أجابها: بالطبع لا، لكني أيضاً سأبادلك بعضها
قالت: لا بأس
ثم سألته عن سر لبسه الأبيض في هذا اليوم، أجابها
_لأني مسالماً، والأبيض وشاح السعداء
_إذاً لَم تأتي أنت من أجل "الفالنتاين؟"
_لا، أبداً، أنا جئتُ فقط للنزهة
_ولماذا أتيتَ في هذا اليوم تحديداً؟
_لأنه يومي الوحيد الذي أتفرّغُ فيه من كل إسبوع، فأختارُ مكاناً جميلا لأتسلّى فيه، أحياناً أذهب إلى المكاتب، وأزورُ أهلي أحيانا، وأحياناً أزورُ معارض الرسم لتأمل بعض اللوحات
_هل هكذا وحدك دائماً؟ أم أن لك رفاقاً أو صديقة تطوفان سوياً؟
_لا، هكذا دائماً وحدي أنفرد بنفسي وأملئني بالسرور كما أعشق، فأصدقائي مريضوا "بابجي" حيث لا تفارق أيديهم التلفونات، وكثيراً ما يُطردون في المحاضرات بسبب إنشغالهم بها

_حسناً، هذا جميل
_وأنتِ.. لماذا ترتدين الأبيض؟
_لأني أعتقد أن لا لون يشبهني سواه
_أووه... راائع، لكن لماذا في هذا اليوم؟ ألا يجب أن ترتدي الأحمر مثلا؟ أم أنكِ لا ترغبين بالإحتفال؟
_نعم وفي هذا اليوم تحديداً، فأنا لا أحتفل بخرافة ليست إسلامية، وأرفض تقديس تلك الخرافة التي يظن البعض أنها إفراجا لحرية الحب وهي أصلها: "قديساً وقع بحب إبنةِ إمبراطورٍ وزنى بها.. فأعدمه الإمبراطور " فاتُخذ البشرية من يوم إعدامه عيداً للحب.
صمتت قليلا، التقمت قطعةٌ من "الآيس كريم" ثم أضافت
_ولا شيءَ يستحق أن أرتدي الأحمر لأجله، فهذا اللون شائعٌ بما يعني، إن تأمّلت جيدا فلن تجد عيداً يفرح الناس فيه بإرتداء الأحمر، ففي أعيادنا الإسلامية جميعها إعتدنا أن نلبس الأبيض،إلا في إحتفالات المولد النبوي الشريف يرتدي بعض شِيَعِ الطّوائف والطرائق الدّينية زياً معيّناً يميزون بي أنصارهم.. وأيضاً لم أجد طريقةً ترتدي الأحمر وحده، حتى لدى الأديان الأخرى
إن لاحظتَ ليست هناك قداسةٌ للأحمر في معتقداتهم، وهذا يعني أن الأحمر ليس مميّزاً
_ربما قد يكون في نظرنا فقط، أُؤَيّدُكِ أيضاً، لكن إن تمعّنتِ جيداً فإنكِ ستجدين أن الكثير من أعلام الدول تحملُ اللون الأحمر، بما في ذالك وطننا، هذا يعني أن للون الأحمرِ قداسةٌ عُظمى
_حسناً، إن الدول التي تضع اللون الأحمر على أعلامها، هذه تعني شيئاً آخر، لا إحتفالا ولا عيداً، وإنما تقصد الدفاع عن الوطن بأي قدر كان، حتى لو أودى الأمر إلى فقدان أرواحهم، واللون الأحمر هنا يعني "الخطٌ المستحيل عبوره" يعني الوفاء والنيلُ لدماء الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم من أجل الوطن، وإعلاماً للمستعمرين أنهم سيضحّون بدمائهم من أجل أن يبقى الوطن حراً،

لم تكن هناك سعادةٌ أو هناءً يحمل الأحمر شعاراً قط، الأحمر لون الخطر، ولا يجب أن تطل المشقاتُ في الأفراح

_حقيقة، أصبتِ حقاً يا عزيزتي، يبدوا أن الوقت قد تأخّر قليلا يجب أن أعود، كان الحوار معك ممتعاً للغاية، لم أشعر بالوقت لو لا ظهور الغروب، سأغادر، إلى أن نلتقي في صُدفةٍ أخرى

لملم أغراضه ونهض من المقعد، فقامت هي أيضاً وأجابته مازحةً

_حسنا، لو لا انتباهك الباهت لمكثنا في جدالنا حتى منتصف الليل

أشرقت إبتسامة ليّنةٌ من ثغره البرقي وهو يتأمّلُ عيناها العسليتان، فأردفت قائلةً

_أنت إنسانٌ رائعٌ للغاية، والحديثُ معكَ له لذةٌ أخرى

أمالت رأسها إلى الأرض قليلا رافعةً حاجبَيها بعُنجهية تحدّقه بأطرافِ عيُنيْها المُكتحلتينِ بغيومِ الدلال وهي تقول له مازحةً بنبرةٍ مُنخفضةٍ

_غيرُ تقليدك لي في الملابس

ابتسم بنصف ضحكةٍ لا صوتَ لها، هم بالحديث، لكنها بادرت قبل أن ينطق بعد ما استعادت رأسها من إمالته قائلةً

_أتمنّى أن نلتقي في وقتٍ أكثرُ سِعةً ومكاناً أقلّ ضجيجاً لنتناقش في هدوء

_"إن شاءلله ما آخر وداع"

قالها مبتسماً بلحنٍ فريدٍ كمُغنّيها، وبنبرةٍ هادئةٍ مصافحاً يدها الورديةِ ذات اللون الأسمرِ والأكمام البيضاء، فأضافت

_إلى اللقاء

ومن ثم استدار نحو الطّريقِ المُؤَدّي إلى البوابة وهو لا يُفكّر سوى بما ينتظره، قد أودع كل تلك المحادثات مكانها، ففي معتقده أن كل ما يمضي لا تهتم به سوى السطور، أما عقله فسينشغلُ بما يحدث قادماً

بينما هيَ لم تفارق عيناها خطواته حتى تلاشى تماماً في وسط الجموع التي بدأت تزدادُ بكثُرةٍ، فهي في معتقداتها أن ما مضى أكثر أهميةً مما سيأتي، فالماضي

يعلمك الكثير، ويُفيدك في حاضرك، بينما المُستقبل تترقبه فقط بالإنتظار، وتصطدم فيه بالكثير من المُفاجئات الغير إرادية.
جلستْ مكانها وما مكثت غير دقائقٍ حتى أتاها بعض أفراد أسرتها يخبرها بأنه قد حان وقت الرحيل، فهي أتت مع أسرتها لقضاء يومٍ جميلٍ في هذه الحديقة الغنّاء، والتقتْ بما جعلها تعتقد أنها خلقت لأجله.

***

كان ذالك اليوم هو أغرب حادثة مرت عليه في عمره، لم يمضي تلك الليلة في سلام، هبّت عليه عواصفٌ من الذكريات أمست تنهش في عقله بلا رفقٍ، وأمطرت في سماء خياله أطيافٌ من الوهم تخبره أن هناك شيءٌ ما يحدث ضجةً في ذهنه، قد التقى بالكثير من النساء الحسناوات وغيرهن من صديقاته المقربات، لكنه ما حدث أن شغلت باله مثل تلك الأنثى المُريبة التي لم يمضي لقاءهما سوى بضع ساعات، فقد أمضى نصف ليله يتقلب على ذكراها في مضجعه، حاول أن يقرأ.. لكنه لم يستطع، لأنها علقت بذهنه، ما إن يفتح كتاباً حتى يراها بين سطوره، بضع ساعات فقط تتردد ذكراها وكأنها ألف عام، الذكريات مخدر وهميٌ لألم الماضي، تنعشك بالسعادة عند طلتها، لكنها تملؤك وجعا عندما تتيقن أنها مضت.. ولن تعود
بعد شرود طويل وبعد أن ثمل من ذكرياته تلك، جالت على خاطره بغتةً فكرة، هرع الى شنطته، اخرج مذكرته، وشرع في قراءة تلك السطور التي اقتبسها من كتابها، ظل يقرأها ويرددها مراراً، وبين كل مرة وأخرى يتذكر ذاك الموقف فتمتد ابتسامته أكثر وكأنه يقرأها للمرة الأولى، ظل يتأملها بتلك الطريقة لبرهة من الوقت وشرد بعينيه في حائط الغرفة ينظر في اللا شيء، حتى هبت نسمة انقلبت على إثرها تلك الصفحة، لاحظ في لمحةٍ أن هناك سطوراً ليست بخطه لكنه تجاهلها، ظن أن أوهامه تخيل له ذالك.. "حروفاً مزخرفةً في صفحة فارغة" لكنه أعاد ذهنه بغتةً وكأنه أيقن أنها ليست خيالا، أو أن وحياً قد مرّ بعقله وأخبره.. أن "تمعّنها" عاود النظر إليها مجدداً، فوجد نصاً مكتوبا بخط

ديوانيٍّ غير واضحٍ لسرعة كتابته، وكان محتواه "سأفتقدك، وإن احتجتني فاتصل بي... تحياتي" وفي السطر الثاني من الجهة اليسرى رقمٌ لهاتفٍ أرضيّ، اتسعت حدقتا عيناه وظل يحملق في تلك الحروف وينتقل بنظره إلى ذاك الرقم مرّةً أخرى، لا.. كيف ومتى فعلت ذالك، لكنه لم يتردد كثيراً.. اتصل بها على الفور من جهة أخرى كانت هي في مكتبتها البيضاء التي تحتضن رفوف الكتب حوائطها من كل النواحي، والتي أعدها لها والدها احتفاءً بنجاحها الباهر ووفاءً لحبها للقراءة، وبجانبها كوب قهوةٍ وطبقُ حُلوى أعدته لها والدتها، ومن الجانب الآخر الهاتف الأرضي التي تعيد النظر إليه في كل ثانية، كانت ترجو منه اتصالا، وكأنها كانت تدري بأنه هو المتصل حينما التقطت سماعة الهاتف بلا تردد ونطقت قبل أن ترد له التحية

_تأخرتَ كثيراً، لقد أصابني النعاس

أجابها بدهشة دون أن يلقي اهتماماً لجواب سؤالها

_كيف عرفتِ بأني أنا المتصل

أجابته بفكاهة تبدوا غامضةً شيئاً ما، وتخبئ بداخلها ملخصاً لشعورها

_لأن في مثل هذا الوقت لا يظهر إلا السارقون

أجابها كعادته بلا مبالاة لما تقوله من ألغازٍ، وببرودٍ يدعي فيه البراءة رغم أنه قد حلل كل تلك الإلتباسات التي تخفيها خلف أحرفها

_وهل أنا سارق؟

أجابته بلُغزٍ آخرٍ.. قالت وكأنما ليست هي التي سرقت مذكرته في غفلته وخطت على صفحاتها رقم هاتفها، أو كأنها ليست التي كانت تنتظر مكالمته قبل قليل

_لستُ أدري، ولكن ليس هناك أمينا يطل في مثل هذه الأوقات

_هههه.. أنت دائما كثيرة التعقيد، وإن كنتُ سارقاً.. فهل من نزيهٍ سينتظر مجيئي لأسلبه حقه؟

قالها بسخريةٍ وعفوية الذي يدعي البراءة، فأجابته بدهاءِ عجُوزٍ ومكر أنثى

_إلا من سُرق
قال لها وكأنه يريد إتقان اللعبة جيداً لجعلها تصدقه
_وما الذي يجعله ينتظر؟
_ربما أنه قد أعدّ مؤامرةً لك لتأتي ويسلبك حقه
قالتها بجديةٍ ويأسٍ وأطلقت تنهيدةًُ غفوةٍ معلنةً له أنه قد هدها النعاس، لكنه أجابها مرةً أخرى ببرودٍ ولا مبالاةٍ لتنهيدتها مدّعياً عدم التركيز فيما قالته وعدم الفهم قائلا
_ماذا تقصدين
أجابته بصوتٍ حاد وجملةٍ يابسةٍ بعد أن يئست منه
_لا أقصد شيئاً، تصبح على ألف خير
_لا بأس، سنلتقي الإسبوع القادم إن لم تمانعين؟
قالها بسرعةٍ عندما علم أنها ستغلق الخط في وجهه..فأجابته
_في ملتقى النيلينِ، عند السادسة مساءً
قال مازحاً بعفويّته الماكرة
_سيكون الجو لاسعاً
_لن يؤثر على من يحملون بداخلهم من الحب أطناناً، طابت ليلتك.
قالتها ثم وضعت السماعة وأطلقت نفساً عميقاً كان مطوياًَ بداخلها وكأنها قد أخرجت مع جملتها الأخيرة كل الخبايا من جوفها، أشبكت يديها ووضعتهما أسفل ذقنها تنظر في اللا شيء بإبتسامة واسعة. حتى اشتد النعاس عليها، فأقبلت نحو غرفتها.

***

"أصبح الصبحُ.. ولا السجنُ.. ولا السجّانُ باقي
وإذا الفجر جناحان يرفّان علي
وإذا الحزن الذي كحل هاتيك المآقي"

هكذا كانت تشرق صباحاتها تلك الجميلة بعد أن تُهَيّئ لنفسها فنجان قهوةٍ، إما على أنغام فيروز أو على ترنيمات أحد مغنييها المفضلين واليوم اصطبحت على لحن هذه الأغنية التي يؤدّيانها العملاقان معاً "محمد وردي.. ومحمد الأمين" كانت تردد معهما كل حرفٍ بكل عواطفها وكأنها هي من تُؤَديها، وعندما رددوا

"والذي شد وثاقاً بوثاقِ..
بعثرنا في كل وادي..
فرحةٌ نابعةٌ من كل قلبٍ يا بلادي"

على صوتها وهي تكرر معهما بإنسجامٍ شديدٍ حتى أفاقت والدتها، هرعت إليها تستنجدها ظناً منها بأنها وقعت، فكثيراً ما تنزلق عندما تصعد المقعد لتنال كتاباً من أعلى الرفوف.."لأنها قصيرة"، لكن وجدتها ترتب كتبها وهي تدندن ألحان تلك الأغنية، لم تشعر هي الأخرى بوجود والدتها إلا حينما قالت لها "صباح الخير" إلتفتت بلهفةٍ وأسرعت على مشغل الموسيقي أخفضت الصوت قليلا ثم بادلتها

_صباح النور أمي كيف أصبحت.؟ إنتظريني هنا سأحضر لكِ القهوة

أجابتها: لا.. ليس الآن أنا ما استحميتُ ولم أتسوك حتى، رتبي مكتبتكِ أنت ولا تتأخري عن الكلية

أجابتها كما تعودت أن لا تعصي لها أمراً:

_أجل حسنا.. شكرا أمي،

وبعد أن همّت والدتها بالخروج نادتها بخفوت وتهذّبٍ: أمي

إلتفتت إليها وهي تدير مقبض الباب قائلةً

_نعم

فقالت لها: أنا لم أخبرك، سأذهب اليوم للقاء صديق لي بعد الخامسة مساءً بعد أن أفرغ محاضراتي ومراجعاتي.

اندهشت امها من خبرها المفاجئ، وقالت بإستغراب

_ما هذا؟ منذ متى وأنتِ لديكِ أصدقاء؟
أجابتها بتلقائية
_ منذُ الإسبوع الماضي
ذُهلت أكثر وأجابتها قائلةً:
_ما هذا يا صغيرتي؟ قبل إسبوع فقط التقيتيه، فأحببتيه واليوم ذاهبةً للقائه.. وحتى أباكِ لا يعرف عنه شيئاً؟
فقالت لها بصوتٍ واعدٍ دون ارتباكٍ
_لا يا أمي.. ليس هكذا أبداً.. هذا هو الشخص الوحيد الذي اطمأنت له روحي منذ معرفتي للرجال ما تمكن ذكرٌ أن يجذبني إليه، لكن هذا هو الوحيد الذي انتشلني دون أن يقول لي شيئا من ابتداعات الغزل، أو حتى يسألني عن إسمي أو عنواني أو مقرّ دراستي، وهذا هو المخلوق الوحيد الذي أحببته دون أن أتعرّف عليه.
رأت أمها أمانة الحق في عينيها فلم تعاتبها كثيراً، وقالت لها
_حسناً، لا بأس، لا أستطيعُ حرمانكِ من ما قد راق لكِ، لكني فقط أريد توعيتك حتى لا تنهاري في مستنقعات الضرر، فالرجال دوماً خادعون وكثيروا الكذب، يسهرون في ليلهم للمكائد والعبارات المغرية التي تجذب الأنثى.. ويصطادون بها في النهار، وعند اللقاء يدّعون البراءة، ربما قد تتسائلين كثيرا عنه.. لأنك ما رأيتِ فيه شيئاً عشقتيه لأجله، أو حاجةً من الأشياء التي يديرها ليحصل على غنيمته من أنثى، لكن عليكِ أن تعلمي يا صغيرتي أن الحب في هذا الوقت أصبح في الورق لا في الضمير، أعني أنه يُشترى مثله مثل كتب التنمية البشرية، الحب الآن أصبح تجارياً يا عزيزتي، يُقرأ قراءةً.. ثم يُطبّق في أقرب مراهقة تظن أنها يجب أن تتمتع بحريتها.. فتُباع عند إصدار أول كتابٍ جديدٍ يضيف طرقٍ حديثةٍ لجلب النساء.
ارتعشت من حديث أمها الطويل وأصابها الملل حتى كاد يهبطها، لكنه تلاشى ذالك الحديث في حينه عندما طاف طيفه بخاطرها فقالت لأمها

_هذا ليس الذي يُخشى منه يا أمي، ثقي بي ولا تخافي عليّ أبداً، لا ثلوثي ذهنك بالتفكير فيه، أنا متأكّدةً أنه سيسرك إن تعرّفتِ عليه، فقط رضاكِ هو ما يُهمّني أمي

اقتربت أمها منها، وضعت كفيها علي كتفيها، قبلت جبينها وضمّتها إلى صدرها قائلةً بصوتٍ حنونٍ وهي تمسح على ظهرها

_عيناكِ تُخبرني الحقيقة يا بنيتي، وقلبي مطمئنٌ عليكِ، لكني أخشى عليكِ عاقبةُ الألم

تنحّت عن حضنها قليلا.. رمقت عيناها.. تأملتهما جيّداً.. غاصت في أعماقهما قليلا ثم قالت

_أخبرتك أن ثقي بي أمي، فوالله لن أدع الحزن يغشاكِ أبداً.

ثم قبلتها في جبينها وأقبلت نحو الباب خارجةً قائلةً

_وداعاً أمي

_حظاً موفّقاً

قالتها أمها مازحةً لتخرجها من إكتئابها

فأجابتها بإبتسامتها الواسعة بعد أن أغرورقت عيناها بالفرح

_يا رب تقبل دعوات أمي.

من جهة أخرى كان هو خارجاً من مكتبته بعد اصطباحته "بالفقراء" تلك الرواية التي لا يمل من قراءتها، وضع حقيبته في كتفه ودلف نحو الباب متجها إلى كلّيته كانت بالقرب منه يسكن هو في "حي العرب" بمدينة "أم درمان" ويدرس في كلية "اللغة العربية" بـ "جامعة أم درمان الإسلامية" ما بين مسكنه وكلّيته مسافةٌ لا تزيد عن ٧ دقائق

عاد إلى المنزل في الثانية ظهراً بكمٍ هائلٍ من ال"شيتات" والكثير من المحاضرات التي لم يفقه من ما احتوته شيئاً، فالمحاضرون في تلك الكلية لا يهتمون أن يستوعب الطالب أو لا، فقط ما يهمهم هو بيع ٥٠ "شيتاً" في كل محاضرةٍ لتزويد دخلهم وتوفير صرف المواصلات،_ولهم الحق في ذالك_ فأكثرهم ضعفاء

ولا يمتلكون وسيلةً خاصة تنقلهم من وإلى عملهم، فهم يعانون كل يومٍ من الإكتآب وزحمة المواصلات، والحكومة لا تعتني بهم جيداً ولا تعطيهم ما يستحقون.. فيأخذونه من الطلاب.

لم يستطع أن يقرأ.. فنام، أخذ قيلولةً قصيرةً لمدة نصف ساعة، ثم أفاق.. راجع قليلا.. لخص ما يهمه في دفتره ووضع الشيتات في درج الأوراق المهملة، معظمها سطوراً لا غناء منها، فقط زيادة في تعداد الورق

عاد مرة أخرى إلى مكتبته وأخرج رواية تبدو غربية مترجمةً إلى العربية وكان عنوانها "الجاسوسة" شرع في قراءتها حتى أكملها في الرابعة والنصف.. ثم خرج، أخذ حماما وأدى فريضته، ثم بدأ يستعد للقاء هذا المساء، ارتدى بنطالا أسوداً وقميصاً باللون الأبيض.. جزمةً سوداء.. قُبعةً باللون البُني الداكن تميل إلى السواد شيئاً.. وساعةً باللون الفضي الفاتح وأخيرا أنزل جيتاره في حقيبته برفقٍ وأغلقها.. ارتداها في ظهره.. وضع معطفه الشتائي في كتفه اليسرى.. امتطى دراجته النارية وانطلق نحو ميعاد اللقاء

هناك كانت هي في إحدى المقاعد ثاويةٌ بجانبها مقعد فارغ وضعت فيه كل ممتلكاتها العاطفية من قلبٍ وعقلٍ وحُبٍّ وثقةٍ ورجاءٍ وترقّبٍ وانتظار، أمامها طاولةٌ عريضة وضعت فيها حقيبتها الصغيرة التي لا تحملُ شيئاً سوى كتابٍ واحدٍ وبعض الدفاتر والأقلام وجوّالٍ صغير. فهي ليست كبقيّةِ الفتيات لا تأخذ معها مرآةً ولا ميكب، ولا أياً من مساحق التجميل التافهة، تؤُمنُ بأن ما وهبها الرب إياها أرقى من أن تلوثه بمهلكاتِ التجميل.

جالسةً في مكانها يلثمها الشتاء.. فيُدفئها الحب، تآنسها أمواج النيل التي تتلاطم في صمتها بسكون، فتبتسم تارةً من أحاديثٍ مضحكةٍ يرويها النيل لها، وتارةً أخرى ترتشف قهوتها وتلتفت إلى الطريق، تتأمله إذا ما سمعت نقرشةُ خطاوٍ تمشي عليهِ، علّهُ يكون ذالك المجهول الذي تنتظره.

لكنها لم تشعر به حين أتى، فخطواته كانت أكثر خفة من سمعها، هادئاً يعشق السكون حتى في المشي، ولم تشعر به حتى عندما وقف بجانبها إلا بعد أن قال لها لما رآها تبتسم في وجه تلك الأمواج _وهو يشاركها التأمل أيضا_

_أظنّ أن لكِ قصةٌ أخرى مع هذا النيل.

أجابته بعد أن ألقت نظرة عجبٍ عليهِ

_بل والشّتاء

قال بصوتٍ مرهق ونبرةٍ مضحكةٍ وهو يمد الكرسي بيده اليسرى إلى الوراء قليلا منثنياً للجلوس

_بل والقهوةُ أيضاً

ضحكا جميعاً بسخريةٍ على سذاجتهما، ثم حياها فردت له التحية، سألته بعد صمتٍ كان يخلع على إثره معطفه الشتائي بعدما أسند الجيتار على قدمِ الطاولة

_هل هذا جيتارٌ أم آلةٌ أخرى؟

أجابها بعنجهيةٍ مصطنعةٍ رافعاً حاجبيه وباسطا ذراعيه كأنه يعلن عن إنتصارٍ ما

_جيتار

فقالت له مازحةً دون اكتراثٍ لحماسه وكأنّها تسخر منه

_هل تجيد العزف عليه أم فقط تتباهى به؟

أجابها مازحاً يبادلها السخرية

_لا.. فقط أقرأ فيه "بوليفونيا"

علت ضحكتهما معاً.. فقالت له

_إذن غني لنا.. أو أكرمنا بمقطوعةٍ قصيرةٍ إن كنتَ لا تجيد الغناء

ابتسم لها بودٍ، أخرج الجيتار بلطْف وهو يقول مبتسماً

_سأُريكِ

عزف مقطوعةً قصيرة من موسيقي "إيزل" فاحتارت تلك البريئةُ السمراء وبدأت تتجمع معالم الدهشة في وجهها الصبوح.. كثُرت الأسئلة في عقلها الصغير.. رأته زائراً.. وأحبته قارئاً.. ثم اكتشفت اليوم أنه عازف. إذن ماذا سيكون في الغد؟ ما زال يختبئ الكثير عنه، قطع صمتها عندما كف عن العزف وسألها

_ما رأيكِ

كانت شاردةً.. لم تجبه، فكرر لها مجدداً بسؤالٍ أخر

_بماذا تفكرين؟

أجابته بلا ترددٍ: بك، عن هويّتك

قال: أهوى كل شيء

قالت له دون مقدمةٍ

_قد أحببتك، وأراني أتعمّق في عشقك لكني لا أدري حتى من أنت، أعذرني عن هذا السؤال لأنه ثقيلٌ جداً.. من أنت؟

وضع الجيتار بفوق الطاولة الواسعة وأقبل نحوها بعينيه.. حيثُ التقا القلبان، حيثُ مكث الحق وتاه الضلال.. وقال لها بثباتٍ

_أنا تائها وجدت نفسي بالأمس في عينيكِ، ربما قد يكون كمدي هذا سببا في هلاكي إن استمريتُ بإخفائه، وما كنتُ سأبوح به لولا أن أخبرتيني أنتِ أولا، ولطالما صارحتيني فلا يجب أن أُخيّب أملكِ، لابد أن أوضح لكِ ما ينتابني من شعورٍ نحوكِ، فأنا يا عزيزتي وقبل كل شيء إسمي "مالِك" وُلدتُ في إحدى قُرى "نيالا" ينتمي نسبي لأبٍ تشاديٍّ وأمٍ نيجيرية، وكلاهما يُقيمان هناك، أتيتُ إلى هنا برفقة أخي للدراسة، لكننا اختلفنا فافترقنا، عاد هو إلى البلاد وأقمتُ أنا هنا لإستكمال دراستي، حتى سقطتُ قبل إسبوعٍ في كمين عينيكِ.. فأدركت أن العيون لم تخلق للنظر فقط.. بل للعشق أيضاً.. أحببتُكِ دونما أعلم، فأنا لم أسألك عن إسمكِ وأين تسكنين.. خشيةَ أن أحبكِ.. هكذا أخبرتني أمي "إن

أردتَ أن لا تنهار في جروف الحب مع النساء.. فلا تتعرّف عليهن، لكن عليكَ أن تعلم أن الحُبّ الحقيقي لا يتعلّق بالمعرفة" وهذا ما أظنّه قد حدث

كلاهما صمتا ملياً وفي داخل كلٍ منهما تساؤلاتٍ لم تظهرها سوى العينين، طال الصمت.. كلٌ منهما يبحث عن سؤالٍ تائهٍ أو حرفٍ ليخمد به نيران هذا السكوت، همهمت هي وهمت أن تسأله شيئا، لكنه قاطعها وبادر بالسؤال هو قائلا:

_وأنتِ..؟! ماذا عنكِ؟ لم تخبريني عنكِ شيئاً

أجابته مازحةً بدلالٍ

_لا أريد إخبارك حتى لا تقع في غرامي

رد لها هو الاخر مبتسما بلغةٍ فلسفية غامضة

_لا بأس أن أقع فيه مرة أخرى، فإني قد حفظت جميع مساراته، لن أتوه فيه ولن أصاب بالشلل مثل تلك المرة، لكني سأُصاب بالعمى عنه.. دعيني أتعمق فيه

أجابته بعد أن رمقته بنظرة امتنان وعجبٍ ممزوجٍ بعدم إستيعاب

_أنا الفتاة الوحيدة في البيت، والمولود الوحيد لوالدَيّ، تقول أمي: أنها عندما أخبرها الطبيب بأنها ستنجب أنثى، تمنت ان يكون اسمي "عائشة"، إقتداء بعائشة بنت الصديق وزوجة النبي ﷺ لكن بعد ولادتي ترجّتها خالتي بأن تسميني" نانسي" لأن ملامحي تشبه تلك المغنية، لكن أبي رفض كل تلك الأسماء، وقرر أن يسميني "لميس" وذالك لنظره في معنى ذالك الإسم وأصله الأنثوي واعتقاده بأنه يشبهني، فرفضت أمي ذالك الإسم، لأنه لم يسبق أن سمي به أحدٌ من أسرتنا، فأخبرها والدي بأن "لا يجدر بنا أن نقتفي آثار أجدادنا في كل شيء، لابد من أن نحدث شيئا مختلفا يميزنا عنهم، فنحن أيضاً سنصبح جدوداً فيما بعد." لكنه أيضا لم يستطع إقناعها فقال لها "إذن فلتناديها انت عائشةً وأنا أدعوها لميس" ومنذ ذالك الحين أصبحت امي تناديني "عائشة" وأبي

يناديني "لميس" وأصدقائي ينادونني "سندريلا" لأني أشبه تلك المغنية، لكن إسمي في البطاقة هو "مريم"

_مريم.؟.. ولماذا إذاً.؟!

لأن هذا هو الاسم الذي اتفق عليه جدي وجدتي لحسم صراع والديّ حول إسمي. وذالك لأنّه يدمج معاني الإسمين فيه، فأرادت أمي أن أكون "عائشة" بقدر عظمتها بنت الصديق وزوجة النبي وأحب الناس إلَيه، وبعض الصفات الجميلة التي وردت عن هذا الإسم وصاحبته، وابتغى أبي أن يسميني "لميس" لأني أشبه هذا الإسم ولأحمل كل ما فيه من معنى، واختار أجدادي إسم "مريم" لعظمته ولأنه إسمٌ ديني يحمل كل ما في الإسمين من معنى، فقد تم ذكره في القرءان ٣٤ مرة، وهناك سورة تحمل إسم مريم، وهي السورة الوحيدة التي تأتي في القرءان بإسم إمرأة، وفي اللغة العربية يأتي إسم مريم بمعنى "إمرأة" ويُقال أنه كان اسما لشجرة مثمرة كانت تُزرع في الأندلس، وغيرها من الصفات الكريمة، وهكذا تم حسم الجدال بين أمي وأبي في إختيار إسمي، لكن ما زال كلٌ منهم يناديني بإسمه الذي أراد أن يسميني به.

قال محتاراً: وهل يسعدكِ ذالك؟

أجابت: كثيراً

فقال لها مادحاً والدهشة قد عمّت ملامحه

_يا لكِ من محظوظة، إن لكِ عائلة عظيمة، عجبا لهم، انهم عميقون جداً، لا يلتقطون من الأسماء إلا ما لها معنىً عريق.

ثم أزاح ناظره عنها بعد أن أثنت عليه بكلماتٍ شكر وتقديرٍ، حملق بعيداً نحو الأمواج تائهاً في اللا شيء. حتى أخرجته من تأملاته تلك عندما قالت له

_في ماذا تفكر.؟

_أفكر في إختراع إسمٍ عريقٍ أناديكِ به، فأنا أيضاً لاب...

إنه لم يكمل جملته تلك حتى رآها قد اوشكت على الوقوع من على مقعدها من شدة الضحك، هرع اليها مسرعا أسندها وعاد بها الى الكرسي، أصابتها نوبة

ضحك هستيريٌّ كادت تفقدها وعيها حتى دمعت عينيها الجميلتيْن وصارت تكح لوهلةٍ.. توقفت عندما ارتشفت جرعة ماءٍ من الكوب الذي ناولها إياه، ثم أشارت إليه بسبابتها بعد أن مسحت شفاها بالمنديل وهي تقول

_أنت... أنت...

وقبل أن تكمل أتى النادل بصينية صغيرة بها فنجانيْن من القهوة وبينهما"سكريةٌ" و "بخور" وضعهم في الطاولة وقال

_عيدُ حبٍ سعيد

رد له مالك بغضب وإستياء

_أحمق، لا عيد للحب، وبالأمس كانت تلك الخرافة.

فأجابه النادل بنبرة أسف ليبرأ جملته

_لا أقصد الفالنتاين يا سيدي، أنا أيضاً لا أؤمن به، لكن لدينا هنا هذه هي جملة الترحيب سواء في الفالنتاين أو غيره، فالحب لا عيد له لدينا، الحب كل يوم، وعيد حب سعيد.

ثم انطلق النادل وتركهما يتبادلان نظرات العجب بينهما كالحمقى، استغرب مالك من رد ذاك النادل الذي وصفه بالأحمق، وشرد قليلا بعقله حتى أفاق على صوتها وهي تقول له "عيدُ حبٍ سعيد".

***

تلاشى الوقت كالهواء، الساعة الآن الثامنة والنصف مساء.. ولم تعد لميس حتى الآن، ما كانت من عادتها أن تكون خارج البيت في مثل هذه الأوقات إلا برفقةِ أحد عائلتها، لكن اليوم خرجت لوحدها ولم تعد حتى الآن، بل لم تخبر أحداً أنها ربما ستتأخر، أمها قلقلت عليها تتصل على هاتفها فتجده مغلق لا تدري ما الذي ستفعله، صارت تُخيط البيت ذهاباً وإياباً حتى يئست، جلست على إحدى المقاعد في طرف الجُنينة الصغيرة التي تتوسط المنزل، وضعت كفيها على وجهها، وانثنت قليلا على ركبتها، شردت بعقلها تفكر أين يمكن أن تكون إبنتها في مثل هذا الوقت.؟ إنها قلقلةٌ جداً عليها

بغتةً قامت سلمى من مقعدها، لا أدري لكنها ربما وجدت ذاك المكان الذي ذهبت إليه إبنتها، هرعت إلى غرفتها لبست ثوبها، واتجهت نحو الباب، وقبل أن تخرج رن هاتف المنزل، وكانت في حيرة من أمرها، هل أنها تعد لترد على هذا الهاتف اللعين؟ أم أنها ستخرج وتبحث عن إبنتها؟

لكنها عادت إلى الداخل دون اتخاذ قرار، وضعت السماعة في أذنها وقبل أن تقل مرحبا، أتاها ذالك الصوت الذي افتقدته طوال نهارها وكانت في طريقها للبحث عنه

_مرحبا أمي، أعتذر على التأخير أنا آسفة جدا لم استطع الاتصال بك لأن هاتفي كان مغلقا، واتصلت لك الآن بهاتف "مالك" أنا في طريقي للعودة إلى البيت

هدأ نبضها المتعالي الذي كاد يخلع صدرها وتراخت أعصابها قليلا، سكنت أنفاسها المتهالكة بعدما سمعت ذالك الصوت الحنون وكأنها تمتد الأوكسجين منه وكادت تفقده بغيابه، عادت إليها أفكارها التي كانت مبعثرة متناثرةً في اللا مكان، عادت إليها روحها بعدما ضاق الكون بها وأصبحت تشعر وكأنها بلا روح، فلم تستطع قول شيءٍ إلا أن أجابت نفسها بعد تنهيدة طويلة

_الحمدلله

سمعتها ابنتها ذالك فظنت ان مكروهاً قد أصاب والدتها، فقالت بإنفعالٍ

_ماذا بك امي، ما الذي حدث، لماذا تتنهدين هكذا، هل أنت بخير..؟؟

هكذا انهالت عليها بجميع تلك الأسئلة دفعة واحدة، وهي لا تدري ما قدر الأسئلة التي اهلكت ذهن والدتها، تخشى ان يمس أمها سوءاً ولا تدري ما قدر تلك الاسواء التي تصيبها عند غيابها، أجابتها

_لا.. أنا بخير، فقط كنتُ قلقة عليكِ

_أخبرتك أن لا تقلقي أمي، أنا بخير، ولن أفعل ما يزعجكِ أبداً، أتمنى أن تهدئي قليلا أنا عائدة في الحال أمي

ثم أغلقت الخط، وضعت الأم سماعة الهاتف ببطئ وأخرجت شهقةً عميقة أخرجت على إثرها عبء الأحزان والهموم التي كانت تترصدها، ثم خرجت

وجلست علي إحدى المقاعد التي تتوسط جُنينة المنزل وهي تراقب الباب تائهة بخيالها في اللا مكان، لم تمر سوى بضع دقائق حتى سمعت جرس الباب يرن بإنزعاجٍ، هرعت إلى الباب وفتحته، ففُوجئت بزوجها واقفاً على عتبته برفقة ابنتهما وعلى وجهه نقوشات الغضب والتجهم، وقبل أن يمسّي عليها صرخ في وجهها قائلا

_أتدرين أين كانت.؟ أنتِ تريدين أن تهدمي أخلاق ابنتي أليس كذالك.؟ هل أخبرتك أن تربيها على هذا النحو.؟

_ماذا؟ ما الذي يحدث يا عمران؟ البنت أحبت شخصا وذهبت للقائه.. هل ذالك يُعد جرماً.. أن يلتقي أحداً بمن يحبه؟؟

قالتها والدة لميس بصوت ملموس يكاد يخترق صدر عمران زوجها، لكنه أوقف حينها حاسة الشعور، ولميس التي لم تحرك ساكنا، حيث اصابت جسدها قشعريرة مدوية لن تتخلص منها الا بخفض صوت صرخات والدها عن أمها، أحمر خدها من فرط الحياء والخجل، حتى عيناها اكتفت بالتحديق الى الأرض ولمسها بقبلات باردة من أدمعها الحزينة لتخبرها أنها خلقتها من نطفةٍ أبٍ لا يعرف الحنية.

_بل يُعد جرائماً، ماذا تقولين؟..حب..؟، لو كان يحبها حقا لما واعدها في "النيل" لو كان يحبها حقا لسبقها هو الى البيت

_لكن لم يمر على علاقتهما سوى بضعة أيام، وكيف يتقدم رجلا لإمراةٍ لم يقرأها بعد؟

_لا شيء يُدعى علاقةً أو حب، ما يحدث خارج البيت يُعد خيانةً، ولا خيرَ في من يُقابل امرأة في السر

_وما أدراك أنه قابلها سراً.؟

_سلمى... لا أريد المزيد من الثرثرة منذ اليوم لن تخرج ابنتي الى أي مكانٍ بغير إذني، ومن ابتغاها حلالا.. فسأرسل له العنوان.. ليس أكثر.

قالها منفعلا بصوتٍ مرتفع وغاضبٍ وحركات يديه تدل على عدم مخالفة قوانينه.. ثم اتجه إلى غرفته،

أخذت سلمى ابنتها الى غرفتها، بسطتها على سريرها.. مدت عليها الغطاء وأخبرتها أن ترتاح قليلا، فهي بحاجة الى تهدئة أعصابها.. ثم خرجت.

كعادتها لميس.. عندما يُسيءُ مزاجها لاترغب في رؤية أحدٍ، ولا تدع أحداً بجانبها، تعشق أن تتوحد بمفردها حتى تتخلص من كامل إحباطاتها.

نعلم اننا نحب ابنائنا وهم ايضا متيمون بنا، لكن علينا ان ندرك أيضاً بأننا لسنا الوحيدون في حياتهم، فلا يجب ان نمنعهم ممن يحبون

أمست تتقلب على فراشها في شدةٍ وضجرٍ، تتوسد أدمعها بدلا من وسادتها التي اخترقها فيضان الدموع..فرمتها جانباً، لم تستطع النوم، كما حاولت ان تقرا ايضاً، لكن لم تعد هناك نفسٌ تتوق إلى القراءة فيها، الذي لا يستنجده الإغفاء للفرار من كآبته، لن تغيثه القراءة أبداً، وهذا ما حدث مع تلك الفراشة التي لم تكتسي بألوان التعس والأحزان يوماً، لكنها كادت تحترق من جذوة حزنها ودموع ضناها، لم تعد تحتمل قدر الألم بعد الذي سمعته من ابيها، نخرج الكلمات الحارقة أحياناً بسلاسةٍ ونجهل ما الذي عساها تفعله بالآخرين، هكذا صارت بعدما ترك والدها تلك الكلمات المبيدة في جوفِ أذنيْها، ما كان يدري بأنها قد تحللت سُما وسرى مفعوله في أعماق صغيرته البريئة، ما استطاعت ان تفعل شيئا، بدأت تشعر وكأنها تعويذة شر حلت على والدها.. وليست فتاة، تملكها احساسٌ أنها لا تعني له شيئا، أصابها شعور بالخيبة واليأس من الحياة، حتى أنها باتت تردد قول مريم العذراء "يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْياً مَنْسِياً"

***

فرحاً مسروراً منفرداً في دراجته، يجري بإسراع غير عابءٍ بالسرعة، فقد وضع في مكانها كتاباً أهدته إياه لميس، فقط يكتفي بالنظر إليه ويتوق لقراءته بتلهّفٍ متمنياً فقط متى يصل إلى منزله ليعد فنجان قهوته المميز ويهيم في

قراءته، يميل بدراجته كالمخمور يمينا ويساراً، نعم هو مخمورٌ حقاً، فلقد سلبت نشوى الهوى رشده، يردد بصوتٍ مسموعٍ في فرحةٍ عارمةٍ لم يعشها منذ أن تعرف على شعور "الحب" يردد تلك الأغنية التي ربما قد وجد جلاءها وصدق شاعرها، وإحساس مغنيها وشاعرها في هذا اليوم، يغني بلا وعي ويردد متفرهداً بشعور غامقٍ من ثورة الحب التي اجتاحت دواخله أغنية "نادر خضر" التي وضعها على مشغل الموسيقي في دراجته بصوتٍ يُسمع من على بعد ٤٠ كيلومتراً وهو يكرر وراءه

"يا لميس يا درة نادرة.. تهدي للناس اليقين
تزرع الريد والأماني... بسمة للقلب الحزين
يحفظك مولاي ويصونك.. ويبعدك عن كل عين"

هكذا جُن جنونه شغفاً وازداد بها تعلقا ولهاً وحباً، صار كالمخبول لا يفكر إلا بها ولا يهمه أحدٌ سواها، حتى وصل إلى المنزل، وبمجرد دخوله ركن الدراجة جانباً، وضع حقيبته في غرفته، غير ملابسه، أخذ حماما سريعا، ولج إلى المطبخ بإسراعٍ صنع كوب قهوته _وما زال يغني_ عاد إلى غرفته، أخذ ذالك الكتاب.. اتجه نحو مكتبته وشرع في قراءته.

الساعة الآن التاسعة وثلاثون دقيقة، في ساعةٍ ونصف قرأ ذالك الكتاب أكمله، وبعدما أنهاه.. بدأ يتأمل غلافه مطولا وهو يحتسي آخر رشفات قهوته، لا أدري لكن على ما يبدوا أنه قد ترك أثراً عميقاً بداخله، وأخيرا وضع الكتاب في إحدى رفوف مكتبته وأخذ تلك القصاصات التي دون عليها بعض الإقتباسات واتجه إلى غرفة نومه، فغداً لديه الكثير من الإمتحانات والكثير من الأشغال التي يجب عليه القيام بها

ولج إلى غرفته وقد انتفخ عقله من التفكير، خصوصا بتلك التي شغلت عقله، ما إن رآها حتى جذبت منه كل الحواس، أخذت منه كل شيء وسكنت في كافة اعضاءه، حتى عينيه امست لا تبصر إلاها، تلك الأنثى التي لم يستثنى عقله إلاها، وما نبض قلبه من قبل حبا إلا لها، الأنثى التي غيرت مجرى حياته والتي

أيقن بعد وجودها أن الأمنيات والأحلام جميعها تتحقق عاجلا أم آجلا، وأن الخيال لن نعيشه فقط في أوهامنا، بإمكانه أن يتحقق ويصبح واقعاً نعيشه روتيناً دائماً في حياتنا اليومية، فلكم حَلم وتمنى وتخيل من قبل مدى سعادته عندما يلتقي بإمرأة يقرئها وتقرأه ويجلسان معا على مائدة كتبٍ يطل من على شرفتها قمرٌ يداعبهما بلطافةٍ وهما يقرءان.. فوجد تلك الأمنية والحلم والخيال فيها، اغلق باب غرفته فور دخوله، وأخرج المفتاح وضعه على الطاولة بجانب سريره، ثم اتجه إلى النافذة الزجاجية التي تطل على الطريق ليسدل الستار عليها من أنوار الطريقِ وضوء القمر في منتصف الليل، وعندما قبض الستار ليرخيه، تأمل السماء قليلا، فتفاجأ بشيءٍ ما أذاب شعوره، رأى نجماً رائعاً بجانب القمر يزدهر منيراً وكأنه يرغب أن يتحدى القمر في إنارته، فراقبه مليا ثم هرع إلى خزانته أخرج كاميرته والتقط له عدة صورٍ، ثم وقف يتأمله مرةً أخرى، تاه قليلا بأفكاره يجوب في خياله الغريق ثم قال مخاطبا إياها "لميس، من الآن سأطلق عليك أيتها النجمة الزهراء "لميس" لأنكِ تشبهينها" نعم هي تشبهها، لكنه لا يدري ما السوء الذي تعانيه تلك النجمة البشرية الآن، صمت قليلا يتأملها بتدبر وكأنها كانت تحاوره، ابتسم أخيراً ثم اتجه إلى فراشه تاركا النافذة مفتوحة، رغم ضجيج السيارات ومصابيح الطريق ونور القمر الذي كان يزعجه إلا أنه تناسى كل ذالك عندما تخيل أن تلك النجمة تشبه محبوبته، ارتمى في سريره استسلاما للنوم واستعدادا ليوم الغد، وعندما تمدد في سريره التفت نحو الحائط فوقعت عينيه في الساعة بلا قصد.. فزع فور رؤيتها "يا الهي، انها الحادية عشر وثمانية عشرة دقيقة.. لا لا.. لا أصدق" مد يده نحو الطاولة وتناول الهاتف ليتأكد.. فاصطدم بالمفاجأة الكبرى، وجد أكثر من عشر مكالمات فائتة من لميس، آخرها كانت الساعة الحادية عشرة ودقيقة

زادت فرحته.. واتسعت إبتسامته، ثم خاطب نفسه قبل أن يعاود الإتصال بها قائلا "ماذا تريد مني هذه الفتاة في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل.؟ " سأل

نفسه هذا السؤال وأمال رأسه نحو تلك النافذة، رفع عينيه تأمل القمر و "لميس" تلك النجمة، كأنه يستنجد بها أو يسائلها ما الذي دعاها لمهاتفته في هذا الوقت.؟ ما كانت من عادتها أن تتصل به في هاتفه النقال، جفل في شروده قليلا وهو يتحايلٍ على عقله بإجاباتٍ ملائمةٍ مثل "ربما أرادت أن تطمئن علي" أو "ربما أرادت أن ترى تقييمي لكتابها" وفجأة استعاد وعيه وتذكر جملةً قالتها له يوماً عندما سألته في مكالمةٍ بينهما على هاتف المنزل إن كان له رقمٌ خاص، تذكّرَ عندما أعطاهُ إياها ثم سألها مستفسراً "ماذا تفعلين به؟ أما قلتِ أنكِ لن تستطيعي محادثتي بغير هاتف المنزل.؟" استحضر جوابها لما قالت له "أحتاجه في وقت الحاجة" أعاد الإتصال بها مباشرةً.. لكن خاب أمله وازدادت كآبته عندما لم ترد عليه بعد ان حاول عدة محاولات في رقمها وفي هاتفها المنزلي الخاص بها، شحبت ملامحه وتغيرت آراءه، صار يعاقب نفسه ويؤنبها بالأسئلة الشاقة، "هل أنها تخلت عني عندما احتاجتني ولم تجدني" "ماذا إذاً لو لم أجعل تلفوني صامتاً.؟ كنت سأستمتع بمحادثتي معها ومشاهدة تلك الكواكب"

الأشياء الجميلة أحيانا تاتي متراكمة، لكننا نجهل رؤيتها، ونختصر سعادتنا على ما نحن فيه، وعندما نكتشف أنه قد مر في غفلتنا شيءٌ أجمل مما كنا غارقين فيه، ينتابنا القلق، نغض النظر عن هذا ونظل نتأسف على ذالك، وفي النهاية نفتقدهم جميعاً ونعود مجدداً إلى كآبتنا كأننا لم ننتشي أبداً

شعر بالضيق وأقدام الحمى تسري على حماقته، كم لعن نفسه ولعن هاتفه ولعن تلك الساعة التي بخلت عليه بمكالمة من عشر محاولات، نهض من مكانه يائساً.. حزيناً.. مكتئباً وغاضباً، أغلق تلك النافذة اللعينة التي جلبت له الأسواء، لم يسمح لعينيه أن تلمح تلك النجمة التي أغرته بحسنها وصرفته عن حسن حسنائه، أغلق أضواء حجرته، وارتمى مرةً أخرى في فراشه متوهما أن الظلام يجلب النوم وأن النوم ينسي الألم، لكن ليس بعد، لقد نسي غربته، نسي وحدته، نسي تلك الأسواء التي كانت تختبئ خلف الزوايا في إنتظار أن يعم

الظلام وتشن هجوماً عنيفا عليه، نسي قصة الليل الذي اسودّ من دموعِ اليتامى وشجو العاشقين

أتدرون.. الظلمة ليست بالمكان الآمن الذي نلجأ إليه عندما تلتهمنا الآلام، الظلمة ليست ترياقا للألم، الظلمة الإسم الثاني للعذاب

ما إن إتكأ على وسادته حتى تراكمت عليه مواكب أسئلةٍ وأناتٍ لا مغيث لها، يتقلب في فراشه ويقلب ذاكرته ليحصل على جوابٍ بسيط يزيل عنه هذه المأساة، فلا يجلب له الليل سوى طوفان الأنين، بغتةً رن هاتفه برسالةٍ تضاعفت على صوتها نبضاته وهدئت أنفاسه بشيءٍ من الإطمئنان، مد يده في رجاءٍ علها تكون رسالة سعد تهنّئه بزوال تعاسته، وما إن ألقى نظرةً على هاتفه حتى وجدها هي، رؤية إسمها فقط كفيلة بأن تبث الأفراح في قلبه، انتعش فؤاده بالسرور وامتلئت دواخله بالسعادة، نهض من مكانه منفعلا وهو يصرخ "حمداً لك يا الله" سار ناحية الباب وأشعل أنوار الغرفة، لا أدري... رغم أنه كان بإمكانه قراءة تلك الرسالة في الظلمة إلا أنه فضل إنارة الأضواء، ربما أنه أراد أن يشارك الضوء بهجته كما شارك الظلام حسرته

فتح هاتفه وتأمل تلك الرسالة، كانت رسالة SMS قصيرة ومحتواها"مساء الخير مالك، حاولت الاتصال بك لأخبرك عن ما حدث بيني وبين والدي اليوم، لكنك لم تجب، ولا يجب أن تأخذ انطباعا سلبيا عني لأنني لم ارد على مكالمتك، بل يجب أن تعذرني لأني لم تعد لدي نفسٌ في الحديث بعدما تجاهلت مكالماتي، وأبي هو الذي أمرني بأن أتصل بك وأقص لك كل شيء، وقد أصر على مجيئك، أخبرته بأن الآن ليس الوقت المناسب.. لكنه أصر"

كان هذا كل ما في تلك الرسالة

تعجرف عقله من التفكير وتشوهت ملامحه، تلاشت تلك البشاشة التي كانت تحيط وجهه من الأنس عندما رأى اسمها وتحته النص، فر عقله من داخله وتراكمت عليه فيضانات أسئلةٍ لا جواب لها، بدأ يناجي نفسه وكأنه يخشى ان يسمعه احد بيد أن لا أحد بقربه، بدأ يتسائل "يا ترى ما الذي تريد ان تقوله

لي؟ وما الذي أجبرها عليه والدها بأن آتي لأجله؟ وما غرابة والدها هذا؟ اما كنا معاً قبل أربعة ساعات؟ لماذا لم يخبرني بشيء، لابد من ان هناك حدث"
لم يتنج له تفكيره شيء، لكن ثمة شيئاً ما أزعجه، شيء ما شغل باله، لطالما انتابه شعور بالقلق فلابد من أن هناك امر سيءٌ يحدث، لكنه أراد أن يتخطى جميع تلك التكهنات.. ويؤجلها للصباح.. "الوقت تأخر" هذا ما تردد في باله، أطفأ أضواء حجرته مرةً أخرى واستلقى على سريره يستنجد النوم هربا من هذا الواقع المرير، واقع يطيل فيه الحزن أضعاف ما تمكثه السعادة، النوم جميل يأخذ الالم أحيانا ويريحنا من أناته، لكن في كثير من الأحيان يهلكنا بالأحلام البشعة والكوابيس المدمرة التي لا مغيث لها
ظل يترجى النوم وينادي عليه قرابة ساعة، لكن لم تفارقه الافكار البئيسة أبداً، ابتعد النوم ورفض أن يأتيه، لأن النوم ليس بوسعه ان يحتمل تلك الموازين من الأثقال التي يخفيها بداخله
هرب النوم منه.. هجمت عليه عصابة الليل مرة أخرى اعتدل على ظهره وأعطى عينيه للسقف يتأمله ويحاكي الظلمة شاردا بعقله في اللا ماكان
فجأة نهض من فراشه بهمة ناويا الذهاب الى بيتِ عائلة لميس، فاستفاق على عقله يخاطبه "لا يمكنك فعل هذا.. عليك ان تنظر الى الساعة وترى ما الوقت الآن" فأجاب صوت قلبه بإستهزاء "لا تهتم بالوقت، فهذه ليست مسألة وقت، وانما مسألة سعد وقلق، والحزن والفرح لا علاقة لهما بالوقت"
قام من مكانه.. اشعل الأضواء.. اتجه نحو خزانة ثيابه.. ارتدى ملابسه.. تناول معطفه الشتائي الطويل وقبعته السوداء المستديرة، توقف عند الباب.. تأمل حجرته قليلا.. اطفأ الاضواء واغلق الباب خلفه متجها نحو مكتبته، اخذ منها الجيتار ثم اوصدها مثلما كانت، وعندما استدار نحو الباب خارجا رفع عينيه بغير قصد نحو السماء، فتسارعت نبضاته حين لمح القمر وبقربه تلك النجمة العذراء.. همس لنفسه مبتسما "لميس" عاد خطوتين إلى الخلف.. جلس على المقعد الطويل الذي كان بنصف البيت امام جنينته الصغيره، والذي يلجأ إليه

عندما يختنق من كل شيء، جلس عليه.. اخرج جيتاره وهو ما زال يتأمل ذالك النجم.. بدأ بعزف مقطوعة موسيقية من تأليفه كان قد اسماها "معجزة" بدأ يعزف وكأنه يعبر بذالك عن اعجاز تلك النجمة بجمالها، التي تبدوا عليه وكأنها نسخةٌ من تلك ال"لميس" خاصته

عجباً.. الموسيقي أيضاً لها لغزاً يميّزُها عن الكثير من الأشياء، الموسيقي بوسعها أن تشاركنا في كل شيء، تطربنا في أفراحنا.. وتواسينا في أحزاننا، هي كالحروف.. نخرج بها عبء ما قد لا نستطيع حمله في دواخلنا

توقف عن العزف ووضع الجيتار في حقيبته عندما رأى بعض الغيوم قد غطت تلك النجمة البراقة، لا أدري.. لكن ربما الغيوم تغير على النجوم من البشر أيضاً.. وليس من القمر فقط، تمشى خارجا وهو يتذكر لحظاته مع لميس.. احمرار وجهها.. بسمتها الخجولة.. نظراتها التي توزعها بعيداً عنه عندما يلقي لها ببعض العبارات العاطفية، اتسعت ابتسامته.. أغلق الباب.. ركب دراجته وهو ما زال يتذكر ذالك ويتخيل كيف سيكون اللقاء القادم.؟ أو كيف سيجدها الآن عندما يقابلها.؟

أدار مقود دارجته ذاهبا فوجد "عم صالح" صاحب "الدكان" الذي يطل على بيته.. صديقه وخليله المقرب إليه في هذه المنطقة، سأله في حيرة وهو يقف أمام "الدكان"

_ما الذي أصابك يا مالك.؟ الى أين تتجه في هذا الوقت المتأخر من الليل؟

في البداية لم يُرد "مالك" إخباره، أراد أن يقول له شيئا آخر يخدعه به.. لكنه ما استطاع، خانه اللسان ونطق الحقيقة دونما يدري، فهذا الشخص هو الوحيد الذي لا يستطيع "مالك" أن يكذب عليه أو يحتاله في شيء

إقترح عليه العم "صالح" _بعدما أخبره_ أن يؤجل مشواره إلى الغد، فالساعة قد قاربت الثالثة فجرا وربما لن يجد أحدا مستيقظاً.. لكنه أصر أن يذهب، وبعد إلحاحٍ ومكابدةٍ وافق "مالك" على العم "صالح" بأن يرافقه

بعد ربع ساعة وصلوا إلى المنزل.. أوقف "مالك" دراجته بالناحية اليمنى للباب الرئيسي.. ضغط على زر الجرس مرتين.. فالثالثة.. فالرابعة.. لم يفتح أحد، نظر مالك إلى العم "صالح" بخيبةٍ متسائلا.. فبادله هو الآخر بنظرة عتابٍ رافعاً كتفيه تعبيرا عن الضيق والخيبة، أراد "مالك" قول كلمة للعم "صالح" لكن وقبل أن يتحدث.. فُتح الباب، وكان "عمران" يقف بجانب الباب.. رمقهم بإبتسامته البيضاء وقال

_أردنا أن نتحداها ونرى ما مدى صدقها، لكنها أخبرتنا بأنك ستأتي، مرحباً بكم تفضلو إلى الداخل

تقدمو الى الداخل، قادهم "عمران" والد "لميس" الى "صالون" الضيافة، جلسوا قليلا وهم يتبادلون أطراف الحديث بعدما تعارفوا على بعضهم البعض، وانضمت إليهم "سلمى" هي الأخرى وسرعان ما شرع "عمران" في الحديث عن موضوع "لميس" عندما رأى علامات الإستياء واليأس تتكاثر في وجه "مالك" أخبرَه عن كل شيء، عن كل ما يسعده وما يقلقه تجاه فتاته الوحيدة، وأخبره بأنه شعر بالسوء والغضب عندما رآها برفقته وكاد يبطش به.. لكنه تمالك أعصابه، لذالك عندما عاد إلى البيت عاد ثائراً فوبخ إبنته وأساء إلى زوجته دون أن يعرف ما السبب، لكنه اعتذر لهما عندما هدئت نفسه وأخبرته "سلمى" بما لم يعرفه عنهما، لكن أصرت لميس على أنها لن تتقبل عذره إلا بعد أن يرضى بخطوبتهما، وهو لا مانع لديه.. فكل ما يبتغيه هو إسعاد إبنته، ثم ركز النظر في عيني "مالك" وسأله مبتسما

_وأنت.. ما رأيك في هذا الشرط الجازم

_لنقرأ الفاتحة

أجابه فوراً رافعاً يديه بتلقائية جعلت الجميع ينهار في نوبة ضحك هيستيري بالغ، حتى لميس التي كانت تختبئ خلف الباب وتستمع لحديثهم.. كاد الضحك يسقطها لولا أن أسرع والدها.. أسندها إليه ودخل بها الى الصالون وهو يردد مازحاً

_لقد قبضنا على أحد اللصوص يضحك على نكاتنا متخفيا
واستمرت ضحكتهم مرةً أخرى حتى قاطعهم مالك مرة أخرى
_ألن نقرأ الفاتحة.؟
فأجابه "عمران"
_لقد تأخر الوقت يا بُني، وأنت لم تجلب ولي أمرك بعد.. لنجعلها غداً
فقاطعه مسرعا وكأنه يخشى أن يأخذها منه أحدهم غداً
_لا.. لا يحق ذالك.. الوقت الآن مناسبٌ جداً، وهذا هو وليّ أمري _يشير إلى عم صالح_ لنقرأ الفاتحة الآن ونصلي الفجر معاً
وافق الجميع على رأي مالك فقرأوا الفاتحة في ذالك الوقت وتمت الخطوبة في نفس تلك الليلة.. وحددوا ميعاد الزواج بأن يكون في مثل هذا التاريخ في السنة القادمة، وعندما فلق الفجر خرجت "سلمى ولميس" لبعض الوقت ثم عادا وهما يحملان الشاي والقهوة واللبن و "الزلابية" كعادة أهل تلك البلدة، يستقبلون الصباح بتلك الطقوس التقليدية الرائعة، هناك لن تشرق الشمس إلا بعد أن ترى "ترامس" الشاي واللبن وتشتم رائحة "الزلابية" والقهوة الصباحية. وهم في جلستهم تلك.. قبض أبا لميس بإحدى "الترامس" وأماله نحو إحدى الفناجين، ثم نظر بإبتسامةٍ إلى العم "صالح" والذي بدوره بادله تلك النظرة بإبتسامتها، لقد اندمج في عفويته، بدا يتفهمه ويحدثه فقط بنظراته.. كأنه يعرفه منذ عقود، هكذا تحيا الأرواح المتجانسة عندما تتلاقى، فقال له العم صالح مجيبا لسؤال نظرته
_لبن
ثم نظر عمران إلى "مالك".. وقال مبتسما
_وأنت أيها العريس.. ماذا تفضل أن تشرب أولا
فألقى" مالك" نظرةً إلى"لميس" وكأنه يستشيرها أو يريد تأكيد وجودها.. حتى وهي برفقته يخشى فقدانها، ثم قال له بإرتباكٍ
_قهوة.. أفضل القهوة

ما كانت القهوة مشروبه المفضل، ولكن لأنها تُشبه عيناها..فاختارها، سكب لكلٍ منهما ما يحبه، وغرق كلٌ منهما بتفكيره؛ مشروباتنا المفضلة دائماً هي التي تجمل هدوئنا.. تعدل نفسيتنا.. تناجي أحاسيسنا.. تنمي أفكارنا، لهذا نحن نعشقها بإدمان. جميعهم تاهوا في أفكارٍ عميقة حتى أفاقوا على صوت عمران بعد أن ارتشف جرعةً من قهوته وهو يحدث "مالك" قائلا

_إني أرى أن الذي في تلك الحقيبة جيتار أليس كذالك؟ فما رأيك أن تكرمنا بمقطوعةٍ موسيقية أو أغنيةٍ.. تحلو بها جلستنا

_لقد سرى مفعول القهوة.. تهانينا

قالها العم صالح فوراً وهو يصفق بطريقةٍ كوميدية عندما رأى ملاحظات قرينه القوية، جعل الجميع يضحكون، فقال "مالك" مجيباً لسؤال "عمران"

_نعم إنه جيتار.. ولا بأس سأعزف لكم وتغنون معي إن لم يكن هناك مانع

_هيا.. لنبدأ

قالها وللد "لميس" مسروراً متحمساً وعلى وجهه توهج السعادة والحبور وكأن له قصة أخرى مع الموسيقي أو ربما لأنه وريثُ عائلةٍ ثقافية، أو لأن جميع الذين يدمنون القراءة يعشقون الموسيقي .. فهو أيضاً كذالك، فكلها متفرعة من أصلٍ واحد.. القراءة.. الموسيقي.. الفن التشكيلي.. جميعها توحي لشيءٍ واحد.. وهي الثقافة الأدبية والفنية، فقد تجد الكاتب يكتب روايةً كاملةً ليعبر بها عن لوحةٍ واحدةٍ لامست دواخله، وتجد الرسام يشكل ألبوماً كاملا من لوحاتٍ منوعةٍ.. تعبيراً عن قصةٍ هزت كيانه، وقد تجد أيضاً موسيقاراً يُنتج ألبوماً كاملا من الموسيقي.. لينتقل بالكاتب والرسام والقارئ إلى عالمٍ خرافي بمزاج ممتع هادئ وجميل، لذالك جميعهم واحد

أخرج"مالك"الجيتار من حقيبته برفقٍ وأخذ يعزف مقطوعةٍ موسيقية للأغنيه التي يريد غناءها، وما ان عزف لمدة لا تريد عن عشرون ثانية حتى رآى والد "لميس" يكرر وراء معزوفته هذه الألحان

_لالالالا... لالا.. لالالالا

انتبه الجميع لهذا اللحن العميق الفريد الذي لا يسمعه أحد إلا وامتزج معه، وترنيمة ذالك الجيتار المدهشة التي بثت بداخلهم روح الغناء، بدأ جميعهم يرددون مع "عمران" ذالك اللحن بتصفيقة خفيفة هادئة مع إبتسامةٍ ساحرةٍ، يميلون يمينا ويساراً مع أنغام الجيتار ولحن الأغنية، امتزجوا جميعا بسرعةٍ فائقة مع لحن أغنية حوَت مآثرهم جميعاً؛ الأغاني أيضا أحيانا تخلق بداخلنا روحاً مبهجةً نشعر وكأننا ننتمي إليها، فإنك بمجرد سماع أغنيتك المفضلة تندمج معها اندماجا كليا بكل حواسك.. بكل حماسك، تنفعلُ معها، تردد كلماتها، ترقص على ألحانها، تشعر وكأنها تحتضنك أو كأنك تقبّلها، تواسيك، تبتلع براكين أحزانك، تملؤك سعادةً لا يستطيع البشر إعطاءها لك

"لأنك عندي كل الخير.. وجيهك فرحة الدنيا.. ودواخلك.. زي شعاع النور"

هكذا ابتدأها "مالك" مركزاً عينيه في عيني "لميس" إضافةً لرفع حاجبيه وإمالة رأسه واهتزاز جسده مع تلك الأغنية يؤكد أنه يفنيها من جوف أعماقه، ليس من أجل الفن فقط أو من أجل تلك الجلسة، إنها من أجل "لميس" من أجل ذالك الحب الذي يزداد بكل ثانية ألف طنٍّ من الأثقال، يخرج كل كلمة بصدقٍ وإخلاص، هي ليست مجرد أغنية لديه.. لا.. هي صراحةً.. وعداً.. وفاءً لإكمال ذالك الجسر الذي عزم على بناءه فوق إرادة الجميع، أهله.. عشيرته.. إخوته.. والديه الذيْنِ أجبراه على أن يتزوج إبنة عمه غصباً.. إكراماً للعادات والتقاليد القبلية، وجميع أولئك المتخلفين الذين وصفوه بالخائن والمعتدي لأنه تمرد عن قوانين القبيلة.. تباً.. هكذا هي "أفريكاا" قارةٌ يزعم ساكنوها أن العمل بالثقافات جريمةٌ يعاقب عليها زعيم القبيلة، لابد أن تعمل بالتقاليد.. وستُعتبر سافلا إن اعترضت على تلك القوانين، لكن "مالك" كان رجلا راشداً، لقد نمّى عقله بدخوله الجامعة ومطالعته الكثير من الكتب واطلاعه على العديد من الثقافات، صار لا يؤمن بتلك السذاجة القبلية والأشياء التي لا داعي لتمجيدها، يؤمن بإقتران الحب أكثر من الزواج التقليدي.. وهذا هو الحق، أن تكن عاقلا وتبتعد عن قداسة الأوهام

"عرفتك وكنت زي شفتك قبل ألقاك.. وزي إنك بتنبعي من فرح جواي.. وتمسحي عن رؤايا الضيم.. وتضحكي للزمان الجاي.. وتتفجر مسامك ضي.. مع الصبح الغشانا شوي.. كأني معاكي كائن حي.. كأنو صفاك... كأنو الحل"

أكملها هكذا مقطعين، لكن هذه المرة مع المجموعة، رددوا معاً على طريقة "نادر خضر" ذالك الأسطورة الذي شهد له الفن بأن "لا مثيل له" لم يستطع مالك إكمالها، قد توقف عند هذين المقطعين من الأغنية، وقال مازحاً مقلداً رمز الأغنية السودانية "السر قدور" في برنامجه الشهير "أغاني وأغاني"

_هايل هايل هايل.. أبدعتم يا شباب، نلتقي في حلقةٍ قادمة بإذن الله

ضحك الجميع حينها، وتفرق الجميع بعد رفضه لإقتراحهم أن يغني قليلا متحججا أنه لا يستطيع، وأن لديه يوم دراسي شاقٌ في انتظاره ولقاءاتٌ أخرى، وأن غداً هو آخر امتحانٍ..و.. بمادة النحو، آخر امتحان وأصعب مادة لابد أن يحضر مبكرا ليحظى بالمذاكرات؛ هكذا هم شباب وطني، ترى أحدهم يتآنس مع أصدقائه، يغني ويلعب ويسهر طوال الليل، وفي صباح الغد يحضر الإمتحان مرهَقا ونعسانا لا يدري كيف يمسك القلم أو من أين يبدأ الكتابة.. لكن في آخر السنة تجده... "ناجحاً"... تباً.. لا أدري كيفية هذا النجاح، لكن هذا هو سبب انهيار قيمة التعليم لدينا

وصل مالك إلى البيت برفقته العم صالح في السابعة والربع، ركن دراجته بالخارج، ليس بحاجة الى ادخالها المنزل، فهو بعد قليلٍ وفي تمام التاسعة الا الربع سيخرج متجها نحو الجامعة...

الفصل الثاني
" العودة والرحيل"

"خسرت في مقامرة ظننت انها مضمونة، لكني نسيت ان من كان يجلس امامي في الطاولة تلك المرة هو القدر."

أشرف العشماوي.

"أم درمان/بعد مرور عامين"

"مذكرة مالك"

"ها انا قد عدتُ.. عدت الى المدينة نفسها.. لم يتغير شيء، ها هي الحديقة نفسها ما زالت نضيرة.. الشوارع الشاسعة.. الطرقات المختصرة.. الأزقة الضيقة، البيوت الجميلة.. الأشخاص الطيبون.. كأني لم أغب أبداً، كل شيءٍ في مكانه.. "عداكِ".. وجدت الجميع.. لكن بملامحٍ أخرى، ملامحٌ تخبرك أنهم ليسوا أولئك الأشخاص القدامى، أصحاب الإبتسامات الدائمة والضحكات المستمرة، لقد خيم الحزن على كل شيء في هذه المدينة، حتى الجدران أصبحت ليست كما هي.. لقد اسودت من ألم الفراق.. الطرق.. البنايات المتواضعة.. الأطفال الأبرياء.. شجر النيم.. وشتول الأزهار التي زرعتيها أمام باب تلك المدرسة المقابلة لمنزلكم وواظبتِ على سُقيها، سألتك يوما "ما سبب حبك للأزهار، ولماذا شتلتيها هناك تحديداً" أجبتيني قائلةً "إنها تزيل الإكتئاب والقلق، تهدي الأعصاب وتزهق التوتر، تزيد القوة الذهنية وتملئ الإنسان بالأمل وهؤلاء الصغار بحاجةٍ إلى طاقة إيجابيةٍ أكثر.." وقلتِ لي عنها حديثاً طويلا لا تسعه هذه الوُرَيقات، جميعها أمست دُجنّةً معتمّةً من فرط الأسى، حتى الصغار شابوا والليل صار أشد اسوداداً مما كان، لم يتبدل شيء لكن تغير كل شيء، الكتب التي كنت أقرأها معكِ.. تمزق ورقها وصارت مهترئةً أصابتها الشيخوخة من ألم الفقدان والوحدة، أما أنا.. فلم أعد أنا.. تأكدت بأني قد رحلت معك.. وما وجودي هنا إلا شبحاً أو صورةً متحركة، أهرب من نفسي عندما أتأملني في المرآة، صرت كمدمن "الهيروين" الذي لم يحصل على جرعته في ميعاده المعتاد، صرت كالأبله فقدت صوابي حتى ظن بعض أصدقائي أني جُننت، ذهبوا بي لأمهر الأطباء النفسيين لكن لم يستنتجو شيئاً، لجئوا بي إلى رجال الدين والشيوخ، طافوا بي معظم المدن والقريمن زريبة "الشيخ البرعي" إلى "مبروكة" وحتى "الدمازين"

فعلوا فيّ كل شيء، سقوني "المحاية" كتموا أنفاسي بـ"البخور" جلدوني بسوْط "العنج" كما لم يُجلد سارقاً أو زاني.. لزعمهم أن شيطاناً ما يسكن في داخلي وإيمانهم بأن هذا "السوط" المبارك يخرج الشياطين؛ سحقاً لهم ولمعتقداتهم، جميهم سحرةٌ ومنافقين لم يفلحوا في اخراج شيء سوى الكثير من النقود من أصدقائي المساكين الذين نسوا بأن تعويذة الحب أشد لعنةً من شعوذة الشيوخ لقد كنتِ أنتِ عالمي.. قلبي وعقلي، لكني فقدت يقيني بعد رحيلكِ، أصبح العالم في نظري كرمادٍ نُثر في إعصار ريحٍ قاتمة، فقدت العالم حينما افتقدتك، وكأنه كان طفلا أنجبتهِ أنتِ، يضحك حين تضحكين ويحزن حين تبكين ويختفي حين ترحلين، ما كنت أظن أن الأقدار كانت تخبئ لي هكذا فعلا، كنت مصدوما في مبدإ الأمر.. ما صدقت والدك عندما أخبرني بخبر وفاتك، ظننته يمزح لأني لم أرى دمعة في خده أو أثراً لحزنٍ في ملامحه، كان صلبا جامدا قويا وهو يكلمني لم أكن لأصدقه لولا أنه اخذني بسيارته وفاجأني عندما وقف أمام مقابر "أحمد شَرفِي" أخذني من يدي بعد نزولنا من السيارة، دخل بي المقبرة.. ذهب إلى أقصى اليمين، وقف أمام قبر متوسطٍ وقال بنبرةٍ شبيهةٍ بالبكاء "هنا ترقد لميس" قرأت الإسم على اللوحة الصغيرة فكان (الشهيدة "مريم عمران") تملكتني الحيرة وأصابني الشلل النصفي وقعت على الأرض وضعت رأسي على قبركِ وصرت أبكي وأبكي.. أهلوسُ بكلمات لا أدري ما هي، شعرت بنبضاتي تتوقف، أغمَى علي عندما قرأت تاريخ الوفاة، فقد كان قبل مجيئي بثمانية عشر يوما فقط.. يا رباه، ما هذا الإبتلاء أيها الموت.. ماذا لو أمهلتها بضعة أيام حتى أراها الرؤية الأخيرة ثم تأخذها، أو ماذا ستخسر يا قدري إن أتيت بي قبل ميعادي بعشرون يوماً ما الذي سيصيبك؟ آآه.. لطفك يا رب.. لم أعد أحتمل هذا العناء، كنت أردد كثيراً بأني أؤمن بالقدر خيره وشره، لكني بعد رحيلك أيقنت أن إيماني كان ناقصاً، لا أدري ما الذي حدث خلال ذالك، لكن أخبرني والدك بعد إفاقتي من الصدمة بأني كنتُ أُهلوس للأطباء أتوسل لهم وأترجاهم أن يقتلوني لأدفَنَ بجانبك، طلبت من والدك أن يأخذني مرة أخرى إلى قبرك، وكان ذالك في يوم

الجمعة، في البداية رفض لأنه ظن بأني سيُغمى علي أو سأجَن هذه المرة، لكني أخبرته بأني أفقت على وعيي وقبلت بالواقع، وما أصعب أن تتأقلم مع الواقع بعد فقدانك أعز ما تملك، تذكرت حينها قول "أحلام مستغانمي" عندما قرأت لها يوماً كتابا كنتِ قد أهديتِني إياهُ أنتِ لأني ما كنت أقرأ للكتاب الشرقيين، فلقد كنتُ مفتونا بأدباء الغرب حتى أنقذتني أنتِ، تذكرتُ جملةً في ذالك الكتاب الذي ما زلتُ أذكر إسمه، كيف يمكن لي أن أنساه وقلبي ما زال ينبض بكِ؟! بل سيظل قلبي قبلةً للذكريات بعد رحيلكِ

كانت الجملة في رواية "ذاكرة الجسد" في الصفحة "١٣٤" بالتحديد كانت تقول فيها "إن أصعب شيء على الإطلاق، هو مواجهة الذاكرة بواقعٍ مناقضٍ لها"

تيقنت حينها أن الروايات والقصص وكتب الفانتازيا ليست خيالا فقط أو خرافات وعوالم يتوهمها الكتاب فيسطرونها ويستمتعون بالمقابل المادي.. لا.. بل هي تناجي الحقيقة وتصف الواقع قبل حدوثه أحياناً

أخذني والدكِ مرةً أخرى بسيارته إلى المقبرة وقفنا عند قبرك.. لكن هذه المرة لم أُصعق ولم أنفعل، علمت بأن قلبي قد قسى.. لأني رضيت بالواقع، والواقع لن يتقبله إلا الذي غُرست بين ضلوعه أنيابه، تيقنت أنكِ متِّ حقاً، تأملته جيداً.. جلست بجانبه أمسح تلك اللوحة أدقق النظر في إسمك وأسترجع ذاكرتي معكِ عندما أخبرتيني عن سبب تسميتك به، انهمرت دموعي كالسيل جاريةً وما ظننت أنها ستتوقف أبداً بعدما لمحت عيني تاريخ وفاتك والسبب، انثنى والدكِ بالجلوس قربي، كان يشعر بي كما يشعر بكِ، ربت على كتفي وردد قائلا

_مهلا يا بني، عليك أن تكف عن البكاء قليلا، أعلم أنك قد أحببتها وما زلت تحبها، وربما لن تتخلى عن حبها للأبد، لكن عليك أن تعلم أيضاً أن البكاء لن يعيد من احتضنه الثرى أبداً، استبدل دموعك هذه بالدعوات لها _ثم أخذ بيدي وقال_ لنذهب

عشت كابوسا عظيما في أيامي الأولى بعد رحيلكِ، ما تخيلت يوما أن العالم سيكون مهترئاً ومشوشاً لهذه الدرجة، أن لا تجد حتى أحداً يشرق في وجهك بإبتسامةٌ تعيد فيك روح الحياة، صرت أرى جميع الإبتسامات دموعاً متخفيةً وأسمع الضحكات أصوات بكاءٍ لراحلٍ لم يرحل

عدنا الى البيت برفقة والدك، ولجنا الى الداخل، كانت اول خطوات أطأها على منزلكم بعد رحيلك، كان جميلا خلابا كعادته، لكنه كان معتما من الحزن لأنه افتقد الكثير.. افتقد براءتك، افتقد ضحكتك، افتقد ابتسامتك، لفتقد الكثير والكثير؛ وجدنا أمكِ جالسةً برفقة فتياتٍ في مثل عمركِ في المضيَفة النسائية يجلسن في حلقةٍ مستديرةٍ في منتصفها "القرءان الكريم المجزّأ" وفي يدِ كلِ واحدةٍ منهن جزءاً منه يقرأنه هبةً لروحك الطاهرة في ذالك اليوم المبارك _وحتى الآن ما زلن يأتين ويقرأن وأشاركهم أنا تلك التلاوة_ قال لي والدك حينها مجيباً عن سؤال كان يتردد في داخلي

_هذا هو اليوم الذي توفيت فيه، وهؤلاء صديقاتها، هن اللواتي قررن أن يقرأن القرءان كاملا في كل جمعةٍ إهداءً لروحها

فرددت في نفسي قائلا: اللهم ارزقني الصحبة الصالحة

ذهب والدك وجلب لنا اربعة اجزاء وانضممنا إليهن لكنني لم أقرأ، تركت لوالدك جميع تلك الأجزاء، جلبت مصحفاً آخر واكتفيت بقراءة سورة "الزمر" تلك السورة المحببة إلى قلبك والتي تكررين قراءتها بشكلٍ مستمرٍ، وتفتتحين بها كل يومٍ وردك اليومي من القرءان، تجبريني على قراءتها بصوتٍ عالٍ كلما رأيتيني أمسك مصحفاً لأرددها لكِ في سكونٍ بحنجرةٍ عذبةٍ مقلداً الشيخ "عبدالله المطرود" ذالك الذي تعلقت به حتى صار صوتي مثله في كل شيء، قرأتها لعدة مراتٍ حتى فرغنا علّها تكون سببا في شفاعتك لحبكِ إياها، أو كما قالت "أثير النشمي" "إن الله إذا حببك في سورةٍ فاعلم أن لك فيها دواء" ربما ستكون بلسماً تحجز عنك العذاب وفتنة القبرِ أو نوراً يضيء عتمة قبركِ

لما انتهينا من الختمة كانت الشمس قد قاربت المغيب، صلينا المغرب معاً.. وبعدما تناولنا العشاء ناداني والدك بعدما أخذ "سيرمس" قهوةٍ واتجهنا إلى مكتبتكِ، لا أدري لماذا ناداني، ربما لننفرد عن أولئك النسوة، أو ربما أرادني أن أشاركه هدوءه فهو لم يتحدث معي مطلقا، فقط جلس قبالتي، أخذ كتاباً وبدأ بقراءته من المنتصف، لا أدري أهو أيضا مثلي يبدأ بالكتاب من المنتصف ثم يعيد قراءته من البداية ان أعجبه، أم أنه كان يقرأه منذ يومين أو ثلاثة أيامٍ أو بالأحرى قبل مجيئي لأنه كان معي دائما لما مرضت لم أترك له وقتا ليقرأ فيه، أو أنه يريد أن يذهب الملل وشعور الحزن هذا، أخذت أنا أيضاً كتاباً فتحته من المنتصف وأول ما التقطت عيني هي جملة في تلك الصفحة التي لم أعد أتذكر رقمها، كانت تقول "حين فكرت بأن حياتي الصعبة بالتأكيد جراء عمل سيء قمت به في حياة سابقةٍ، شعرت بحمل يسقط من كتفيّ.. أصبحت أكثر رضا وتقبلا لمصيري.. وأنا واثق بأن صبري في هذه الحياة سيجازى بنعيم في حياة مقبلة" حينها شعرت بإحساس غريب، شعور أكاد أجزم أنه أغرب ما شعرت به، تساءلت في نفسي هل يمكن ذالك؟! أن تفتقد أحدهم بذنبٍ كنت أنت من اقترفته، غرقت في تساؤلات كثيرةٍ لم تسعفني فيها الأجوبة إلا أنني ناجيت نفسي سراً قائلا "متى أرحل عن هذا العالم البائس لأراكِ، إشتقت إليكِ" أفقتُ من شرودي قلبتُ الكتاب في يأسٍ لأرى ما إسم كاتبه فكل كتاب يعجبني أنظر لإسم مؤلفه أولا _حتى أصطاد كل كتابٍ يحمل إسمه_ ثم اتجه إلى العنوان، لمحته الإسم فوجدته "د.خولة حمدي" عجباً.. لأول مرةٍ ارى هذا الإسم في ظهر كتاب لكني وعدتُّ نفسي أن أقرأ أي كتاب يحمل هذا الإسم، ثم التفت بنظري ناحية العنوان العريض فكان "أرني أنظر إليك" أخذت تنهيدةً عميقة وتسمرت في مكاني، شعرت وكأنها حتى الحروف قد علمت بأني تقت لرؤياكِ أو أنها هي من اشتاقتك أكثر، كأنه قد كتب ذالك الكتاب ليواسي شعوري، تنهدت لتكأت بظهري على المقعد، اعتدلت مرة أخرى، اخذت رشفة من فنجان قهوتي، أغلقت الكتاب وضعته جانبا لأني بحاجة لأكون أكثر رخاءً واتزانا حتى

أقرأه برفقٍ تام، تأملت والدك قليلا ثم قلت له دون مقدمةٍ "حدّثني" نهض من كرسيه مرتعداً حتى كاد يسقط الكتاب الذي بين يديه، تفاجأ هو واندهشت أنا من ردة فعله، كان أشبه برد فعل أحدهم عندما يكون بجانبك في مؤتمرٍ ما وتأخذه صحوة نومٍ فتربت على كتفه فيفيق مخلوعاً لكنه على ما يبدوا كان في مكان بعيد، لم يكن غارقا مع حدث أبطال الرواية، بل كان غارقاً في ذكريات بطلته التي لم تذكر في رواية، رمقني بنظرات تعجب وعتابٍ وقال "آسف" ثم أضاف بعدما تهيأ واعتدل في مقعده

_أيمكنك إعادة ما قلت.؟ ما كنت مركزاً معك

فقلت له فوراً: حدثني عنها، أخبرني كيف قتلت.؟

هنا تغيرت ملامحه، شهب وجهه وبدأت كتائب الحزن تغزو أفكاره، ملأ فنجانه قهوةً، أخذ رشفةً منه مثلكِ كان، لا يبدأ الحديث إلا بعد تناول قهوته، صمت مطولا.. كأنه يعيد ذاكرته فبادلته أنا أيضا ذالك الصمت، أعلم أنه منهكٌ تماماً وأنا أيضاً منهك.. لكنه كان أباً وأنا عاشق، نظر في عينيّ وبدأ يتحدث، قال بصوتٍ ملأه الحزن والأسف

_هيَ.. هيَ لم تُقتل.. هي اغتُيلتْ

رمقته بتفحصٍ مستغربا لم أفهم مما قاله شيئاً فقلت له متسائلا

_أُغتيلت.؟! وما الفرق بين القتل والإغتيال.؟

ركز عيناه في عيني وقال لي بثباتٍ كمدرس يلقي درساً خصوصياً لتلميذه

_الفرق بينهما هو أن القتل يعني أنك ستحظى بلحظاتٍ أخيرة تودّع فيها أحباءك.. تتأمل فيها هذا الكون.. تتلقن فيها الشهادة، لكن الإغتيال يعني أنك لن تحظى حتى بسماع آهاتك الأخيرة لخروج روحك

ثم صمت، فهمت ما يود قوله.. فرحمتُ على حاله سكت معه، يريد القول بأنه لم يتمكن من رؤيتها في لحظاتها الأخيرة، رجلٌ مثله "حكيم" يختصر ألف جواب في ردٍ واحد، لاحظ أني علمت ما يجول برأسه.. بتلك الأحزان التي يخفيها عني،(هو رجلٌ صلبٌ، لا يتحمل أن يشفق عليه أحد، يدعي

القوة حتى في أعتى لحظات ضعفه لكن هيهات.. ستكون أحمقاً إن ظننت أنك ستبدوا صلباً بالتظاهر بعدما تفتقد أحداً كان عزيزاً عليك، مهما أخفيت كسورك فإنها ستبين في ملامحك في نبرة صوتك بل حتى في حركاتك) فقال _ما كنت موجوداً أثناء الحادثة ولا بعدها، وكما تعلم أن الحكومات فاسدةٌ لا ترضى بمن يعارضها حتى ولو كان على حق، لكن أخبرتني "لمى" صديقة عمرها التي لم تفارقها حتى في الموت والتي ما زالت حتى الآن في المصحّة النفسية لأنها حتى الآن لم تستوعب ما حدث لأنها فقدت عقلها والإنسان بلا عقلٍ لا حياة له لذا فإنها ميتةٌ بالفعل، لكن يعود لها وعيها برؤية أشخاصٍ معينين تتذكرهم، قال الطبيب في تشخيص هذه الحالة (هو مرضٌ نادرٌ جداً، يظهر بنسبة إثنان في المئة في جميع أنحاء العالم، اسمه "كراميند" وهو مأخوذٌ من كلمتي "crazy" و "mind" وتعنيان "العقل والجنون" يستعيد المريض ذاكرته فقط برؤية الأشخاص الذين أحبهم أو الأشخاص الذين تركو في حياته أثراً عميقاً سواءً كان سلبياً أو إيجابياً ويصل عدد هؤلاء الأشخاص الذين يظلون بذاكرته إلى ثمانية أشخاصٍ أو عشرة بحدٍ أقصى) سألته: ألا يمكن أن تعود ذاكرتها بالكامل؟

أجابني: يمكن، لكن يحدث ذالك بعد أعوامٍ أقلها خمسة _ثم أضاف_ أعلم أن "لميس" توفيت ورحلت عن عالمنا، ولكن "لمى" أيضاً ماتت.. لكنها فقط لم تنتقل، الموت يا "مالك" لا يكمن في خروج الروح فقط.. الموت في الفقدان، فإنك حين تفتقد شخصاً كان يعني لك كل شيءٍ.. تصبح الحياة في نظرك هشةٌ ولا وجود لها وعندما لا تعني لك الحياة شيئاً.. فأنت بالطبع لست حياً.. أنت ميت، والموت في فقدان الذاكرة أيضاً.. لأنك عندما تفتقد ذاكرتك أو يصيبك الجنون تنسى كل شيءٍ ويتمادى الناس أيضاً في تجاهلك.. إلا القليل.. الذين يأملون في إعادة رشدك وهذا ما يحدث مع الأموات، فالميت ينسى كل شيءٍ وبمرور الوقت ينساه الجميع.. إلا المقربين إليه؛ الموت في مهامنا اليومية التي نتشاقى فيها من أجل حياتنا فنموت كل يومٍ ونظننا

أحياء؛ الموت في الإرهاق، الموت في التفكير، الموت في الكثير من الأشياء، .. الموت ليس خروج الروح فقط.. الموت في وجودها أيضاً، لكنه يسمى "الموت على قيد الحياة" وهو أشد أساً من موت "انتقال الروح"؛ كانت "لمى" طريحة الفراش بجانبها منضدة عليها بعض الأوراق والأقلام، مكثفة الدموع فاقدة الذاكرة عندما زرتها بعد الحادثة بيومين، أخبرني أخاها أنها كانت لا تتحدث أبدا ولا تتذكر أحداً من الذين يأتون لزيارتها فقط تستعين به هو لتسجيل الزائرين في مذكرتها، "وذالك أسلوب بليغ أن تحتفظ بمن يهتم بك"حتى أنها لا تتذكر من عائلتها سواه ووالديهِ، لكن عندما زرتها.. نهضت إلي فور رؤيتي، تشبثت بصدري بقوة وانهارت في البكاء، بكت بحرارة حتى أبكت جميع من في الغرفة، هدأتُ من روعها، ربت على كتفها، طمأنتها ببعض الكلمات حتى استقرت، عدلتُ جلستها في السرير وجلست بجانبها، اكتفت بالنظر إلى الأرض _وأستطيع أن أقسم أنها لم تنظر في عيني منذ طفولتها_ فنطقت.. نعم نطقت واحتار الجميع، قالت بصوتٍ دامعٍ وكمٍ هائلٍ من الدموع المتناثرة التي تجري كالفيضان من عينيها "أنا آسفة عمي، أعتذر لأني لم أتكمن من حمايتها لكني رأيت اللذينِ قتلاها أستطيع أن أريك إياهم أو أن آخذك حتى باب بيتهما"

هنا صمت والدكِ.. صمت مطولا، أخذ جرعةً من فنجان قهوته ليحبس تلك الدمعة التي لا يرضى له كبرياؤه بإسقاطها، وهنا راودني سؤالٌ لم أجد إجابته حتى الآن "هل يمكن للكبرياء أن يمنع أحداً من إنفاقِ دمعةٍ على رحيلِ شخصٍ يحبه.؟ هل ذالك كبرياءٌ أم كره؟"

سألته فوراً كعادتي لأزيل ذالك الشك الذي يخيط عقلي، قلت له

_عمي، هناك سؤالٌ يراودني وربما سيشوه عقلي، هل يمكنني طرحه لك؟

أجابني وهو يمرر يده على ظهر كتابٍ ما

_نعم، سل ما شئت ولا تتردد أبداً

_حسناً، إني منذ رحيل "لميس" لاحظتُ أنك لم تدمع أبداً.. لماذا؟

أعلم أن ذالك السؤال كان محرجاً أو فوضوياً أو مؤذياً نوعاً ما أو مغضباً، لكن أن نخرج ما في جُعبتنا ونعلم بالحقيقة، خيرٌ من أن نتركها تلتهب في دواخلنا، تلوث عقولنا وتشوه من نحبهم في نظرنا، الكثير من الخلافات والمعارك والحروبات نشأت بهذه الأسباب، سوء الظن، وعدم البوح بما في دواخل الآخرين، فلا تترك فرجاً للأسواء أن تتراكم بداخلك، أخرج كل شيءٍ عندما تشعر بخطورته وتسببه في ضرر من حولك

رد بحكمةٍ: أقدر هذا السؤال وأشكرك على ذالك، أعلم أنه قاسٍ.. وأنت أيضاً تعلم، لكن بعد إجابته.. سرعان ما تلتئم الجراح، لكن إن تركته بداخلك، سينموا.. وتتفشى بجانبه الكثير من الأسئلة العدوانية، ونصبح أعداءً بعدما كنا في المحبة إخوة. سؤالك مميزٌ يا مالك أنت ذو عقلٍ سليم، تسيطر على عقلك بالفعل ليس بالتفكير فقط

قاطعته: شكراً

كانت هذه المقدمة وحدها كفيلة بالجواب الإيجابي، لكنني كنت بحاجةٍ للمزيد حتى أصل إلى إجابة مقنعة، نظر إلي بإعجابٍ وابتسم قائلا

_سأخبرك لماذا لم أبكي أنا لفقدان حبيبتي وابنتي الوحيدة، أولا لأن البكاء يا بني يعذب الميت كما نعلم جميعاً، وأنا لا أريد لإبنتي العذاب.

صمت قليلا ليرتشف جرعة قهوةٍ وصمت أنا أيضا لأرتشف جرعة حيرتي، وحينها علمت مدى ذكائه وحكمته، وأيضاً حينها فقط ادركت ان حب الوالد يختلف كثيرا عن حب رجل آخر لإبنته؛ فأضاف قائلا

_ثانياً، أنا لا أبكي لأحد مات أبدا، سواءً كانت ابنتي أو غيرها، وإن كان بوسعي أن لا أحزن أيضاً.. فسأفعل، لكني لا أملك تلك الجرأة، أتدري لماذا.؟، لأنه رحل للقاء ربه، رحل إلى الدار الآخرة، ذالك المكان الذي ينتظر الجميع الرحيل إليه، فلماذا نحن نحزن لشخصٍ إختاره الله من بيننا ليرحل إليه؟ لماذا؟ أتدري لماذا نحن نحزن ونبكي لمن يرحل.؟ نحن نفعل ذالك ليس لأننا لم نرضى بقضاء الله ولا لأننا لن نراه بالإضطرابعد ذالك، لكننا نبكي لأن البكاء

هو إستجابة لمشاعرنا الداخلية التي يصيبها عندما يصلنا نبأ موت أحد ألأقارب، ونحزن لأننا ضعفاء يا "مالك" نيقن ذالك ونعلم أننا لن نرى من يرحل إلا بعد لحاقنا به، لكن لا أدري لماذا نبكي ونحزن.؟ تلك الأوقات الذي نبكي ونحزن فيها لو اكتسبناها في الدعاء له، أو قراءة القرءان لروحه.. سنكون فعلنا له شيئاً عظيماً، سيرفع الله من درجاته في الجنة ويحط عنه السيئات ونحن أيضاً سننال الثواب.. لكن.. آنذاك لا نفكر في الثواب ولا في حاله داخل القبر، بل نفكر في "كيف نستطيع العيش بدونه" أغبياء نحن البشر، أغبياء جداً.

نظر إلي بحدة وكأنه انتبه لشيءٍ ما، فقال لي

_القهوة، قهوتك أصبحت "آيس كريم"

ضحكنا معاً قليلا بعد نوبة الحزن تلك، ثم ارتشفت القهوة وقلت له

_هل دلتك "لمى" على القتلة.؟

***

حديثٌ طويل كان مع والدك في ذالك اليوم لا متسع من الوقت الآن لأكتبه لكِ فقد قاربت الشمس على المغيب، أنا الآن هنا في نفس ذالك المكان الذي تقابلنا فيه لأول مرةٍ "ماجيك لاند" أتذكرينه؟ نعم أنا هنا الآن أرتديً الأبيض جالساً في مكاني على نفس ذالك المقعد، حاملا معي حافظةٌ حرارية باللون الأبيض بها ما يكفي من القهوة حتى الغروب، أتامل الملهى في هدوءٍ، قد عمه السواد حتى صار قطعةً من الليل، ساكناً كالعتمةِ لا يصدر ضجيجاً مثلما كان.. لأنه افتقدكِ، فمن يآنسه بعدكِ؟. اليوم هو ١٤ فبراير، إحياء ذكرى ميلاد حبنا الأبيض للمرة الثانية.. وعَدت نفسي أن أحييها في كل عام.._بدونكِ_ مكانكِ فارغٌ ليس به أحد لكني وضعت فيه "بوليفونيا" كتابك المفضل، ذالك الكتاب الذي شهد ميلاد صداقتنا وصدفة لقاءنا، ذالك الكتاب الذي يدّخر في جوفه الكثير من أطلال ذكرياتنا، كل من يأتي ليستأذن بالجلوس قربي.. أقول له "هناك

شخصٌ قادم" شخص رحل، شخصٌ أعلم أنه لن يأتي لكن أحيانا ينبغي أن نتهرب من الحقيقة ونصطفي الخيال لنحيا في سلام.

سأغادر الآن.. في نفس ذالك الموعد، أتذكرين ذالك اليوم؟ عندما قلت لكِ "الوقت قد تأخر، يجب أن أعود"؟ لم يتأخر الوقت آنذاك.. بل هرب منا، تسلل الوقت آنذاك.. سرق نفسه منا.. ليتمدد الآن بعد أن صرت وحيداً أصبح الوقت بطيئاً يتأنّى حتى في المنام، أتذكرين عندما قلت لي في أواخر محادثتنا "أتمنّى أن نلتقي في وقتٍ أكثرُ سِعةً ومكاناً أقلّ ضجيجاً لنتناقش في هدوء"؟ ها هو المكان الآن أقل ضجيجاً وأكثر هدوءًا لكن بلا فائدة، لقد أصبح مليئاً بالظلام، ظلام الوحدة، ظلام الفقدان، ظلام الأسى، مظلماً حداداً على رحيلكِ غاليتي، يجب أن أعود الآن عزيزتي لقد تأخر الوقت ومنزلنا فارغٌ، لقد رحل والداكِ إلى "لندن" تلك الديار التي رفضتِ المكوث بها لما أخذكِ والداكِ آنذاك لتكملي دراستك فيها، عدتِ إلى هنا مؤمنةً أنكِ لن تقيمي إلا في المكان الذي تنتمين إليه وأنكِ تنتمي لهذا الوطن فقتلتك حكومته عندما طالبتِ حقوقكِ، تباً للوطن.. وسحقاً للحكومة، الأوطان لا تستحق الحب أبداً إن كانت تديرها حكومات جائرة، هكذا نحن البشر، يقتلنا دائما من نحبهم، فلقد قُتلتِ أنت من قِبلِ الوطن، وها أنا أُقتل بالبطئ منكِ، وستجدِ آخرين يموتون بسببي، وهكذا.. سلسلة لا نهاية لها، فجميعنا قتلى وقَتلة، لكن بطرق مختلفة

لقد رحل والداكِ إلى هناك تهرباً من الأحزان والذكريات..لكن هيهات، نسوا أن الأشواق وآلام الذكريات تلتهب عند الإبتعاد عن المكان الذي اشتعلت فيه "فإنك عندما يعتلّ عقلك بفقدان أحدهم وتهلك نفسك من فرط الذكريات.. ترغب في الإبتعاد، يُخيل لك أنك في البعد ستنسى كل ذالك.. لكن هيهات، فإنك عندما تبتعد.. تشتاق حتى لذاك المكان الذي كنت فيه.. دعك من الشخص الذي كانت تنهكك ذكرياته" كنتُ أعمل بهذه النظرية.. لكن ومنذ رحيل والدك وحتى الآن مضت "سنتان" وهو ما زال هناك.. لم يعد ولا أظن أنه سيعود يوما لهذا الوطن البائس، وما الفائدة في أن تُقيم في وطنٍ يسلبك

أحبابك.؟ هل تنتظر دورك لتُقتل ثم تحرق الذين أحبوك من بعدك.؟ نعم.. هكذا هو الحال في بلادي وهذه هي عقلية شبان وطني، يموت أحدهم.. فيخرج الثاني مقتديا بروح صديقه.. ولا يفكر في ما يئول إليه حال أسرته من بعده، وهكذا تتوالى الأحزان هنا. أظن أن والدكِ نجح في ما كان يخطط له لقد ابتعد مثلما قال، وأظنه قد شُفي أيضاً من غرابيب الذكريات، لكنه ترك لي البيت وحدي لم يتمكن من إقناعي بالذهاب معه كنت أقول أني "لا أريد الإبتعاد عن مكانٍ ولد شعوري الأول فيه"رغم أني بعدكِ كنت أشعر فيه بالغربة والوحدة، لكن الآن.. الآن قد تراكمت الذكريات وتضاعفت موجات العذاب، قد اشتدت أعاصير الماضي التي أصبحت تمزقني عنوةً لتشوّه مستقبلي وبالأمس قررت الرحيل، قررت أن أفعل مثلما فعل والدكِ.. ربما سأشفَى، أنا صرت ضعيفا لم أستطع فعل شيءٍ لروحك غير النحيب، الشيء الوحيد الذي أردت فعله والذي كنت قادراً عليهِ.. هو الإنتقام لكِ، أن آخذ ثأرك من أولئك الأوغاد الذين اغتالوكِ، لكن والدك منعني وأصر على ذالك بأنه لن يعفو عني ولا عنكِ إن انتقمت لأجلكِ، وقال لي حينها حديث طويل لكنه أقنعني حين قال أن "الله هو الوحيد القادر على أخذ حق المظلوم من بين يدي الظالم" تراجعت عن قراري الذي اتخذته فصرت أرى نفسي ضعيفا..فاشلا.. جباناً لا طائل من وجودي في هذا الوطن أو في هذه الحياة، أنا هنا عبئاً على نفسي وعبئاً وجودي في هذا الوطن لذا قررت الرحيل، قررت أن أنتقل، لا يهم المكان الذي سأذهب إليه المهم أن أخرج من هذه الأرض، ولولا وجودك فيها لنطقتها بإسم آخر، وأنا أكتب لكِ الآن.. لأني سأسافر غداً، سأنطلق في طائرة التاسعة مساءً إلى "القاهرة" سمعت أنها رائعةً تنسي الموجوع ضناه في أقرب وقت، أنا لا أؤمن بما يقوله الناس لكنني جربت ذالك من قبل لما ذهبت إليها قبل سنوات، لكن من أجل شيء آخر ولطالما وجدته، فإنني في أتم الثقة أن أجد النسيان أيضا، لكني أكره الغربة طالما لم أعتد الإغتراب أبداً.. لكنني سأفعلها هذه المرة، الآن بوسعي معرفة السبب الذي يدع الناس يهاجرون خارج

الأوطان، إنهم ليسوا بحاجة للمال كما تعتقدون ولا يحتاجون الرفاهية بقدر حاجتهم لنسيان همومٍ أخلفوها في أوطانهم، وأكتب لكِ لأنني أعتقد بأني ربما سأنساكِ عندما أذهب إلى هناك وأنا لا أريد ذالك، لكننا نحن نعيش في هذه الحياة مرةً واحدةً فقط والعمر لا يتكرر مرتين، لذا لا أريد أن أنهيه في التنكيل، عجباً لتقلبات الزمن، هو الذي شدني إليكِ ببطءٍ وجعلني أدمنكِ دونما أشعر، والآن أيضاً هو الذي يستدرجني بالرحيل عنك ويجبرني على نسيانكِ.. عجباً لأمره، لكن في الحقيقة لا أدري لماذا أكتب لكِ حقاً فأنتِ حتما لن تقرئي سطوري هذه، وأنا لن أحملها معي عند رحيلي إليكِ، لكن ربما تُبعث هي أيضاً معنا يوم القيامة فهي الشاهد الوحيد على أناتي وتوجعي، يؤسفني أن أرحل عن هنا يا عزيزتي، أن أتخلى عن هذه الديار الجميلة وهذه الحديقة الغناء التي نشأت كل الأحاسيس فيها، أن أترك ذالك البيت العريق الذي أهدانيه والدكِ لأني أردت الحفاظ على ذكراكِ، يؤسفني جدا أن أترك تلك المكتبة التي أخلفتِ فيها كل ما تحبينه.. كان فيها كل ما هو مقربٌ إلى قلبكِ، تلك المكتبة التي كانت تعني لكِ الحياة بأكملها فيها جميع ذكرياتك، التحف الفنية التي على الجدران، هاتفكِ المنزلي الذي كنتِ تكلميني به، أوراقكِ، أقلامكِ، جهاز أغانيكِ، مفكرتك التي تكتبين عليها يومياتك، رائحة عطركِ التي ما زالت بها، وحتى تلك الورقة الصغيرة التي خبأتِها في ذالك الكتاب الذي أخبرتِ والدكِ بأن يفتحه إن خرجتِ إلى مكانٍ ما ولم تعودي مبكراً، ذالك الكتاب الذي كنتِ تتركين فيه الوصايا والأسباب التي تدعكِ تتأخرين وكنتِ قد تركت فيه آخر مرة تلك الورقة الصغيرة التي كتبت فيها (لقد كثر موت الفُجاءة، وربما لن أحظى بوصيةٍ أخيرةٍ إن حدث وفُجعت في يومٍ ما لذا سأترك وصيتي هنا "أهدي مكتبتي هذه بما فيها إلى مالك") سأترك كل ذالك وأذهب بعيداً.. بعيداً.. بعيداً بأقصى ما يمكنني لنسيانه وليس بإختياري.. إنما هي سنة الحياة وأنا مرغم على ذالك، لذا.. سأرحل"

***

النيل دائما ما يحتفظ باللحظات الجميلة.. بالأسرارِ.. بالذكريات.. يُخبئها بداخله، يخفيها عن كل شخصٍ إلا صاحبها، ربما قد تكون تلك هي اللعنة الوحيدة التي تصيب عشاقه .. أن يُحملهم وزر ماضيهم عُنوةً؛ ذهب إلى النيل في مكان اللقيا المعتاد، بدل وكأنه يرى كل شيء، عاد بذكراه إلى ما قبل عامينِ يتأمل النيل متكئاً للخلف على كرسيه واضعا يديه على جيتاره.. وفجأةً.. فجأةً جحظ بعينيه، لم يتسنى له أن ينتظر كثيرا حينما رآها بغتة من العدم مقبلةً عليه، أخذ جيتاره بقوةٍ وكأنما شيئاً قد شد أحبال صوته غصباً ليغني تلك الأغنية، بسط جيتاره في يديه دون دراية منه، لا أدري هل غنى لها كعادته عند فرحته بكل جميلٍ.. أم أن الأشواق المتراكمة في كهوف قلبه أمرته بذالك، غنى دون مقدمة عزْفٍ كما لو أنها لا تحتاج لمعزوفةٍ تقديمية هذه المرّة، أو لأنها أتته على حين غفلة فأراد هو أيضا أن يُفاجئها، وبدأ أغنيته بلحن "الحوت" قائلا:

"العزيزة.... العزيزة الما بتسأل عن ظروفنا

الوحيدة.. الوحيدة الطالعة شان جيتك ورودنا"

ثم عزف مقطوعة صغيرةً على لحن تلك الكلمات ومن ثم واصل ورددها مراراً وتكراراً حتى انتشى النيل من ألحانه وتراقصت أمواجه طربا، وعندما وصلته حينها أقبلت عليه وارتمت بين أحضانه تقبله وتشتم رائحته التي افتقدتها طوال سنوات غيابها، تحتضنه بقوةٍ، وغفى بين ذراعيها هو الآخر حتى استفاق وعيه عندما أراد أن يمسح دمعة سقطت من عينيها سهوا، لكنه أغلق عينيه وبكى بشدةٍ عندما تيقن ان هذا مجرد خيال!؛ طال النظر في فراغ البحر وأمواجه المتلاطمة وكأن لميسه قد عادت إليها، وأردف متقصياً بتفكيرٍ حزينٍ في سكوت وبدموع كان يخفيها بداخله قائلا "هدأ الثوار، وانتهت الحرب، وتصافح القادة.. لكنكِ لم تعودي.! فما الذي يبقيني في وطنٍ يسلبني السعادة.؟ "

في اليوم التالي جاء مالك لمنزل أصدقاء دراسته ووجد الأبواب مغلقةً.. فتأكد أنهم ما زالوا يتلقون بعض المحاضرات، جلس في إحدى المقاعد بالخارج تحت ظل تلك العمارة، عمارة "عم الخير" ذالك الرجل الذي عُرف عنه الزهد والطيبة، فإنك إن رأيته تستهون به.. تظنه فقيرا، لا يبدوا عليه الثراء أبداً، يبدوا وكأنه رجلا عادياً أو غفير، لن تُصدق إن قيل لك أنه يملك نصف منازل ذالك الحي "حي العرب" في مدينة "أم درمان" لكنه طيبا خلوقاً لطيفا، رجل يختلف عن غيره من الرجال، لا يأخذ قرشاً من أولئك الطلاب الذين يقيمون في عمارته تقديراً لظروفهم، بينما كانت الأجرة لا تقل آنذاك عن ثلاثة ألف جنيهٍ في الشهر. قعد مالك وكان قد عاد لتوه من "الكلية" بعدما استلم شهادته الجامعية لقد نجح بإمتياز درجة الشرف لكنه لم يكن مسروراً كبقية الخريجين، لأنه اكتشف مؤخراً أن الشهادة ليست إلا ورقة هزيلة بين يديه، هل قضى طوال هذه السنوات فقط لينال هذه الورقة المهترئة.؟ وما سيفعل بها..؟ لا شيء طبعاً، هكذا هم شباب وطني، يتخرجون من الجامعات ولا يجدون عملا يُقضي مصروفاتهم اليومية.!

حزينا متكئاً في كرسيه سانداً ظهره للخلف محملقاً بعينيه نحو السماء، غارقاً في تفكيرٍ عميق مغلقا عينيه، يرد السلام لكل من حياه بهمهمةٍ دون رؤيةٍ.. حتى غفى، فجاءته" أميمة" تلك المرأة اللطيفة التي تبيع المشروبات الساخنة في مقهاها الصغير الذي يقع بالقرب من تلك العمارة، تساءلت في مبدإ الأمر وهي مزمجرةً حاجبيها وواضعةً سبابتها على شفتيها وقالت في نفسها "لماذا لم يتناول مالك قهوته اليوم؟" وقفت تتأمله وهي تفكر في الإجابة لكن تلاشت تلك الأسئلة عندما تذكرت بأنه أخبرها مسبقا أنه ساريا وراء استخراج شهادته، فنظرت إلى ذالك المستند الذي في يده وقالت في نفسها "ربما قد تكن هذه هي الشهادة" وهو في حالته تلك اقتربت ببطءٍ مثلما كانت تمزح معه كعادتها، فهو الشخص الوحيد الذي تراه عطوفاً.. وبمثابة أخيها، هو الوحيد الذي عندما تتحدث معه تشعر بالألفة والمحنة، هو الذي كان يعوضها عن غياب زوجها

وابنها الذين رحلوا في حادث سير، ما كان بينهما لا يمكن تسميته صداقةً أو حباً.. لأنه كان أكثر من ذالك بكثيرٍ لذالك لم يندرج تحت أي مسمى، فقط يمكنك تسميته بـ"صداقةً أخوية" فصداقة الإخوة أقوى من الحب. سحبت ذالك المستند الورقي من يده دون أن يشعر، انتزعته منه وهي تضع كفها الأيسر في فمها لتكتم ضحكتها الساخرة، فتحته فوجدت بداخله الشهادة نفسها بدرجة الإمتياز، إبتسمت بفرحة عارمةٍ وكأنها هي التي نجحت، ذهبت مسرعةً صنعت فنجان قهوةٍ من الوصفة التي يعشقها، أخذت منضدة صغيرة وجاءت بها وضعتها أمامه بهدوءٍ، ابتعدت قليلا، أخذت له صورة بهاتفها، ثم قبلته في جبينه بحرارةٍ أفاق على إثرها مذعوراً حتى كاد يسقط، فأمهلته هي قائلةً

_لا تخف.. لا تخف، لا أرغب بأكلك. "ثم أطلقت ضحكة ساخرة وأضافت" تلك قبلة التفوق مبارك لك النجاح

علم أنها قد تجسست على أوراقه، ابتسم ابتسامة عريضةً وقال لها: بارك الله فيكِ

سألته: لماذا لم تأتي لتناول قهوتك اليوم؟

أجابها: لأني أستحي أن أخفي عنكِ شيئاً

نظرت إليه بعدم استيعابٍ وقالت: لكني عرفت

فرد لها قائلا: ليس أمر الشهادة

سألته بدعابةٍ: وماذا تخفي أيضا

قال: لقد نويت السفر اليوم بعد التاسعة مساءً ولا أريد إخبارك، لهذا اكتفيت بالجلوس هنا

في ذالك الوقت وصل "حمدان" صديقه الذي يدرس في كلية "الشريعة والقانون" وضع حقيبته بعجَلٍ إلتفتوا إليه، فمد ذراعيه _كأنه يقرأ الفاتحة_ وقال مازحاً

_اللهم بارك لهما، وبارك عليهما، واجمع بينهما بالخير.

_آمين

تفاجئوا جميعا بصاحب ذالك الصوت وغرقوا في ضحكة أخرى قبل اكتمال ضحكتهم تلك، التفتوا إليه ليجدوه "طاؤوس" (صاحب المطعم الذي بخلف العمارة، والذي يمتلئ مطعمه في المساء بعمال تلك المنطقة وساكني ذالك الحي من "العزابة" حيث أنك لن تجد طعاما إن جئت بعد التاسعة والنصف) كان وراءهم، اقترب منهم.. مد يده نحو "أميمة" وقال مازحاً

_ألف مبروك على الزواج

رفعت أميمة تلك الصينية الصغيرة في يدها وأومأت له بها عاضّة على شفتيها، ثم قالت له مبتسمة بعد ثوان وهي تمزحٍ

_عقبالك أيها العازب

ثم التفتت نحو "مالك" وقالت بدعابةٍ: سنكمل حديثنا عن الزواج في المساء.

هز "مالك" رأسه مبتسما، وأطلقت هي ضحكةً ساخرةً ثم غادرت، فتبعها طاؤوس متمايلا كأنه يرقص وهو يقول بلغته المرحة

_يجب أن أتناول قهوةً أو شيئاً قبل حلول المساء

تبادل حمدان ومالك الإبتسامة من طرافة الحديث واندفعا الى داخل العمارة

***

مطار الخرطوم/الساعة 8:18

وصل مالك والوفد المرافق له إلى المطار بسيارة Hyundai elantra باللون الابيض الساطع، تلك السيارة التي أهداها له والد "لميس" مع كل ممتلكاته في تلك الأرض، وهو الذي أهداها إلى "لمى" مع كافة ممتلكاته التي تتعلق بوالد "لميس" بعد رحيله لم يتحدث أحد طوال الطريق كان يقودها العم "صالح" وبجانبه تجلس "لمى" وفي الخلف يجلس "مالك" في المقعد الأيسر من جانب السيارة وعلى يمينه تجلس "أميمة" يحدق كلٌ منهم بنافذة السيارة الزجاجية التي يتسلقها الندى من فرط البرودة "مالك" غارقٌ في تفكيره يتأمل تلك البنايات في صمتٍ وكأنه يقول لها في داخله "وداعاً يا مدينتي العريقة، ربما لن أراكِ مجدداً، ولا أدري هل سأنساك أم سأشتاق إليكِ أكثر" رغم أنه قد كرهها وتمنى الابتعاد عنها، الا أن في داخله شيء من الحنين إليها، لكن الرجال لا يعبئون للمشاعر عندما يتملكهم الحزن، بينما كانت أميمة مقتولةٌ من الكمد، تبكي بصمت، تخفي أدمعها قدر المستطاع، تكاد تلتصق بزجاج السيارة.. فقط حتى لا يراها أحد، فالمرأة لها كبرياؤها حتى في الألم، لكنهم جميعاً يعلموا ذالك، بأن لا أحد يستطيع إخفاء "ألم الفراق" لذا لا أحد يكترث بالثاني، أما "لمى" فلم تبكي قط.! لأنها لم تعد تثق ببقاء أحد، والإنسان يبكي مرةً واحدةً فقط، وذالك عندما يفتقد أعز ما يملك، بعدها يصبح قويا.. صلبا.. قاسيا لا يملك في قلبه ذرة عطف، وما أصعب أن يصل الإنسان لهذه الدرجة من الشدة، وغير ذالك فإن "لمى" قد فقدت ذاكرتها وأمامها مدة أقلها ثلاثة سنوات حتى تسترجع ذكرياتها بالكامل، ولم تتذكر حتى "مالك" فهي متعلقة به فقط لأنه يحتفظ بممتلكات "لميس" لم تستطع تذكر أنه كان صديقا لها، لذالك هي لم تعد متأثرة بفراقه كثيراً.. فقط يؤلمها الرحيل، لأنها لن تجد أحداً يشاركها تفاصيل لميس أو يبادلها قراءة الروايات مرةً أخرى، سيصبح ذالك البيت فارغا من كل شيءٍ حتى من "مالك" الذي لم تتخيل يوماً بأنه سيهاجر بحثاً عن نسيان "لميس" والتي يحاول جاهداً أن يذكرها بأنه خطيبها، هي التي افتقدت الذاكرة

لم تنساها.. فما بالك به، لكن أعادت رشدها عندما تذكرت أن والداها أيضاً قد هجرا هذه المدينة لينسوا وليحصلوا على قدر كافٍ من الراحة، أخذت برهة.. تفكر في الابتعاد هي أيضاً.. لكنها رفضت تلك الفكرة التي اعتبرتها خيانة لوفاء عهد صديقتها الراحلة، لكن يراودني سؤالٌ هنا.. "هل يجب أن نحتفظ بالوفاء لمن رحلوا فيما يتعلق بحياتنا الخاصة.؟"

أما العم "صالح" فكان يقود ببطئٍ لأنه يعلم أن مالك سيعود يوماً ما من أجل هذه المدينة، لذالك كان يسهل له رؤية معالمها، ربما ليتراجع عن قراره أو ليراها جيداً بنظرة الوداع الأخيرة، لكنه لم يشغل باله بالتفكير ولم يتملكه شعور بالحزن ولا أثر لمعالم ألم الفقدان في وجهه، فعلى ما يبدوا عليه أنه أيضا قد تلقى عدة صدمات وضربات كثيرة في تجاربه معاندة الحياة.. ولم يتحصل على شيءٍ، لذالك يحتفظ بالهدوء واللامبالاة، فلربما قد كان يرى ان هذا السفر لا يجلب لمالك سوى المشقات والمزيد من الهم ولعنات الذكريات.. لكن لا يفيد النصح، لذا فهو لم يقدم له أي نصحٍ أو شعورْ بالأسف، ولربما رأى أنه قد يزيل عنه جل الإكتئاب الذي يعيشه.. وينسيه كل شيء لأنه الأدرى بمالك أكثر من أي شخصٍ آخر، لهذا فهو سعيدٌ للغاية، كان يقود ببطئٍ ويدندن بصوتٍ أشبه بالهمس مع تلك الأغنية التي وضعها على المشغل الموسيقي والتي كان يقول فيها "مصطفانا"

(مداك إتعدى حد الشوف.. دخلت على الشعر إنسان
هواك .. إتخنا جوة الجوف.. وإنتحر النهار .. هسـّة
نغنيك لى مدن .. شاخت.. معاك أحلامى .. ما تنسى
تغنيك القرى الراحت.. خلاص يا غربة .. ما ترسى
غنيناك .. وبنغنى.. وبتحدى الزمن .. فنان. "سافر")

انتهت الأغنية وما زال ذالك العجوز يتململ ويعبث بمشغل الموسيقي، يعلي الصوت ويوطيه، يبدوا أنه قد فقد عقله، لا... إنه فقط فقد أعصابه، لا.. هو

لم يفقد شيئاً، هو فقط يريد أن يبدو كالمهرج.. يقوم بفعل أشياء غبية ليخرج أولئك المحزونون من صمتهم، يريد أن يقول له أحدهم لا تفعل هكذا، أو أترك هذه الاغنية، أو بالأحرى ليجعلهم يبتسمون من تصرفاته.. لكن بلا جدوى، لم ينتبه أحد لما كان يفعله، كلٌ مكتفٍ بصراعاته الداخلية

علّى صوت المشغل قليلا عندما بدأت الأغنية التالية وكانت أيضا للفنان "مصطفى سيد أحمد" لا أدري ما علاقة هذ العجوز بذالك الفنان فهو مغرمٌ بأغانيه كالمهووس، لكن ذالك العملاق أيضا يستحق فلقد كان مغنياً فوق المستوى، واحداً من أفضل رموز الفن السوداني، كانت الأغنية مستمرة في التشغيل حتى قال "مصطفانا"

(في خاطري لحظاتنا الندية.. وانتي ساعة المغربية

قعدتك جمبي وعيونك.. سارحة في الدنيا البهية

خوفنا من سفراً بوَدّي.. للمسافات القصية

قصة الزول المسافر.. قلبه عشرة على الوصية)

عندها سمعوا صوت تنهيد بكاءٍ يخرج من أحدهم، التفتوا جميعاً.. ليروا أميمة وهي متشبثة ب"توبها" _ذالك "الزيّ" النسائي السوداني الذي يرتدينه "الأمهات" غالبا أو النساء المتزوجات_ متشبثةً فيه تغطي به وجهها ملتصقة بزجاج السيارة ودموعها تهطل بغزارةٍ حتى ما كادوا يفرقوا بين أدمعها والطلل الذي يبلل الزجاج من الخارج، ربت مالك على كتفها وضمها إليه لأنه فقط يعلم ما الذي يبكيها، أشار بيده إلى العم صالح وأراد التكلم ولكن فوراً قالت لمى قبل أن ينطق

_ما بك يا أميمة.؟! ما الذي حدث؟ لماذا تبكين؟!

فأشارت أميمة إلى العم صالح وقالت بصوت متحشرج.. متقطعٍ وحزين

_لا شيء، فقط.. أنا فقط.. هذه الأغنية..أغلقها، أرجوك أوقفها لو سمحت.

أوقف عم صالح الأغنية ثم صمت الجميع بإشارة من مالك، صمت الجميع.. ولكن صمت حيرةٍ، ذالك الصمت المخيف الذي يُلهب براكينا من التساؤلات في داخلك، كانت لمى في حيرة وكانت تردد في داخلها حوار طويل مع نفسها "ما الذي يحدث؟ لماذا أمر مالك بالصمت؟ ولماذا احتضنها إليه؟ إن في الأمر غرابة، يا رباه.. هل يمكن ذالك؟ هل يمكن أنه أحبها؟ أو أنها أحبته؟ نعم.. ربما.. ربما قد تكن أحبته لكن من المحال أن يحبها مالك، فهو قد توقف قطار الحب لديه" لكن العم صالح كان يملك عقلا أكبر من ذالك، لم يحصر تفكيره فقط في العلاقة التي بينهما

فمن الطبيعي جداً أن يحدث ذالك، أن تبكي أنثى ويأتي أحدهم يطبطب على كتفها أو يضمها إليه ليهدأ من روعها ويشعرها بالأمان، وفي هذه الحالة الصمت واجب، لا يمكن أن ننهك المحزون بالأسئلة عن سبب حزنه إلا حينما يهدأ، ومن الطبيعي جداً أن يحب الرجل أكثر من إمرأةٍ.. وكذالك المرأة، فلم يُخلق القلب لإحتضان فردٍ واحدٍ.. بل هو وارفٌ يتسع لجميع من يختارهم العقل بدقة، أما الفلاسفة والأطباء الذين قالو أن "القلب لا يتسع لإثنان" كان أكثرهم على علاقات جنسية متعددةٍ وحب الفساد، وقصدوا بذالك أن "القلب لا يتسع لإثنان.. الفجور والتقوى" وليس لشخصان، أما جميع الذين فهموها عن طريق الخطأ وآمنوا بتصديقها،.. إما منافقون يكررونها على مسامع كل شخصٍ أعجبهم.. أو مراهقون لم تمتد آفاقهم لمعرفة الحياة بعد

لقد كان العم صالح حليما فقال في نفسه "ربما قد تكن لها قصة مع هذه الأغنية" وهو كذالك فعلا، فهذه هي نفس تلك الأغنية التي كانت ترددها مع زوجها قبل سنتان، وكان ذالك بعد سنتان من زواجهما عندما كانت تجلس بجانبه في سيارتهما وبالخلف ابنهما "الجيْلي" الذي كان يبلغ من العمر ثمانية أشهر آنذاك، لما كانوا ذاهبين لقضاء عطلة عيد الأضحى مع أهاليهم في مدينة "ود مدني" وفجأة خرجت شاحنة ضخمة مليئة بالبضاعة تمشي بشكل متهورٍ يبدوا أن سائقها تعاطى بعض المخدرات، أو حسبما أخبرت أميمة مالك أنه

زميل زوجها في الشركة ولأن زوجها متفوق عليهم في العمل دائما.. _فحسدوه_ جاءت تلك السيارة مسرعةً بشكلٍ غاضبٍ ودهست على سيارتهم، فمات إبنها في الحال ولحق به زوجها بعد شهر من المعاناة والعلاجات الغير ناتجة، توفى متأثراً بنزيف حادٍ في المخ، وهي تعلقت بمالك لأنه يشبهه كثيرا، في تصرفاته.. قامته.. صوته.. مشيته.. في كل شيءٍ تقريبا.. عدا الملامح. لذالك فهي تعلقت به حتى أحبته وأصبحت لا تحتمل فقدانه، فذكرتها تلك الأغنية بفقيديْها ووصفت حالها مع الذي تجلس بجانبه.

***

نزلوا من السيارة، تقدموا قليلا ووقفوا يتأملون الطريق، فتح العم صالح صندوق السيارة وبدأ في تنزيل الحقائب، نظر مالك إلى الساعة فوجدها٨:١٨ أطلق تنهيدة حزينةٍ.. رفع عينيه إلى السماء وقال بصوتٍ هامسٍ لم تسمعه إلا لمى

_رحمك الله، حتى الساعة ترغمني على ذكراكِ.. لن أنساكِ"

نظرت إليه لمى بشفقةٍ.. ابتسمت بحزنٍ وقالت

_ولا أظن أنك ستنساها..رحمها الله

وأثناء ما كان العم صالح يخرج الحقائب من السيارة وصل حمدان ومعه شخص آخر على دراجة مالك البخارية التي أهداها له، القى حمدان عليهم التحية وعرفهم بصديقه، أشار إليه بيده قائلا

_جمعة، من أقدم الأصدقاء لدي

سلموا عليه واحداً تلو الآخر معرفين انفسهم به، وعندما اتى الى مالك عانقه بقوة وقال له

_سأفتقدك كثيرا يا صديقي

فبادله مالك قائلا: وأنا أيضا

ثم علق نظره إعجاباً بلمى وشرد تيها في تأملها عندما كانت تتحدث إلى أميمة حتى أيقظه صوت ذالك الرجل الذي ظهر فجأةً معلقا على رقبته بطاقة توحي أنه أحد موظفي المطار، اقترب وبيده كاميرا "Nikon Z٦ II" وقال لهم

_هل ترغبون بأخذ صورة تذكارية لكم؟

ثم أضاف مبتسما بصوتٍ كوميدي مضحكٍ موجها كلماته للعم صالح

_لاتقلق..إنها مجانا

_لا بأس، سنأخذ المزيد من الصور إن كانت مجانية

بتلقائية كوميدية رد العم صالح كعادته لا مثيل له في المرح، ضحك الجميع حينها بصوتٍ مسموعٍ ثم استعدوا لأخذ الصورة؛ وبعدما انتهوا قال المصور للعم صالح

_استأذنك يا عمي، هل يمكنك أن تأتي معي لأخذ الصور

فأجابه العم صالح بمرح: كنت على وشك أن أسألك عنه.. هيا بنا

ابتسم الرجل، توجه الى أحد الأكشاكِ الصغيرة وتبعه العم صالح، بعدما استلمها.. ستة صورٍ سأله المصور:

_إلى أين هو مسافر، لا يبدوا عليه الحزن أبداً بما أن الجميع يتأنبون، يبدوا قاسيا.. الى أين هو ذاهب

نظر اليه العم صالح بعدم استيعاب وبتعجبٍ قال

_من هو؟

دار الحديث بينهما فقال له المصور

_ذالك الرجل الذي يرتدي الأبيض وحده هو المسافر أليس كذالك

_نعم ولكن كيف عرفت

_ظاهرٌ من هيئته

_ .....

_الى أين هو مسافر؟ لعلاجٍ أم دراسةٍ أم للقاء أهله؟ يبدوا أنه لا ينوي العودة مرة أخرى

_ومتى رأيت أحداً خرج من هنا حزينا ثم عاد؟

_بالطبع لا

_حسنا.. هذا ما يريده هو، يريد أن يمحوا من جغرافيا ذاكرته وجود دولةٍ تُدعى "السودان"

ثم خرج العم صالح وغادر ذالك الكشك الصغير، وعندما وصل لم يجد أحداً في الخارج سوى "جمعة" سأله: أين هم؟

فأجابه جمعة: هم بالداخل أخبروني أن أنتظرك هنا حتى تأتي لأرافقك إليهم

_حسنا، هيا بنا

وحينما دخلوا وجدوا أن أمتعة مالك قد نقلت إلى الداخل ووقف هو مودعا أصدقائه، اقتربا منه هما أيضا ثم عانقاه بشدةٍ، مد له حمدان حقيبة صغيرة وقال له

_لا تفتحها الا إذا اشتقت لنا.. وافتقدتنا بشدة.

هز مالك رأسه بالموافقة مبتسماً ثم نظر الى العم صالح وقال بإبتسامته

_ماذا يا عم صالح، ألن تعطيني نصيبي؟

استجمع عم صالح عقله وألقى نظرة على كتلة الصور التي بين يديه ثم جحظ بعينيه متعجبا ومحتارا، وضع يديه في رأسه وقال بطريقة كوميدية

_يا إلهي، ليشهد الرب أني نسيت.. خذ.. هذه هي الأجمل.

ضحك الجميع على تلقائيته، ثم أعطى كل واحد منهم صورة والتفت إلى مالك فارداً ذراعيه قائلا:

_بالعدل.. أرأيت.. بالعدل وأنت شاهدٌ على ذالك، فلا أحد يقول لك أنه لم يأخذ نصيبه حين تعود.!

ابتسم جميعهم، فقالت لمى لمالك

_أرى أن الوقت يداهمك، يجب أن تتعجل.

ودَّعَهم بإبتسامةٍ.. ثم غادر، تلك الإبتسامة التي تطوي بداخلها أفواجاً من الإضطرابات النفسية والإكتآب، أن تبتسم في وجه ألمك.. هذا لا يعني أنك معاندٌ وقويٌّ كما يزعم بعض علماء "التنمية البشرية" لا؛ هذا يعني أنك باهتٌ في دَركِ الهشاشة، ضعيف حد أنك لا تستطيع مواجهة حقيقتك.. فتهرب منها بالإبتسامة والنكران، مهما تنكرت، مهما ابتعدت، مهما اختلقت صحبة وأصدقاء ليخففو من ألمك، مهما شربت الكحول وتناولت المخدرات بشتى الأنواع، مهما تغيبت عن وعيك.. مهما حاولت.. لن تستطيع تجاوز وجع الإكتآب، فشعورك باللا انتماء لا يزول بمآنسة الرفاق أو التغَيّب عن الوعي.. لا؛ هو فقط يزول بشيئين، الراحة النفسية لتعش في سلامٍ، أو الموت لتحيا في سلام، وما بين الإثنين سقط الكثير من الضحايا، ما بين الإثنين العديد من الطرق والملايين من الأميال وطريق واحد فقط هو ما يؤدي إلى الوجهة المقصودة، ما بينهما هو ما دفع الكثيرين للإنتحار ظناً منهم بأن الموت سيخلصهم منه ومن سوء هذه الحياة، لكنهم نسوا أن بإنتظارهم حياةٌ أخرى، وإن قتلت نفسك.. فكيف يمكنك تعيش تلك الحياة التي تنتظرك؟ ماذا قدمت لتلك الحياة؟ يجب أن تذهب إليها مهيئاً طاهراً نقياً من كل الأدناس، حمقى هم من يرون أن الإنتحار هو الحل الأمثل لمأساةٍ يعيشونها، أن تعش مكتئباً ومضطربا وعلى جسدك جميع الأمراض المزمنة خير من أن تقود نفسك نحو العذاب الأبدي

لقد ودّعهم ثم رحل.. رحل مالك، ما أقسى الرحيل وما أبشع لحظات الوداع، أن ترغمك الحياة على فراق من كنت تدعوهم ب "الحياة" تلك كانت عائلته، نعم عائلته بمنتهى البساطة، لكن في بعض الأحيان نختار أصعب الطرق سلكاً لنتهرب من أوجاعنا.. نعلم أن الطريق قذرة وأنها بعيدة المدى وربما قد نسقط في المنتصف ولا نستطيع إكمالها، لكن الذي يدفعنا إليها ويجبرنا على تجاوزها.. هو الألم الذي تعاني منه أنفسنا، وذالك الأمل الذي يخبرنا أن في نهاية هذه

الطريق خواتيم كل العذاب الذي نعانيه، فنسير مملوءين بالآمال رغم تفانينا من الألام، وفجأةً..نجدنا قد استيقظنا في أوجاعٍ جديدة لا حدود لها.. فنعيد الكرة من جديد

هكذا قد رحل مالك، ترك لهم الألم.. الحزن.. الإكتآب والوحدة.. ذالك الشعور الذي يجعلك تشعر أنك لا تستحق الحياة، رحل وتركهم.. ربما قد لا يعود أبداً، الرحيل أحيانا لا يشعر به المغادِر بقدر ما يصارعه المفارَق، وما أصعب شعور أن تودع أحدهم وأنت على يقينٍ أنك لن تلتقيه مجددا

بعد نصف ساعةٍ من الصمت، من التظاهر بالصمود، من الوجع، من البكاء الصامت، من تقلب الذكريات، أيقظهم العم صالح من شرودهم بأن ينهضوا للمغادرة، فلا فائدة من الإنتظار بعد توديع راحلٍ ولا طائل من التفكير في رحلته، ففي كلتا الحالتين هو لن يعود، أيقظهم ذالك العجوز الذي تفهّم الحياة جيداً وقرأها بطريقةٍ فلسفيةٍ قاتمة، أصبح لا فرق لديه بمن يأتى ومن يذهب إلا بالتحايا، يقول "وداعا" لمن يرحل، ويستقبل من يأتي ب" حمداً لله على السلامة" ولا يؤمن بتلك الخرافة التي تقول (لا ينبغي أن نقول وداعاً للراحلين، بل يجب أن نهمس لهم "إلى اللقاء") لأن من يرحل هو نفسه من يستقبله بنفس تلك الجملة التي يتبادلها مع حديثي النشأة في علاقته، ولأن من يرحل لن يعود ذالك الشخص.. فلابد من أن يودعه ليستقبله في الغد شخصا آخر، لأن شخصاً تقبل فكرة الرحيل لا يصعب عليه اتخاذ قراراتٍ أخرى، لذالك لا فرق بين من يرحل ومن يأتي.. جميعهم غرباء لديه، لم يتأثر كثيراً كما فعل أصدقاؤه، أو بالأحرى أبناؤه بل كان يفكر فيما ينتظره

في الدراجة النارية شخصان والحزن يغطي ملامحهما، وفي السيارة ثلاثة أشخاص ومقعدٌ فارغ.. والصمت هو سيد الموقف، تنهدت" لمى" وأرادت كسر ذالك الصمت الموحش، فقالت وهي توجه سؤالها للعم صالح

_هل تمانع إن شغلت أغنيةً

تنهد العم صالح، ابتسم برفاهيةٍ _لا مكان للحزن بداخله_ تأمل الطريق قليلا قبل أن يجيب، ثم الفت إليها وقال: نعم، أمانع

سألته وهي تتصنع الحيرة: لماذا.؟

تنهد العم صالح وهو يدرك أنها أدرى بالإجابة منه، لكنه علم ما الذي تقصده، فأجابها قائلا:

_لأنها ستزعجنا، ولا أحد متفرغٌ لسماعها جميعنا في مزاج سيء، ويكفي ما حدث قبل قليل

هنا أدركت "أميمة" ما يلمح إليه، فقالت

_ لا بأس شغل أي أغنية عدا تلك

فأجابها وأنهى الحديث قائلا: لا، لا نحتاج لإستماع أي أغنية

بعد مدة قصيرة وقفت السيارة أمام منزل "أميمة" لكنها لم تلاحظ لأنها كانت غارقة في أفكارها حتى قال لها العم صالح بدعابة

_هل ترغبين بأخذ شيءٍ من السوق يا أميمة.؟

أجابته بلا مبالاة: لا، انطلق

ثم مالت بنظرها نحو الزجاج تتأمل الخارج وما إن تحركت السيارة حتى عادت لوعيها واستوعبت ما يقصده ذالك العجوز الماكر، فضحكت على نفسها وضحكوا جميعا، ثم عاد العجوز مرةً أخرى إلى الخلف ترجلت أميمة من السيارة، شكرته على ذالك وودعتهم، لكنها تعجبت.. كيف تمكن ذالك العجوز من معرفة منزلها؟

وهناك كان "حمدان وجمعة" أيضا وصلوا، اندفعوا الى داخل المبنى ليجدوا أصدقائهم يتحدثون عن امتحان الغد.

عاد جميع أصدقائه من المطار، عائلته تلك التي كونها من أصدقاء الدراسة ورفقاء الحزن، فالبؤس دائما ما يجمع المتشابهين، لم يكن لديه عائلة سواهم، والديْه.. أولئك المتأخرين الذين منعوه عن قراءة "الجامعة" لإعتقادهم أنها

"حرام" لأن مؤسسوا فكرتها هم "الخواجات" وكل ما يأتي به "الخواجات" لديهم "محرم" هذا هو اعتقاد بعض أهل القرى، أما عن أخيه، ذالك الملعون الذي تخلّى عنه لسببٍ تافهٍ، فقط بضعة أوراقٍ من النقود، لأجل خمسة ألف جنيهٍ طرده من الإقامة معه.. تباً للمال، لا أدري من الذي أعطاه كل هذه السُلطة يفعل بالبشر ما لا يفعله الخمر بمدمنه، من السهل أن يهجرك أخيك أو والدك من أجل المال. كاد ينهي حياة "مالك" الدراسية عندما طرده من المنزل، وكان ذالك لما عاد "مالك" من مصر بعد إجازة دراسية مدها حتى اقتربت الإمتحانات فأخبره أخوه "جبران" أن يعيد له مبلغه الذي استلفه منه قبل سفره ظنا منه بأنه قد عاد بالكثير من الأموال ونسي أن "بعض الظن إثم" ولم يكن لدى "مالك" حينها أكثر من رسوم جامعته ومصاريفه فأخبره بذالك ووعده بأنه عندما يتخلص من الإمتحانات سيعيد له حقه، لكن شقيقه كان سيئاً قذراً لعيناً للغاية، وهذا هو عيبُ بنو وطني، يظنون أن الذي يغترب يعيش حياة فارهة وحده في شقة واسعة فيها كل أدوات الرفاهية والمال لديه كالماء، لكنهم لا يفكرون في وحدته تلك وكيفية تحملها، لا يدققون النظر في المصروف الذي يبذله من أجل مسكنه والفواتير التي يصرفها، لا يفكرون في أكله، في كيفية معيشته؛ وأخوه كان أوحش من كل ذالك، خيّره بين اثنين، إما أن يعطيه ماله.. أو يخرج من المنزل، كان كل واحد منهما أصعب من الثاني أن يعطيه ماله.. هذا يعني أن يتخلى عن دراسته، وأن يخرج من المنزل هذا يعني أنه سيضطر لإيجار منزل آخر وإن استأجر منزلا فلن يستطيع إكمال دراسته بما لديه من نقود، إذن ما كان أمامه هو خيارٌ واحد.. وليس اثنان، إن أعطاه المال.. فلن يستطيع إستكمال دراسته، وإن خرج من المنزل أيضاً لن يستطيع استكمال دراسته، فلم يكن هناك سوى حلٌ واحد، أن يعطي أخيه نقوده ويجمد دراسته ومن ثم يعود إليها في السنة القادمة.. وقد فعلها انتقاماً من أخيه ذالك الوغد الذي يظن أن المال هو كل شيء، لأنه أن تخسر أعواماً من عمرك لتُعيد اتزانك خيرٌ من أن تخسر أعوام عمرك كلها

بعد عامان عاد مالك واشترى بيتاً بالقرب من الجامعة استأنف دراسته وأكملها وها هو اليوم قد تخرج ولا يرغب حتى برؤية أخيه الذي أمسى غير موجود بالنسبة له، لأن لا وجود لشخصٍ يفضل المال على الإنسان في عائلته، لكن أخيه هذا عمل بمفهوم المدن

هناك ضريبة لكل شيء تختاره في حياتك، وكانت ضريبة مالك أخيه.. ليفتقده للأبد.

تلك هي عائلته التي تتكون من خمسة أفراد بعدما تخلى عنه أغلب الأصدقاء وأولئك الذين طلبوا منه أن يسكنهم معه في منزل والد لميس فرفض، فتخلوا عنه، الجميع كانوا في حياته من أجل المصلحة إلا هؤلاء الخمسة، ومثل هؤلاء الأصدقاء نادرون جداً بل مهددون بالإنقراض، فاحتفظ بهم جيداً إن كنت تمتلك في حياتك مثلهم

***

ماريوت/القاهرة/5/18

"مذكرة مالك"

مساء النور، نحن هنا ندعي النور في كل يوم.. لكننا لا نراه ولا نعلم بأن لا وجود لذالك النور هنا، نعم تشرق شمسنا.. لكن إشراقة بلا ضوء ولا نور، النور حيث انتِ، انت النور وما سواكِ عتمة وظلام، مساء النور عليكِ يا نوراً يهب لروحي السلام، مساء النور عليكِ يا لؤلؤةً سطعت في حياتي فاشتعلت من بريقها شمساً أضاءت كوني الحلوك بأكمله وخمدت عندما غابتِ، سلام الله على روحكِ البريئة التي ما طلبت شيئاً غير السلامِ.. فاستسلمت لقضاء الله، أخاطبكِ اليوم وأنا أشاهد منظر الغروب على سطح أمواج البحر من خلف بلكونة شقتي التي استأجرتها في هذا الفندق، لقد مرت ثلاثة أشهر على وجودي هنا، الحياة هنا تختلف كثيراً عن هناك، بدءاً من الصقيع الشديد والمقاهي الجميلة، هنا لا وجود للازعاج ولا وجود للإكتآب، في هذه الفترة الوجيزة تأقلمت مع وضع هذه الديار وصادقتُ العديد من الأصدقاء، فالمصريون لطيفون جداً وفكاهيون للغاية لن تشعر معهم بالملل ولا حتى بالغربة أو الوحدة، يعاملونك وكأنك تنتمي إليهم، مثل "عم إسلام" صديقي العجوز الذي يعمل في الفندق الذي أسكن به دعاني لتناول وجبة العشاء في بيته من أول يومٍ تعرفت عليه فيه، أخبرته بأني غريب ولا يصح ذالك، لكنه قال لي جملةً ما زالت عالقة بذهني صرت أرددها كلما عاودني الشعور بالغربة، وهي "لا فرق بين الغريب هنا والقريب، كلنا واحد"، قضيت ذالك اليوم برفقته تآنسنا معه كثيرا، عرّفني بعائلته والتقط لنا إبنه" جمال" العديد من الصور أنا وهو وعائلته، الناس هنا مسالمون للغاية، بحيث تجد شخصاً لا يعرفك فقط التقى بك في الطريق أو في المواصلات يآنسك ويحكي لك "النكت" يضحك معك وكأنه يعرفك منذ ألف سنة

والأجمل من ذالك عندما أكون ماراً بالطريق، لن تخلو كلمة "زول" من مسمعي إلا إذا كان الدرب خالياً، أجد كل الناس تسألني، الماشي والواقف،

الكبير والصغير، جميع الناس ترغب في سؤالي والتحدث معي وكأني محققا خرج لتوه من مسرح جريمةٍ، جميعهم يرددون في مسمعي "زول.. عامل ايه" في بداية الأمر عندما كنت جديدا كنتُ كلما سألني أحدهم أجيبه "أنا بخير" أو "في نعمة، الحمدلله" لكن بعدما تأقلمت معهم.. اعتدت على فكاهيتهم وصارت روحي لطيفة مثلهم.. أصبحت أجيب كل من يسألني "زول عامل ايه" التفت اليه بإبتسامة تلقائية واقول بتلك اللهجة التي أحببتها جدا "عامل بط مقلي" أو "عامل محشي بلبن" أو "عامل خط وماشي عليه" وأتبعها بضحكةِ مرحٍ ومزاح حتى صار لي الكثير من الأصدقاء، الناس هنا تحب من يبتسم ويضحك بإستمرار، هنا تتعرف على الناس بسرعةٍ.. لكن يصعب عليك نسيانهم، مثلكِ تماماً، كدت أنساكِ.. لكن ما إن شاهدتُ هذا الغروب، هذا المنظر الذي تعشقينه حد الجنون.. تذكرتكِ، وما أقسى ذالك من شعور.. أن تتوه في الأرض شهوراً لتنسى.. فتنسى كل شيءٍ لكن يعود كل ما نسيته في لحظةٍ واحدة، تذكرت جلساتنا معاً على "جزيرة توتي" و "مقرن النيلين" تذكرت محادثاتنا ونقاشاتنا معاً، تذكرت كل شيءٍ، تذكرت حديثنا معاً في مثل هذا اليوم عندما كنا نجلس معاً في الإتجاه الشرقي من مقهي "المقرن" تذكرت عندما سألتيني يومها:

_ما هي أمنيتك التي تريدها أن تتحقق.؟

أجبتكِ: أتمنى ان أصبح كاتبا بارعاً يقتل الشخصيات ويحييها، يكتب قصة حبٍ جميلةٍ يجعل الجميع يبتسمون، ويكتب قصة حزينة فيُبكيهم جميعا وما كانت رغبتي أن أصبح كاتبا لكني أجبتكِ فقط لتقتربي مني أكثر، وأنا قلت ذالك لأني أعرف أنكِ تحبين الكتابة والكتب والكتّاب، لكني لم أتخيل أبدا أن الكتابة ستنقلب هكذا ضدي.. تقتلني بإرادتها وتحييني، ما كنتُ أعلم من قبل أن الكتاب يعانون هكذا ألماً.

أجبتيني بسؤالٍ آخرٍ بدلال امرأةٍ خجولةٍ وبراءة نبرة طفولية تدعين الحزن مازحةً

_ألست أنا أمنيتك

ضحكتُ أنا.. وضحكتِ أنتِ.. وضحك النيل معنا، واستمرت الأمواج ببهجتها تبادلنا الضحك بطريقة هيستيريةٍ على طريقتك التي الهبت بداخلها تلك الغصة المتخفية من هرمونات السعادة، أجبتك في غموضٍ هازئاً وأنا ألفظ اواخر ترنيمات ضحكتي

_نعم، أنت لست أمنيتي.

وضعتِ يديك على خديك وجحظت بعيناكِ تمثلين الصدمة بطريقة كوميدية جعلتيني اغرق في نوبة ضحك هستيري مرةً أخرى، أنت تجيدين ذالك الفن.. فن الكوميديا تخرجين شخصا من بؤسه القاتم الى جنات سرور لا حزن بها، ثم قلتِ لي بنفس تلك البراءة الطفولية مازحةً عندما هممت أن أضيف لك كلمة

_هكذا هم الرجال، جميعهم كاذبون.. إلاگ

لم اكترث لكلماتك لأن ذهني كان مشغولا ولأنني ما زلت أضحك، فقلت لك بعدما سكبت لي ولك فنجان قهوة

_أنتِ حلمي ولست امنيتي

سألتيني: وما الفرق بين الحلم والأمنية؟

أجبتكِ: الحلم هو تحديد مصيريٌ مستقبليٌ إن تحقق تعش في نعيم وسعادةٍ تظن أن لا احد يملكها سواك، وان لم يتحقق... تتحطم وتقضي حياتك بائساً مملوءاً بالحزن والإكتآب

قاطعتيني: وماذا ان لم أتحقق لك

قلتها بصرامة وكأنك كنتِ على علمٍ بذالك، كأنك كنتِ تدري بأنك لن تدومي لي، رددتُ وقد سرت حمى الضيق في صدري وملامحي

_ارجوك لا تتحدثي هكذا

لاحظت انت ذالك.. فتظاهرتِ باللامبالاة وفوراً غيرت مجرى الحديث قائلة

_ما زلت لم اكتفي بتعريفك للحلم أضف المزيد

وكأنكِ سحبت كل تلك الحمى من داخلي، صرت لا اشعر بشيء سوى الحماس بارعةٌ انت في كل شيء، كم تمنيتك وحلمت بك ان تكوني اما لأبنائي..فلن يحزن منهم أحد.. لكن كان للقدر رأي آخر

قلت لك: الحلم هو ما نشقى لأجله..

قاطعتيني: وهل شقيت من اجلي.؟

كعادتكِ أنتِ، لا تستطيعين إخفاء ما بداخلك، تعودين طفلةً ولا تترددين في إخراج ما بداخلك أمام من أحببتيه، فأجبتك بصعوبةٍ

_نعم، كثيرا

رأيتِ أن ذالك الحوار سيتعمق كثيرا ان سرنا فيه بتلك الطريقة ولا متسع من الوقت لنا في ذالك الآن فغيرتِ مجرى الحديث بجملة ختامية أضفت فيها كل شيء، واختصرت فيها كل شيء، واغلقت فيها كل فرجة لما يقال، قلتِ:

_الحياة قصيرة جدا فلا يمكن للمرء أن يختصرها بقرار واحد، أو أن يجعلها أسيرة في قفص حلم واحد يعش سعيدا بتحقيقه ويحيا تعيسا إن أخفق في إنجازه، الحي..." قطعتِ حديثك وأمسكتِ بفنجان القهوة، نظرتِ إلي بغضبٍ مصطنعٍ وقلت لي منفعلة بحياءٍ

_لا تنظر لي هكذا والا سكبت في عينيك هذه القهوة

لم أفعل شيء أنا، فقط اكتفيتُ بالإبتسام، ثم عدلت جلستي وقلتُ لكِ بدعابةٍ: حاضر يا سيدي القاضي

ابتسمتِ لي أنتِ أيضاً، وكانت تلك لإبتسامة بألف حياة، لكن قد ضايقك ذالك المشهد عندما اتكأت على الطاولة بذراعيّ ووضعت كفيّ على خديَّ وظلت أتأملك حتى انفعلتِ في، وإني لأعشق ذالك الإنفعال وأحب تلك الحمرة التي تكسو خديك عند الغضب، ليس لأني أرتاح لغضبك.. ولكني أعشق أن أراك بتلك الطلة.. خجولةً محمرة الخدين، في هذه الصورة تبدين

وكأنكِ ملاكاً ولستِ من هذه الكرة الأرضية، بل لستِ بشريةً، أراكِ ملاكاً خلقتِ من نورٍ يتلألأ في بريق عينيكِ

ما زالت تلك الذكرياتِ عالقة في فؤادي، أنا لا أريد نسيانكِ.. لكنني هربت من تلك الديار فقط لأني لا أستطيع العيش فيها، هناك أموت في كل يوم أكثر من مرة، ولقد علمت الحكمة من رحيل والدكِ، فنحن دائما ما ندرك حقيقة الأشياء في وقت متأخر، فهو رحل ليس لأنه يرغب في نسيانك.. لا.. بل لأنه يريد الهروب من تلك الذئاب البشرية، رحل من البلاد لأنه لن يستطيع رؤية قاتلي إبنته يمرون أمامه كل يومٍ، ورحل من البيت لأنك فيه بكل تفاصيله وفي كل ناحية وطوبةٍ وذرة تُربةٍ "أنتِ فيها" هو رحل لأن في الرحيل تزداد الذكريات، وأنا رحلت لإعتقادي أن في الرحيل تُمحى الذكريات، لذالك ربما سأعود يوماً ما، وأنا أكتب لكِ فقط لأتذكرك إن حدث في يوم ما وفقدت ذاكرتي، لا أريد أن أنسى ملامحك، غداً سأسافر إلى منطقة تبعد حوالي "نصف ساعة" تُدعى "النهضة" أخبرني "عم إسلام" أن فيها الكثير من السودانيين وأن لديه الكثير من الأصدقاء هناك، فلقد مللت من الفندق واشتقت للسودان.. لكني لا أريد العودة إليه، لذالك سأذهب إلى هناك أقضي ما تبقى من وجودي هنا فيها..إلى اللقاء.

الفصل الثالث
الشتاء فصل الذكريات

"يقولون أن كوبيد إله الحب عندما أراد أن
يسكن إحدى مدن الشرق.. إختار
الإسكندرية موطنا له."

سان ستيفانو/الإسكندرية

نخوض عراكات كثيرة في الحياة لنبحث عن شيءٍ مجهول ليس لنا، وهناك من يبحث عنا ولسنا له، وبغتة يجمعنا القدر في انيابه لنلتقي معاً في ثوب جديد، كثيرون من يشبهوننا في سماتنا لكن القليل من يطابقنا الروح.. لأنها شيئاً آخر، لأنها الواقع والكثير من البشر يجافون الحقيقة، ولأن الروح شيءٌ ذاتي فلابد من أنها تحتفظ بالكثير من الأسرار في ذاتها، وللذاكرة في الروح شطرٌ، ان كنت تمتلك روحاً نقيةً.. فأنت أسعد الناس، وإن كنت تمتلك ذاكرة قويةً.. فأنت أسعدهم وأشقاهم، وإن كنت تحب الشتاء فأنت أكثرهم سعادة وشقاءً، وإن كنت ذو روحٍ نقية وذاكرةٍ قوية ومغرم بالشتاء ولك فيه ذكريات.. فأنت أتعسهم حظاً ولن ترى فيه السرور أبداً، ولكن لأنك أحببته فلن تستغنى عنه مهما حدث، بالإضافة إلى ما لك فيه، هكذا نحن البشر، إذا أحببنا شيئاً يصيبنا عنه العمى وتارة إن أحببنا شيئاً بإدمانٍ مثلا... "إن وجدنا شخصاً يحب أغنيتنا المفضلة أو يرتشف مشروبنا المفضل أو يعشق لوننا المثالي" فإننا نعشق حتى من يحبه ونقع في غرامه دونما نشعر أو ندري لأيّ مدىً سنهوَى، أو أننا نسقط أم سنعبر، لا نبتغي أبدا فراقه ولا نفكر أن نراه بطريقة أخرى، أو نبحث بصمت عن سلبياته التي طالما نتجاهلها كثيراً، كلما نحتاجه هو أن لا نفترق حتى ولو حلماً، وجل ما يشغل تفكيرنا هو أن يأتي الليلُ فقط لنتحدث، أو أن يشرق الفجرُ لنسمع من ثغره "صباح الخير" أو نتلقى رسالة اطمئنانٍ منه "كيف أصبحت" ندمنه بعشقٍ عميق لا تعريف له ووَلهٍ لا غاية له ونسري في دربه "دونما أمَلُ"، يبادلنا الشعور.. ثم بغتةً يرحل ويتركنا للهيب الذكريات يعبث بنا كالرمادِ عندما تداعبه أعاصير الرياح، حيث نحيا بعده بلا روح في حياةٍ أصبحت لا تبدي سوى الأسواء، ننسى ذالك الشيء الذي أحببناه من أجله ولا

نفكر إلا به، ننشغل بالأماكن الذي كان يذهب لها وأغانيه المفضلة التي لا يمل منها ونحتفظ بأقل الأشياء التي أهداها لنا، أو أتفه الأشياء التي تركها خلفه.. ولكن هيهات. نعاني كثيراً عندما نفتقد شخصاً كان أقرب لنا حتى من أنفسنا وتسحقنا ذكرياته حتى نمسي هباءً وتقاطعنا حواس الشعور، لكن ما بالك إن كانت تلك الذكريات تتعلق بالشتاء.؟!

فبالطبع سيكون الجواب أننا لن نستطع مقاومتها، لأنه عندما يهتاج الحنين في ذاكرة العشوق وتستعد الذكريات لتناولها وجبةً دسمةً من قلبه.. لن يتمكن حتى من ترتيب أنفاسه أو تنسيق نبضاته بإنتظام، لأنه عندما يتعلق الماضي بالشتاء.. يصبح فوضويٌّ جداً وسفاحاً للغاية، يمكننا التأقلم معه أحيانا بحيث أن نجعلهُ أمراً عاديا لا يلهمنا كثيرا، لكن حينما يمر قاربنا بغتة بمحيط ذكرياتنا المفترسة التي عُلقت في صقيعه.. حينها نغرق غصباً عنا في قاعها عندما تلطمنا أمواجها الجائشة.

في منتصف الليل من منتصف شهر يناير كان يوما شديد البرودة والصقيع، اتى بجيتاره الغربي وجلس في الرمال على حافة البحر يعزف من عمقه بصوتٍ هادئٍ ويدندن ببعض الحانٍ تحمل الكثير من خبايا ذكرياته، انتبهت له من بعيد عندما راته يُحرّكُ يديهِ في تلك الآلة التي تحبها أكثر من موسيقاها، عجبتها طريقته في الغناء فتسلقت المجيء إليه ببطئٍ حتى اقتربتْ منه كثيراً دون أن يشعر، وقفت خلفه، أصغت له بصمتٍ وهدوءٍ، سمعته يردد بصوته العذب أواخر كلمات تلك الأغنية "كل الخير" فاسترخت بهدوء دون ارادتها وكأنما شيئاً ما في ذالك الجيتار قد شدها إلى الجلوس بقربه، جلست بدلالٍ في الرمل بجانبه، اثنت ساقيها تحت فخذيها ووضعت كفيها على وجنتيْها المتوردتان، مدت رقبتها بطفوليةٍ نحوه وهي تتأمله مبتسمة بإعجابٍ ودهشةٍ، أنصتت إليه بدقّةٍ وهو يكرر مراراً

"عشان تفضل ملامحك فيا.. زي ما كنتِ في الاول"

رغم أن تلك الأغنية غريبة عنها كثيرا إلا أنها قد نالت إعجابها، وبالمقابل قد كوت الدهشة ملامحها، كانت تظنه فرنسيا أو برازيليا من سمرته وقبعته الداكنة التي وضعها في الرمل أمامه وآلة الجيتار التي يعزف بها، فالعرب عُرفوا بآلة "العود" منذ القدم، لكنها تفاجأت بفصاحة لسانه العربي وترنيمة صوته وحنينه الذي يشبه صفاء روحه وصدق مشاعره التي مزجها مع براعة تلك الأغنية التي راقت لها كثيرا فأمست تكرر معه دون شعورٍ حتى فوجئ هو وتحسس أن شيئاً ما يخالج صوته، توقف لبُرهة ليتأكد أهُناك ببغاءٌ تقلده أم هو صوته فقط لا غير، لكنه تفاجأ وارتبك بشدة عندما رأى امرأة شقراء جميلةً تجلس بجانبه وتردد معه، من أين جاءت؟ على الأقل أنه لم يتعرف على شخص هنا، وما الذي أتى بها إلى الشاطئ في هذا الوقت المتأخر من الليل؟ ولماذا ترتدي هذا الفستان القصير؟ ألم تشعر بالبرد؟ لابد أنها ليست مصريةً وأنها كانت تتجسسه، الكثير من الأسئلة كانت تراوده، أصبح يتأملها بشرودٍ ظناً بأنها ربما قد تكن خيالا أو سرابا يتخيله، وضع كفه فوق يدها التي على خدها.. تحسسها ليتأكد إن كانت حقيقة أو من صنع خياله، لكنها بادرت بالإجابة عن أسئلته تلك قبل نطقها

_لا تخف، أنا لست جنيةً أو سراب، أنا امرأة حقيقية

قال لها متسائلا: إذن لماذا تطوفين في الخارج في مثل هذا الوقت المتأخر؟

فأجابته: مثلما تفعل أنت

قال لها مستنكرا: أنا لا أطوف، أنا جالس هنا منذ العاشرة مساءً

قالت له بمكر ودهاء: أنا أيضا ما كنت أجول عبثا، فقط كنت أتمشى قليلا لأني لم أتمكن من النوم، رأيتك من هناك بهذه الآلة ولطالما كان الجيتار هو عشقي الوحيد من الآلات الموسيقيةِ.. فساقني الفضول إلى رؤياك، ثم اضطرتني أغنيتك الجميلة هذه للجلوس بقربك والإستماع إليك والغناء معك

هز رأسه متفهماً فقالت له: وأنت.. ما الذي أخرجك في هذا الليل وفي مثل هذا الشتاء القارص؟

ابتسم وقال لها مستاءً بسخرية:

_لم أعتد الحديث مع النساء في أموري الخاصة

ردت ساخرةً هي أيضا:

_لكن لابد أن الذي جعلك تجلس من العاشرة وحتى هذا الوقت هنا.. هي أنثى.. أليس كذالك؟

ثم فردت ذراعيها بلذة المنتصر وهزت رأسها بنظرةٍ محققة مصحوبة بإبتسامةٍ عبثية، بادلها النظر هو أيضا في حيرة وذهول مستغربا من ردها القاطع، هل توحي ملامحه بذالك؟ أم أنها خمنت ذالك من مقولة "خُلق الليل للعشاق"؟ كيف عرفت هذه الفتاة اللعينة ما أخفاه بداخله؟ لابد أنها جنية أو عرافة، فقالت له مقاطعة تساؤلاته

_لا تقلق.. أنا لست ساحرة، لكن يظهر كل ذالك في ملامحك.. الحب.. الحب يفضح كل شيء

قال لها: نعم.. الحب، لقد أحببت إحداهن لكني فقدتها بسرعة

ثم أضاف بتلعثم وكأنه لا يريد كشف الستار عن بقية قصته

_وداعاً، سأذهب إلى النوم لقد أصابني النعاس

_حسنا، ليلة سعيدة

عاد مالك إلى شقته في الدور الثالث من فندق "فور سيزونز" لم يكن النعاس قد سيطر عليه مثلما قال، لكنه أراد أن يتهرب منها ومن أسئلتها التي ربما ستعود به إلى ذالك الماضي البعيد ولن يتمكن من العودة لحاضره مرةً أخرى، فعل كل شيء لينام لكنه لم يستطع، تجاوز كل الممكنات ليتخطى قوافل الذكريات التي تعود به إلى الماضي لكنه لم يتمكن من السيطرة على فؤاده الممسوس بالحب، مؤسفٌ جداً.. أن تهرب من شيءٍ فتجد أن كل الطرق تؤدي إليه، أخيرا جلس على مكتبته الصغيرة ليقرأ، أخذ واحدا من الكتب

التي قرأها من قبل، فتحه من المنتصف وظل يقرأ ويقرأ ويقرأ حتى غدا في الذكريات

"في يومٍ ما كانا جالسيْن معاً في المكتبة قررا أن يتآنسا قليلا بعد أن يئسا من القراءة، فقال لها:آنسيني

قالت له: أحكي

قال لها: إبدأي أنتِ

قالت: ليس لدي ما أقوله

قال: حسنا.. سنلعب لعبة جميلة، أنا أطرح سؤالا.. وأنتِ جاوبيني عنه وكذالك أنتِ ..اتفقنا.؟

قالت:اتفقنا

قال لها: ما هو أكثر شيءٍ تحبينه

_النوم

ردت فوراً بلا تردد ولا تفكير، واتبعتها بضحكة سخرية جعلته يسقط من الضحك، كوميديةٌ هي.. وهو يعشق تلك الخِفّة فيها، فقال لها وهو يكح من فرط الضحك

_هزليةٌ جداً أنتِ، كوني جديةً قليلا

ردت له بإبتسامةٍ وهي تغرق عيناها في عينيه بعدما اعتدلت في مقعدها قائلةً

_الثقة.. أحب الثقة.. وأنت

قالتها بجديةٍ وعفويةٍ معاً، تملكه الذهول وانتابته الحيرةٍ المهلكة، تعجب عندما قالت له "احب الثقة" تساءل في نفسه مرتبكاً "كيف يمكن لشخصٍ أن يُحب الثقة.؟ الثقة شيءٌ نادرٌ وحساسٌ للغاية لا يوجد لدى أي شخص.. أمرٌ غريب، يمكنك أن تفعل أي شيءٍ وترضى بنتائجه السلبية.. إلا الثقة" فقال لها

_لا، يجب أن لا تحبيها

ردت: لماذا
قال: لأنكِ ستُخذلين كثير إن أحببتِها
جحظت بعينيها كالطفلة وفي حيرةٍ قالت: كيف
كعادتها.. برفقته تصبح طفلةً، ابتسم لتلقائيتها وقال:
_عندما يحب أحدنا شيئاً يشاركه مع الآخرين، وليس كل الناس تجيد الإئتمان
أطالت النظر فيه حدقت في وجهه بطريقة مضحكةٍ ثم قالت بدعابة:
_هل تصدق؟ لأول مرةٍ أتلقى منك شيئاً مفيداً؟.. سأهديكَ شيئاً من أجل هذه المعلومة، خذ.. فنجان قهوة
ضحك بعفويةٍ، وضعت الفنجان أمامه ثم قالت:
_ماذا تشعر عندما أتحدث معك؟
ارتشف جرعةً، ثم ضحك بصوت منخفض ساخراً وهمّ بالإجابة، لكنها علمت بأنه يريد إستفزازها فأشارت إليه بسبابتها مبتسمة وهي تحذره
_أنا أسألك بجدية، لا تمزح
_حسنا لنكن واقعيين أكثر (أخذ رشفة من فنجانه وأضاف) عندما أتحدث معك أشعر بالبهجة تعم زوايا فؤادي، أشعر بحماس وإحساسٍ.. إحساسٌ لا أدري كيف أوصفه، كل ما أعرفه هو أنني أكون في منتهى السعادة
ابتسمت بلطفٍ، نظرت إليه بودٍ، وقالت له بصوتٍ لينٍ قريب من الهمس: شكراً لشعورك الرائع
ارتشفت جرعة من قهوتها ثم قالت له: ما هو لونك المفضل
_الأزرق
_.....
"_مالك، أنت لا يجب أن تحيا، أنت لا لون يشبهك سوى الأسود، ولا شيء يليق بك سوى الموت

_هههه.. تبا لك أيها الملعون، أنا أعشق كل الألوان عدا الأسود، وأنا خلقت لأموت.. ماذا بعد؟

_إذن خذ هذا الشراب.. تناوله ستلحق بمحبوبتك في بضع دقائق

_هاته..... هاه.. تناولته، ماذا بعد؟..... آآآه.. قلبي.. قلبي.. قلبي يؤلمني، االه

_هههه... مت أيها الأحمق، فالجحيم أرحم لك من هذه الحياة البائسة.. إلى الجحيم أيها المعتوه.. هههها

_.....

_ماذا، ما الذي يحدث؟ هل أنا شربت ذالك السم؟ هل أنا مت حقاً؟ وإن كنت مت.. فلماذا أتواجد هنا؟ ما الذه أفعله هنا؟ هل كل الذين يموتون يأتون إلى هنا؟ يأتون إلى السودان بدلا من الجحيم؟ هل كل هؤلاء المتواجدين هنا من الشياطين والأشقياء من البشر؟ ما الذي يحدث بحق الجحيم؟ هل هذا هو الجحيم فعلا؟ لقد سمعت.. سمعت ذالك الذي سقاني السم كان يتحدث عن الجحيم، هل هذا هو الجحيم حقاً؟ هل كل الذين يريد الله معاقبتهم يأتي بهم إلى هنا.. إلى السودان؟ لا هذا هو السودان، لا.. بل أنا في الآخرة.. لقد مت.. مت أنا.. شربت ذالك ال....، لا.. مهلا مهلا، أنا لست في الجحيم، أنا في السودان، لكن قد تحول السودان إلى جحيم، مهلا.... ذاك هو صديقي "مبارك" سأذهب إليه ربما يسعفني بإجابة، مبارك

_أووووه.. مالك، كيف حالك يا صديقي، حمداً لله على السلامة، هيا تعال معي

_"حمداً لله على السلامة؟!" أتمزح يا رجل؟ أين نحن يا مبارك

_هههه.. أين نحن؟.. سؤالٌ فلسفي جداً، نحن في ام درمان يا عزيزي

_تعني... ألسنا في الجحيم؟

_هههه... تبا لك، يبدوا أنك جائعا ربما، هيا بنا إلى المطعم لنتناول وجبة ثم نتحدث.

نحن هنا في المقهى، بعدما تناولنا وجبة الإفطار أنا وصديقي في مطعم الحاجة "زينب" التي تبدع ببراعةٍ في صُنع "العصيدة" وطبخ "النعيمية" و "التقلية" بجدارةٍ جعلتْ جميع عمال السوق، التجار وموظفي المنظمات الحكومية والبنوك يأتون إليها في مطعمها المتواضع الصغير ليتناولون الوجبات الشعبية عندها، جئنا إلى هنا بعد تناول وجبتنا لنرتشف مشروباتنا المعتادة بعد الأكل، هذا المقهى السوداني الحقير أو الحانة السودانية إن صح التعبير، لأن كل شيء فوضوي هنا، كأننا في نادٍ ليلي سريٍّ للرقص وتناول الخمر "والعياذ بالله" الإنسان القذر حتى وإن ذهب إلى الجنة.. يظل على نجاسته، حتى الموسيقي هنا تسير على مزاج أحدهم يظن أنه المسيطر على هذا المكان بينما يروه الآخرون على أنه"كيشة" يتناولون "النكات" عليه ويضحكون على هيئته، هل رأيت يوماً أن أحداً يرتشف القهوة ويستمع إلى أغاني شعبية.؟ أو أغاني "القونات" كما يطلقون عليها هنا في بلادي.؟!

وعندما يقول لك أحدهم أن هذه المغنية "قونة".. يعني أنها مغنية بلا معنى، كانت في الأصل عاهرةٌ أو داعرةٌ نبذها أهلها فلجأت إلى الغناء أو بالأحرى "الوباء الجنسي السمعي" تقبض"المايك" تذكر بيتا أو بيتين من قصيدة بلغة الشوارع كتبها أحد شعراء "المايقوما" كلها جُملٌ تافهةٌ وألفاظٌ بذيئة، ثم تبدأ بذكر أسماء جميع السافلين من الحضور، وبعدها تطرق لأي إسم يطل على خاطرها وبعدما تُفرغ ذاكرتها من أسماء جميع ساكني الكرة الأرضية من البشر والجماد والحيوانات.. تضع "المايك" جانباً وتستعد للعرض الذي ينتظره جميع المراهقين والتعساء من الصغار وحتى الشيوخ، العرض عبارة عن رقصٍ إباحيٍّ بالمؤخرة والنهديْنِ ورجفةٌ جميع الجسد مع الموسيقي الجنسية، تستمر هكذا لمدة أطولها نصف ساعة.. ثم تترك المساحة للعازف ليختتم بقية السهرة، وهكذا تكون قد جَنت آلاف الجنيهات غير "النقطة" التي تُنثر عليها أثناء الحفل والتي تعادل ضعف سعر السهرة، لا أدري من أين ظهرت هذه المخلوقات الغريبة من البشر ولا أدري بأي

طريقة قبلت "نقابة الفنانين" بعضويتهم فيها، قد شوهت صورة الفن والغناء بأكمله، ولا أدري كيف تقبلهم الناس وبغتةً صارت لهم شعبية وأتباع، الجميع يشكون منهم، والكل يدافع عنهم، وهكذا هم بنو وطني.. يقدسون الإنحراف دائما، يخسرون مصروفاتهم في الخساسة والتفاهات، يعظمون الفساد.. ثم يشكون من الغلاء وتدهور اقتصاد البلاد.. تباً لحماقتهم

وهذا ما يسمعونه هنا هؤلاء المتخلفين بصوتٍ أعلى يكاد يصم الأذان.؟ لا أدري.. لكني لو كنت أعرف ما كنت سآتي إلى هنا وما أتيت إلا مجاملةً لإصرار صديقي الذي يحاول أقناعي أن للقهوة هنا مذاق يختلف عن بقية المقاهي.. أحمقٌ هو، القهوة لا إختلاف لها، التي تختلف فقط هي طريقة صناعتها ومميزاتها التي تختلف من بلدٍ إلى أخرى، أما للمزاج.. فالقهوة هي القهوة.

استأذنت بلطفٍ وخفضت الصوت.. لكن ليتني ما فعلت، فهؤلاء البشر يرون أن من يطلب الإذن هو أضعف من أن يفعل شيئاً برغبته، أتى أحدهم وبغرور.. علّىّ صوت الأغنية، لم أتحدث معه.. فقط رمقته من بعيد..

حفظت ملامحه ثم تجاهلته وأعدت النظر إلى هاتفي، جاءت النادلة

_تشربون شيئاً.؟

مهلا.. ما الذي يحدث، هذه النادلة أشعر أنني أعرفها، أين رأيتها؟ يا رباه ساعدني. تهت في ملامحها أبحث فيها عن امرأة رأيتها قبل هذا لكن أين..؟ لا أدري، أيقظني من شرودي ضحكة صديقي الوغد الذي اعتقد بأني أُغرمت بها، فوقفت بجانبي وهي تعزف بإبتسامتها لحناً مثيرا على ثغرها وتقول بصوتها المغري

_ تشرب شيئاً أيها الوسيم؟

انتبهتُ لكل حركاتها التي تريد أن تلعثمني بها لتوقع بي وتثبت نوايا صديقي التافه.. لكني أجبتها بتلقائيةٍ وبلا مبالاة

_حِلبة

إستغرب صديقي وهو يتساءل عن سر طلبي ولماذا رفضتُ تناول القهوة، رفضتها لأن هيئة هذه النادلة توحي لي بأنها فتاةُ ليلٍ عاهرةٌ لا تصلح سوى للرقص وسكب النبيذ وقضاءُ ليالٍ ساخنة، أتت لنا بما طلبناه لكني ما زلت لم أحصل على إجابة لسؤالي مع تصادم أفكاري ناهيك عن صوت تلك الموسيقي الصاخبة التي تكاد تشق صدري، لأني أبغضها منذ أن كنت هناك، فما بالك بعد أن هجرت تلك الديار بأكملها وأتيت إلى الجحيم؟.. حتى في الجحيم لا يريحونك.. تبا للبشر، عدت بعقلي عندما تأملتها وهي تختلس النظر إلي وقد احمر وجهها خوفاً وتجمدت ملامحها، لا أدري لكن ربما قد شكّت في معرفتي لها، انزعجتُ من نفسي وقلت في داخلي "ما الذي أصابك أيها الأحمق؟ هل تستنزف كل هذه القوى العقلية من أجل نادلةٍ شبهتها فقط.؟" أخذتُ رشفة من فنجاني.. لم يعجبني الطعم فاستأذنتُ أصدقائي، شعرت بالضيق والقلق وأنا أخرج، فإننا غالبا ما نأتي المقاهي لنعدل مزاجنا ونتحرر من بؤسنا لكنه أمرٌ غريب أن تزداد تعسا وأنت في المقهى بسبب عاهرة لا تعرفها، تبا للعاهرات بجميع مسميات القذارة؛... اه ما الذي يحدث؟ أشعر أن أحداً يضربني في رأسي، اه اه، هناك أحدا يضع الخنجر في بطني عدة مرات.. ساعدوني، اه، اه اه"

هااه، هااه هااه

بتنهيداتٍ عالية متواصلة أفاق مالك من نومه مهلوعاً خائفا جرس شقته يدق بإستمرارٍ، تأمل ساعة الحائط بكسلٍ.. فوجدها العاشرة إلا الثلث صباحاً، نهض من مقعده بهلعٍ وهرع ناحية الباب.. فتحه ليجد أمامه "هيلجا" تلك الخادمة الفلبينية التي تعمل في ذات الفندق، والتي تآنس وحدته أحيانا لأنه وحده من يتقن في هذا الفندق لغة "الملايو" التي تتحدث بها فتأتي إليه كلما اشتاقت للتحدث بها، تطالع معه الكتب.. تستعيرها منه أحياناً، وأحياناً تستبدل معه الروايات لأنها لا تملك إلا بعض الروايات القليلة لكاتبها المفضل"فرانسيسكو خوسيه" تقاسمه جل آلامه ويشاركها أعتى

خيوط ماضيه من الذكريات، وحدها من أخبرها بكامل قصته دون تجزئة ولا إخفاء، ووحده من يصغي لكامل حكاياها الحزينة دون ملل، فالحزانى متشابهون أيضاً.

ذُهلت من حاله لما رأته فقد كان في حال يرثى لها، قالت له بعربيتها الركيكة مصحوبةٌ بإبتسامةٍ مزيفة لا تفارقها مثل التي يستقبل بها الأطباء مرضاهم

_سيد مالك.. هل أنت بخير؟ هل ما زلت نائما؟ أنا أضغط على الجرس منذ عشرة دقائق حتى ظننت أنه قد تعطل، لقد اقترب ميعاد الفطور إنهم ينتظرونك في صالة الإفطار جهز نفسك واذهب إليهم

_مرحبا هيلجا، نعم، كنت مرهقا بالأمس قليلا، حسنا سأذهب إليهم

_حسنا، وداعا

تباً، من قال أن المال يجلب السعادة؟ ها هو في أجمل وأفضل الفنادق، شقة واسعة، شرفة تطل على البحر يرى منها أجمل المناظر، سرير مهيئٌ بإنتظام، لكن ومع ذالك.. ينام جالساً على مقعده وتنهكه الكوابيس والذكريات، السعادة لا يجلبها المال يا سادة.. فقط الحب والراحة النفسية تكمن فيهما كل السعادة.

ذهب إلى صالة الإستراحة لتناول الإفطار، كانت الطاولةطويلةٌ يجلس عليها أحد عشر فرداً جميعهم أجانب، ثلاثة رجالٍ وطفلين وستُّ إمرأةً من ضمنهم تلك التي قابلها البارحة في منتصف الليل، ألقى عليهم التحية وانضم إليهم بدأوا بتناول الطعام، الجميع كانوا يتحدثون.. إلا هو كان يجلس صامتا ويأكل بيديه بالطريقة التقليدية بعيدا عن "المعلقة والشوكة والسكينة" سأله أحدهم مستفزاً إياه بإستغرابٍ

_لماذا لا تأكل "بالشوكة والسكينة"

فرد يديه نحوه وأجابه مبتسماً بسخريةٍ: لأن يداي نظيفتان

ضحك الجميع فشعر ذالك الرجل بالإحراج.. فقام غاضبا وترك الافطار، وبعدها عمت الصالة السكون وسيطر حاجز الصمت على الطاولة حتى قالت إحداهن وأرادت كسر ذالك الحاجز

_مانويل كان مخطئاً

_فأجابتها واحدة أخرى: معكِ حق

ثم أردفت مبتسمةً بدعابة موجهة سؤالها إلى "مالك" الذي ما زال صامتا

_لماذا لا تشاركنا الحديث؟ هل تخشى محادثة الغرباء؟

ضحك الجميع.. فابتسم هو وقال متنكرا

_لا، أنا غالبا أفكر في العمل

_وما طبيعة عملك؟

_الإرهاق.. الإرهاق طبيعة عملي

قالها بسخرية وكأنه يمزح.. فأضحكهم جميعا وامتد الأنس حتى الظهيرة آنسوه.. وإقترح إليه البعض أن يذهب إلى لندن حيث الأجواء الجميلة والطقس اللطيف، وأخبره البعض أن موسكو جميلة وتزيل الكآبة عنه في مدة أقصر، والكثير من الإقتراحات لكنه تجاهل كل ذالك، فقد قالوا له نفس هذه الجمل قبل أن يأتي إلى هنا، أصبح لا يبالي لكنه تعجب من رد تلك الفتاة عندما قالت له:

_من أجل حبك للبحر والموسيقي.. فإني أرى سنغافورة أو لندن هو المكان الأمثل لك، فأولئك البشر خلقوا لهذه المهمات

قال بلا مبالاة: حسنا، لنكمل حديثنا في العشاء سأذهب الآن لآخذ قسطاً من الراحة

عند خروجه التقى بهيلجا فهمس لها:

_لا تناديني لتناول وجبة مرة أخرى. حركت رأسها بالإيجاب متخفية بإبتسامتها الماكرة.. وذهبت

غفى الناس وسكن الضجيج وعادت الإسكندرية لرونقها، عروس البحر الفاتنة هادئة بفروهتها، في قلب الليل المكتظ بالأسرار ساهرةً هي بنصف جفنيها مبتسمةً للعشاق وأولي الماضي الحزين، تسترق النور لتضيء لهم تلك العتمة الدهماء ببيارق ضوء أنوارها التي تتلاشى بخفوتٍ كالشموع، فتشعل في داخل المحبين والعشاق السعادة والحبور، وتذكّر الحزانى بالدموع والأنين، عروس البحر وحدها هي العالمة بأسرار كل من حولها بعد البحر لكنها لا تتحدث لأحد.. لذالك يعشقها الجميع، هدأ الكون، لا شيء سوى صوت الأمواج التي تتآنس في دَعَةٍ وعقارب الساعة التي تشير إلى الثانية منتصف الليل، ارتدى معطفه، قبعته، حمل جيتاره، حافظته الحرارية، خرج من شقته، توجه ناحية البحر، جلس في إحدى المقاعد مقبلا على تلك الأمواج الساكنة، أخرج جيتاره وظل يردد أغنيته المقدسة تلك .

كل شيء في الشتاء مختلف، صداقة الشتاء، ذكريات الشتاء، حب الشتاء، جلسات الشتاء، نار الشتاء، شروق الشتاء، ملابس الشتاء، قهوة الشتاء، وحتى الأغاني التي نصغي إليها في الشتاء لها ترنيماتٌ لطيفةٌ تميزها عن أغنيات تلك الفصول، فالشتاء ليس برودة فقط أو صقيع، الشتاء ليس موسما فقط او فصلا يبتدي العام به، الشتاء عالمٌ اخر، للشتاء لذة لا يعرفها الا من عاش فيه أياما خالدة، إن الذين يخلدون ذكرياتهم في الشتاء.. على رصيف الإنتظار.. في الأماكن الهادئة.. في الأغاني.. أو على محطات القطار.. هم أكثر الناس ألما

وضع الجيتار جانبا، ارتشف من قهوته قليلا ثم تأمل البحر ملياً، إتكأ على المقعد وابتدأ في تناول جرعته من الذكريات.. ذكريات منتصف الليل.

(_لندن ليست رائعة يا عزيزي كما يدعون، هي جميلة.. نعم؛ لكن فقط لأصحابها، أما الغريب فيها.. فهو غريب

_دعيني من لعنة الوطنية هذه التي أصبتِ بها وحدثيني عن جمال لندن وما بها من عوالم

تنهدتْ بيأس مستسلمة لإرادته، فمهما حاولت لن تستطع إقناعه بأن لندن ليست رائعة، وهذا ما يعيدنا إلى نقطة الصفر بعد خواتيم الإنتصار، ت"جاهل الإستماع لنصائح المجربين." قالت له:

_لندن جميلة وأكثر من رائعة لمن لا يمتلك وطناً.)

أوقفته هذه العبارة، ظل يردد في نفسه بصوت مسموع وهو يتأمل السماء كأنه يحدثها قائلا:

_حسناً لميس، قد كان لي وطناً حينها لكن الآن.. الآن صرت منبوذاً.. لاجئاً بلا وطن، كنتُ سأتخذ لندن مستقري لكني لست بحاجةٍ إلى وطن، فالأوطان تسرق المقربين إلى قلبي دائماً.. لا أحتاجُ وطناً.

قطع همسه وجها ظهر من أعلى وهو يقول

_ بإمكانك ان تتخذها موطنا، ما زلت على قيد الحياة فبإمكانك أن تنسى وتتحدى كل الصعاب

اعتدل في جلسته، التفت ليرى تلك الفتاة تقف خلفه وتنظر له من أعلى مبتسمةً بغرور أنثى، نظر إليها مستغربا ومنزعجاً في آن واحد، إقتربت وجلست بجانبه، أمسكت بحافظته وقالت:

_هل يمكنني أن أرتشف جرعةً؟

حينها تذكر لميس، تذكر عندما كانت تأتي أحياناً متأخرةً قليلا عن الميعاد فتضع حقيبتها في المنضدة وترتشف من حافظته دون استئذان مدعية الضيق والقلق؛ ابتسم بتلقائية لشروده السريع في الماضي وتلك الأيام الجميلة وقال لها:

_إن كنتِ تضعين أحمر الشفاه.. فلا يمكن

ابتسمت له وقالتْ بتعالٍ:

_لا أستعمل مساحق التجميل.

أخذت جرعةً ابتلعتها بصعوبةٍ، أغمضت عينيها، فتحتهما، زوت ما بين حاجبيها بإمتعاضٍ، ثم مسحت فمها وهي تقول

_يا إلهي، إنها شديدة المرارة.. كيف تشربها
_أحبها هكذا،_ثم قال مستفسرا_ أنتِ لماذا تكونين كل يوم بالخارج لهذا الوقت، هل تراقبينني؟
أجابته:لا، فقط لأني ليس لدي ما أفعله فيسوقني الفضول أحيانا إلى التجول بجانب البحر، ظلت أتأملك أول الأمس من خلف نافذتي عندما كنت تجلس هنا، وأتيتُ إليك البارحة فذهبتَ وتركتني.. واليوم أخشى ذالك، لكن لطالما أخبرني والدي أن أكثر الناس بُؤساً.. هم أولئك الذين يقدسون الوحدة والظلام، وأن مصابي "النيكتوفيليا" أصدقاء الليل هم أكثر الناس عناءً من قسوة الحياة وظلم القدر، ولطالما عرفت ذالك من أحاديثك لنفسك وأغانيك، الآن أريد فقط معرفة "من أنت؟ "
_لستُ أيا منهم، لكن بما أنِك ما زلت مصرةً على معرفتي.. فأنا أُدعى "مالك" وأرغب بتغيير إسمي لأني ما امتلكت شيئاً مما ملكت.. وأنتِ؟
_أنا لورين، فرنسية الأصل ولدت بلندن، آتي إلى هنا كل عام لقضاء العطلة السنوية مع والديّ
لندن؟ علق الإسم بعقله هل يمكن أن تكون من لندن، هل سمعت كل الذي كان يقوله مع نفسه عنها؟ طرد تلك الأفكار وقال لها بعد صمت قصير حلق على إثره في زوايا التدبر الغابرة
_تشرفت بكِ
_الشرف لي، هناك سؤالٌ يَلحّ علي كثيرا، لماذا أنت تبدوا غريبا هكذا؟
بنصف ابتسامةٍ: يمكنني شرح ذالك، لكن الوقت لا يسمح، يجب أن أنام لأفيق مبكراً، يمكننا إكمال الحديث غداً
ثم نهض من مكانه أمسك الجيتار والحافظة وهمّ بالمغادرة فقالت له
_حسنا، ليلة سعيدة _اتجه مغادراً فقالت له_ مهلا مهلا، هل يمكنك أن تترك هذا الجيتار معي حتى الصباح؟(إبتسمت واردفت ممازحةً) لا تقلق، سأعيده لك.

ابتسم مالك بتلقائية وقال
_لا بأس، دعيه عندكِ،(ثم أمسك بالحافظة الحرارية وقال) لا أظن أنكِ تحتاجينها
قالت بمكرٍ ودلال طفلة
_بل أحتاجها، يجب أن أشرب لأجل السهر.. هاتها
ابتسم لها مرة أخرى بتلقائيته ثم مدها إياها وقال
_تصبحين على خيرٍ. ثم غادر
عاد الى شقته وهو يعلم بأنه لن يأته النوم، لذالك جلس في مكتبته، فتح كتابا من المنتصف كعادته وظل يقرأ بمزيج من الخيال والذكريات
"أظن أن على المرء ألا يتحدث كثيرا عن المخلصين"
قطعت شروده تلك الجملة في الكتاب الذي كان يقرأه، أوقفت من على فؤاده نبض الذكريات، فقد كان يقرأ بعقل الماضي، يقرأ ليهرب.. فتقوده السطور إلى ما يتهرب منه؛ توقف عن القراءة وعن الذكريات قلب الكتاب ليرى اسمه، فوجده (رسائل إلى ميلينا.. فرانز كافكا) فتح الكتاب مرة أخرى، ظل يتأمل تلك الجملة يكررها بداخله مرتين.. ثلاثة.. وكأنه يقرأها للمرة الأولى.. يا للعجب، إن أولئك الأدباء لهم طريقة مختلفة في الكتابة، عندما تجلب لأحدهم كتابا.. تقرأه مرة وإثنتين وأربعة و.. و.. ولكن في كل مرةٍ تشعر وكأنك تقرأه للمرة الأولى، لهم اسلوب ساحر في الإبداع الأدبي.
وضع الكتاب على المنضدة، نهض من مكانه، توجه ناحية الشرفة المقبلة على البحر وكانت الساعة تسير نحو الثالثة فجراً وما ان كشف الستار عنها.. حتى رأى تلك الفتاة جالسة على إحدى المقاعد متجهة نحو الأمواج الهادئة التي تصغي لها وتتراقص في وجوم وهي تكرر بالجيتار معزوفة لحن تلك الأغنية التي كان يغنيها، تعزفها بعمق ولطفٍ، ظل يتأملها بإبتسامةٍ واسعة حيرةً وعجباً، ودون أن يشعر وجد نفسه يكرر خلفها كلمات الأغنية
"لأنك عندي كل الخير..

وجيهك فرحة الدنيا .. ودواخلك زي شعاع النور
عرفتك وكنت زي شفتك قبل ألقاك
وزي إنك بتنبعي من فرح جواي
وتمسحي عن رؤايا الضيم.. وتضحكي للزمان الجاي
وتتبدل مسامك ضَيْ.. مع الصُبح الغشانا شويْ
كأني معاكي كائن حيْ.. كأنو صفاك كأنو الحل"

_لا، أنا أريد ذالك المقطع الذي سمعتك ترددده عندما وجدتك أول يوم وأنت تجلس في تلك الرمال.

تفاجأ عندما سمع تلك الفتاة تتحدث إليه، تعجب، وبدهشةٍ ظل يكرر

_يا رباه، ما الذي حدث، ما الذي أتى بي إلى هنا؟ أنا كنت في شقتي، في داخل غرفتي ماذا فعلتِ بي يا هذه؟

_لا تقلق ولا تتوت.. إهدأ، من الطبيعي جداً حدوث ذالك، فالموسيقي أيضاً لها مخدر وتنويم مغناطيسي تجعلك تفقد وعيك، تفعل شيئا وأنت لا تدري، ألا ترى؟ أحيانا عندما تكن ماراً بطريقٍ ما أو جالسا في مقهى وبغتة تسمع أغنيتك المفضلة، تنفعل معها بترديد كلماتها، تلحين موسيقاها، وأحيانا حتى الرقص، كل ذالك تفعله دون شعور منك، لذالك لا تعتب كثيرا

_حسنا أنا آسف، كنت قد...

_لا، لا داعي للأسف، الآن فقط أحتاج منك أن تغني لي تلك المقطوعة حسنا، هيا

أراد أن يعلمها كيفية عزفها، لكن أخبرته بأنها تعلمتها بالفعل، عزفت مقطوعة موسيقية صغيرة، ثم بدأ هو بالغناء

"أفارقك والعمر عندك... زهيراتا غشاها الطل
....."

أكمَل الأغنية وكررها مرتين، ثم نظر إليها وقال ممازحاً

_ألن تسمعيني هذه المرة؟.

نظرت إليه بخجل، وقفت لبرهةٍ.. ابتسمت وقالت "حسنا" لم تخبره بأنها تجد صعوبة في نطق تلك الكلمات، هي فقط واصلت العزف ورددت الأغنية

"أقابلك والعمر عندك.. زهيراتاً غشاها الطل
أحاسيسك بتتكمل .. غنيواتك بتتبارك مع الأيام وتتجمل
أفارقك والزمان أجمل
عشان تشعل ملامحي ضياك.. وكل ما نجيمة تتحول
عشان تفضل ملامحك فيا... زي ما كنت في الأول
عشان تفضل ملامحك فيا... زي ما كنت في الأول"

يقولون ان الحب أعمى، لكنه ليس بأعمى، بل البشر عُميٌ، الحب بصيرٌ له عقلٌ وعينانِ يرى بوضوحٍ ويدرك بفطنة، إنه يجمع فقط بين المتشابهين في الروح، لا يهمه تشابه التفاصيل الجسدية ولا حتى طول المعاشرة، الحب يجمع بين المتجانسين شعوريا والمتآلفين روحيا، والحب هو أن يحبك من تحبه، الحب هو أن تحترم وتثق وتتقبل الذي تحبه بكل الطرق، الحب أن لا تجامل كثيرا ولا تستهون بالذي تحب، الحب أن تشعر بالسكينة والرضا والراحة النفسية طول الوقت مع من تحب، أما أولئك التعساء الذين يتعلقون بمن يتجاهلونهم، يجاملون كثيرا يشقون ويتذللون من أجل الذين يتغافلون عنهم وهم لا يحاولون إيجاد غيرهم لأنهم آمنو بأن "الحب أعمى" وأن "الحب للحبيب الأول".. هم حمقى فقط لا غير، فالحمقى لا يحبون، لكن من يتخلون عن إبائهم من أجل الحب يصبحوا حمقى.

واننا ننسجم حقاً ونمتزج بمن يشبهنا دون شعور، يمضي الوقت بعجلٍ وكأنه يحسدنا على تلك اللحظات الرائعة، الساعة الآن السادسة فجراً لقد تأهبت الشمس للخروج، اعتدل مالك في جلسته بعد أن كان مستلقٍ على ظهره واضعا رأسه على حجرها وهي تطمئنه بكلمات المواساة، تمسح دموعه، تمرر كفها على خصلات شعره وتهدئه من نوبة حزنه بعد أن روى لها كل شيء،

كل شيء.. حكى لها عن سنين الحب.. سنين الحزن.. سنين العذاب وكل تلك السنوات في غضون ساعتين فقط" لكنه لم يحدثها عن لميس". إن السنين مخادعة جدا، تسير بثقل عندما نعيشها، لكنها تطير كالبرق عندما نأتي لنتحدث عنها. فقالت له

_حسنا لا بأس، لا عليك، يمكنك نسيان كل هذا بمرور الوقت

رد: لأجل النسيان هربت أنا، لكن حدث العكس

_لا، لا تقل ذالك، لن تكون بهذا الحال، كلٌ سيمضي، فقط حاول أن لا تسرف في تأمل الماضي.. فالذكريات، سمٌ، والحياة قصيرة جدا، فلا يمكن للمرء أن يختصرها في الماضي والذكريات

التفت إليها متعجباً بدهشة لم يسبق أن أصابته يوماً، ها هي التي ترشده بأن يكف عن الذكريات.. هي من تغرقه في قاعها، لا تدري بأن كلماتها تلك قد أعادته للماضي، هل حقاً سمع جملتها الأخيرة تلك يوماً؟.. أم أنه يُخيل إليه ذالك؟.. لا أدري، لكننا عندما نحب أحداً نرى أن كل الأشياء التي تمس أحاسيسنا تتعلق به، قطعت نظرته تلك عندما ابتسمت وقالت

_أنت الآن مرهقٌ جداً يجب أن تنام

_نعم حقا، أشعر بالنعاس

نهض وقامت خلفه، حملت جيتاره وحافظته الحرارية، مشيا معا وهما يتحدثان حتى وصلا إلى الفندق، صعدوا إلى الدور الثالث، دخلت معه إلى شقته وضعت الجيتار والحافظة على المنضدة بينما استلقى هو على فراشه مباشرة، تناولت كتاباً كان موضوعاً على المنضدة وأصبحت تقلب صفحاته بعشوائيةٍ وهي تحدثه

_إن احتجت شيئاً فأنا أسكن بجانبك هنا في شقة رقم "٣".. لا تتردد بإخباري وداعاً.

إلتفتت لتجده قد غرق في سباتٍ عميق كأنه لم ينم منذ أيامٍ وربما كان ذالك حقاً، فماضيه العنيد يمنعه حتى من راحته.. لكن اليوم أفرغ كل ما بداخله

من مخاوفٍ.. واستلقى بأمان، إقتربت منه، ابتسمت بلطف، وضعت الغطاء على جسده المرهق، وقفت، تأملت ملامحه ملياً وكأنها تريد أن ترسمه، طبعت قبلةٌ على خده الأسمر ثم استدارت وأغلقت الباب خلفها

تلك الفتاة التي كان بالأمس يتهرب منها، يتجنبها، يحذر من الجلوس معها، اليوم هي وحدها من تهتم به، إنه القدر يا سادة، القدر بوسعه فعل المستحيل، وهكذا هي الحياة، نفتقد أعز ما نملك ونظن أن لا شيء سيكون أفضل منه، أو لن نجد شيئا يحل مكان ما افتقدناه، وفجأة يأتي أحدهم يهبنا كل ما أوتي من حب واهتمام، يعوضنا عن ذاك الذي سبق، ينسينا مرارة ما قد عشنا قبله، يحبنا بكل تفاصيلنا.. الصغيرة والكبيرة، الجميلة والقبيحة، شخص بإمكانه أن يبيع الدنيا بأكملها لأجل سعادتنا، شخص يأتي كمعجزةٍ.. يجعلنا نؤمن بكل ما كنا نكفر به من معتقدات الحب والتعلق، الحياة عادلةٌ جداً يا سادة، والقدر لا يُخطئ أبداً.. لأن الله لا ينسى مخلوقاً وحاشاه أن يظلم أحد، يأخذ منك شيئاً ليعطيك أجمل الأشياء، ولن يختار الله لك شيئا إلا لخير، فكن متيقناً أنه لن يضرك الله أبداً، كن مؤمنا كإيمان ذالك الأعرابي الذي قرأت قصته يوماً ما في إحدى الكتب، أنه "كان يركب حماراً برفقة ابنه متجهان إلى القرية، وهما في طريقهما تعثر الحمار وانكسرت إحدى أقدامه، فنزلا منه وترجّلا، وكان الوالد حكيما فقال "لايفعل الله شيئاً إلا لخير" سخر الإبن منه لكنه لم يتحدث إليه، وبعد مسافةٍ انكسرت قدمٌ أخرى للحمار فاضطرا على ترك الحمار وحمل المتاع على أكتافهما، فردد الأب نفس تلك الجملة "لايفعل الله شيئاً إلا لخير" غضب الإبن منه بشدةٍ، لكنه كتم غيظه وواصل، وبعد مسافة لدغت أفعى قدم الأب فاضطر الإبن على حمل الأمتعة وحده، فقال الأب "لايفعل الله شيئاً إلا لخير" لكن الإبن لم يتمالك سخطه هذه المرة وانهال على والده باللوم "أمجنون أنت يا أبتي؟ هل فقدت صوابك؟ منذ البداية ونحن نخسر كل شيءٍ وأنت لا تردد إلا هذه الجملة، إذن أين الخير؟ أنا لا أرى شيئا يستحق

كل هذا الثناء" ابتسم إليه الأب ولم يتحدث، وعندما وصلا إلى القرية وجداها قد صارت حطاما، دمرها الحريق وأباد فيها كل شيء، الناس، البيوت، الأنعام، الشجر، الطيور.. كل شيء، التفت الأب إلى إبنه، رمقه بنظرةٍ تجاوبه عن كل تساؤلاته وقال "أرأيت؟.. "لايفعل الله شيئاً إلا لخير" " لذالك كن على يقين بأنه لا يختار الله إلا ما يصلحك، فلا تتحسر على شيء ضاع منك، فهو بالكاد لم يُكتب لك

افاق مالك من نومه لمح ساعة الحائط بنصف نظرة فوجدها التاسعة مساءً، هلع مخلوعاً.. عرك عينيه ومن ثم تأملها فوجدها هي.. التاسعة مساءً، اعتدل مستغرباً ونهض من مرقده يا رباه.. منذ أن أتى إلى هذا الفندق لم يغفو بهذا القدر ولم ينعم في نومه بمثل هذه الراحة، لكنما النوم يخشى الحب، لذالك لا يأتي بكوابيسه إلا للحزانى والسكارى وذوي النوايا السيئة، أما السكينة والهدوء.. فيجلبها للمحبين وأولي القلوب الطاهرة. قام من فراشه، اتجه ليأخذ حماما، وقف ناحية المرآة فلمح رسمةٌ حمراء مقوسةٌ تحتل منتصف خده الأيمن، إبتسم واندفع إلى الداخل، انهى حمامه، أدى فرائضه واتجه نحو مطبخه الصغير ليعد قهوته، عاد ليأخذ حافظته فرأى ورقةٍ صغيرة سميكةً قليلا بها رسومات جانبية رائعة موضوعة بفوق الكتاب الذي كان على المنضدة بجانب الحافظة مكتوبٌ فيها "الحياة قصيرة جدا، فلا يمكن للمرء أن يختصرها في الماضي والذكريات" وتحتها من الجانب الأيسر مكتوبٌ بخطٍ ديوانيٍّ صغير "شخصٌ يُحبك" انبهر برؤية هذه القصاصة الجميلة وروعتها، بدا له وكأنه قرأها لأول مرةٍ بيْد أنه قد سمعها بالأمس منها، تأكد أنها هي من كتبتها له فأمسكها بيده وعلقها على الحائط بجانب لوحةٍ رائعة لدافينشي، عاد ورفع الحافظة الحرارية فتحسس أنها أثقل بكثير من وزنها، لمح بطرف بصره عندما كان يفتحها ورقةٌ صغيرةً كانت تحتها حتى ابتلت من السخونة، فكان محتواها لما قرأها "يجب أن تتجنب تجرع الحنظل بينما يمكنك ارتشاف الحليب" ومكتوب تحتها بنفس ذالك الخط

الديواني "شخصٌ يحبك" ابتسم بعفوية، طبق تلك الورقة ووضعها بداخل إحدى الكتب، ارتشف من القهوة جرعةً وفوراً تعالت خفقات قلبه، لقد تذكر أميمة، فمذاقها كان بنفس طعم تلك القهوة التي تصنعها له أميمية، تلك المرأة الوحيدة التي تجيد تعديل مزاجه بفنجان من القهوة مهما كان سيئا، في كثير من الأحيان كان يقسم للجميع بأنها هي من قال فيها "أبو السيد" "البضوق من فنجانا مرة..تاني بكرة يجيها بدري"

على حين غفلة لمحت عيناه تلك الورقة التي علقها لتوّهِ بجانب اللوحة، أعاد رشده وذهب أحضر غداءه، فتح الشاشة وظل يتأملها حتى أفرغ من الأكل، لمح الساعة فوجدها الحادية عشرة، ارتدى معطفه وقبعته كالعادة ثم حمل جيتاره وقهوته وقصد البحر

وجدها تنتظره في إحدى مقاعد الإستراحة المديدة، قالت مازحة بإبتسامة فور رؤيته بعد أن مسّى عليها وجلس بجانبها

_مرحبا بصديقي "الكوالا"

ضحك بتلقائية وهمس في أذنها ساخراً بصوتٍ خافتٍ

_أظن أن تناول الحليب سيجعلني هِرٌّ فيما بعد

ضحكا معاً بصوتٍ عالٍ، فردت له في نصف ضحكتهما بسخرية

_هذا جيد، لكني أخشى أن تكون مثلها في النوم أيضاً، فإن أصغر القطط تنام 16ساعة كأقل مدة في اليوم

واصلوا الضحك مرةً أخرى كالمجاذيب، وبعدما هدأو من ثورة ضحكهم انثنى مالك إلى الأمام قليلا، وضع يده اليمنى تحت ذقنه والأخرى على فخذه يتأمل البحر متجاهلا إياها وقال في حيرةٍ كأنه يخاطب شخصا آخر

_لكني أعتقد أنها لا تضع أحمر الشفاه؟

ابتسمت بعفوية وفهمت ما يقصده فردت وهي تنظر في اللا شيء متجاهلةً إياه

_نعم، لكن ذالك ختمٌ لمن اعتلى عرش فؤادها، وهم ثلاثة فقط.. والديْها.. وشخصٌ ما يجلس بجانبها

التفت إليها بإبتسامة مذهولا من ردها، فعضت على شفتها السفلى وغمزت له.. فغرقا معا في نوبة ضحك ساخرة

هدأو قليلا فجذبت الجيتار إليها وقالت:

_حسنا، سأسمعك اليوم شيئا لم تسمع به قط (رمقته بوداعة وقالت بدلال طفلةٍ) لتعلم مدى عمق ثقافتي واطلاعي

ابتسم لبراءتها وجاوبها موافقاً بإيماءة من رأسه، عزفت مقطوعة موسيقية قصيرة على إيقاعٍ جميلٍ يجذب الإحساس، وأتبعتها بصوتها الدافئ هذه الكلمات من الأغنية

"كن مجامل يا حبيبي.. ويكفي إنك تصطفيني
عُشّي خاوي في الليالي.. والمهاد يشهد أنيني
والظلام.. بكتب عليهو.. بي حروف النور حنيني
دي النجوم تشهد ضنايا.. وتقرأ في، صفحة جبيني
متين تعود.. أيام هنايا.. وتاني ترجع تصطفيني"

توقفت، عزفت مقطوعة قصيرة، وضربت الجيتار برفق معلنة بدء فصل جديد للأغنية، لكنه قد ضُرب عقله بصاعقة من الحيرة وكوت ملامحه الدهشة، لم يصدق ما تسمع أذناه، كيف هذا؟ من أين أتت هذه الفِرنسية بهذه الأغنية؟ فمن المستحيل أن تكون قد وصلت إليهم، هي بالطبع ليست مسجلة في استديوهات "مارڤل" حتى تطوف في بقاع أوروبا ويسمعها الفرنسيون، كما أن إعلامنا ليس قويا ليوصلها إلى مستمعي بريطانيا الذين لا يفقهون شيئاً من العربية، وليس لدينا القدر الكافي من التوزيع الموسيقي ليلحقها حتى إلى "الإسكندرية" فنحن مظلومون جداً من جانب الفن والتمثيل، نمتلك جميع مؤهلات الإبداع لكننا لا نعرف كيف نوصلها للآخرين

لم يتثاءب كثيرا ودون أن يشعر وجد نفسه منسجما معها بتصفيقة خفيفةً برقةٍ ولينٍ مردداً معها كلمات الأغنية على ذالك الإيقاع

"لو أحبك أنا العمر كله.. برضو شاعر ما كفاني
إنت فاكر دي العواطف.. ظاهرة في روحي وكياني
والمحبة.. البين ضلوعي.. دي خالدة برويها بحناني
ودي المساهر بالي فيها.. وإن نسيت كانت أماني
مشتريها.. أنا بي شبابي.. والشباب ما بجيني تاني"

توقفت عن العزف عندما انهيا الأغنية، بدت مشدوهةً للغاية، رمقته مطولا بنظرات لهفة واستغرابٍ ثم سألته

_من أين عرفت هذه الأغنية؟

أجابها متنكرا حتى لا يكشف عن هويته بأنه سمعها في إحدى الكافيهات لكنه لا يذكر أين بالضبط، ثم ترجاها بحيلة يتقنها جيدا أن تخبره أين سمعتها وما هو إسم مغنيها، فوافقت لكن بشرط؛ أن يغني لها هو أيضا أغنية عريبة لم تسمع بها من قبل، وافق بعد أن ألحّ عليها بدهاء ماكرٍ بأنه لا يحب الأغاني العربية، فاقترحت عليه أن يغني بأي لغة أخرى، حملق بعينيه الواسعتان في الفضاء قليلا يتذكر أغنيةً ما، ثم أمسك بالريشة وتناول الجيتار وبدأ بالغناء

wake me up, before you go"
ohh a need a little more
gust little more
a little more, of your love
"....ohh i nee

لكنها قاطعته قبل أن يكملها بإشارة من يدها قائلةً:

_هذه الأغنية ل "كريس براون" أنا أحفظها عن ظهر قلب، جد أغنية أخرى

ابتسم بحزن مزيفٍ، مد شفتيه إلى الوراء، هز رأسه بالنفي يائساً وهي تتأمله بنظرة المنتصر وتضحك بخفي ساخرة من ردود أفعاله الكوميدية ولا تدري بأنه وغدٌ لئيم يحاول تسليتها فقط، تحرك.. عدل من جلسته وبدأ يعزف لحن أغنية أخرى حتى بدأ بصوتٍ مرهَفٍ يخرج الكلمات من داخله بعمقٍ وإحساسٍ إبداعيٍ ناعمٍ جعلها تنسجم وتحلق معه في عالم آخر، أنصتت إليه بتشوقٍ لتلتقط تلك الكلمات البديعة التي كان ينطقها بفروهةٍ مردداً

hello hello"

can you here me

as i scream your name

hello hello

do you need me

before i fade away

is this i place that i call home

to fine what l've become

walk along the path unknown

we live we love we lie

deep in the dark i don't need the light

there's a ghost inside me

it all belongs tthe other side

we live, we love, we lie "

_هاه، هل سمعتِها أيضا؟

قطع شرودها وانسجامها لما سألها، فقد كانت في حيرة من أمرها، مذهولةً من حلاوة صوته الناغم وقدرته الفائقة في نطق الإنجليزية، فأجابته: لا

ثم سألته أين تعلمت الإنجليزية؟ فأخبرها أنه تعلمها في إحدى المعاهد البريطانية بالقاهرة، بينما أخفى عنها حقيقة أنه تعلمها في"إنجيلية

الشهداء" بمدينة "أم درمان" ثم سألته بأن يخبرها بإسم هذا الفنان وهذه الأغنية، وافق.. لكنه أيضاً اشترط بأن تخبره هي أولا، لم تتحدث إليه.. أخرجت هاتفها ووضعت الأغنية على مشغل الموسيقي فكانت هي نفس تلك الأغنية، رائعة العندليب الأسمر."زيدان إبراهيم" التي يشدو بها السلطان "طه سليمان" ثم أردفت:

_صديقةٌ لي من السودان كانت تقرأ معي في الجامعة فأخذت منها العديد من الأغاني، وأنت.. أخبرني

أخبرها أنه لا يعرف عن أغنيته شيئا سوى أنه سمعها مرتين في سيارة أجرة كانت تقله. طالت سهرتهما في تلك الليلة، ولقد خُلق الليل للعشاق ليختبئوا فيه ويعيشوا حياة هادئة بعيداً عن الضوضاء وعيون الحاقدين من البشر، لكن بعض السفهاء يستخدمونه للسكر والأحزان؛ كانا يتبادلان الأغاني لبرهة، ثم يعودان ويتحدثان مرة أخرى، حتى مرةً وفي دور مالك تعمد ان ينشد هذه الابيات في شكل اغنية

"جَزَى اللّٰهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرًا مُحَمَّدَا..ويا لَيْتَ شِعْرِي مَا أَرُومُ لِأَحْمَدَا
فَأَفْضَلُ خَلْقِ اللّٰهِ طُرًّا مُحَمَّدٌ..... وأكرمَهُمْ نَفساً وَصِهْرًا وَمَحْتِدَا
وَأَحْسَنُهُمْ خَلْقًا وَخُلْقًا وَمَنْطِقًا .. وأَكْرَمَهُمْ قَوْمًا وَأَنْدَاهُمُ يَدا
وَأَطْهَرُ خَلْقِ اللّٰهِ جِسْمًا وَمَلْبَسًا .. وَأَطْيَبُهُمْ رُوحًا وَأَصْدَقُهُمْ نِدَا
وَأَرْحَمُ فِي الدُّنْيَا وَالْأُخْرَى وَإِنَّهُ..شَفِيعُ الْوَرَى وَالْكُلُّ لِلْخَوْفِ أُرْعِدا
فَكُلُّ نَبِيءٍ قَالَ نَفْسِي، وَأُمَّتِي .. يَقُولُ وَيَدْنُو حَامِدًا وَمُحَمَّدَا
عَلَيْهِ صَلاةُ اللّٰهِ ثُم سَلامه .. صَلَاةً وَتَسْلِيمًا يَقُودَانِ لِلْهُدى"

هنا أوقفته لورين قائلة أن هذه ليست أغنية، وأنها إحدى مدائح الصوفية، وبالفعل..كانت هذه إحدى قصائد الشيخ "إبراهيم إنياس الكولخي" الذي يمدح قصائده الكثير من مريدي الطريقة "التجانية" في أفريقيا وغيرها من البلدان، والتي تعلمها مالك منذ صغره في "مجمع التقوى" تلك "الخلوة" التي تقع في قرية "دار السلام، مربع ٦" ب "جبل أولياء" والتي حفظ القرءان فيها

هنا أتيحت له فرصةٌ لطرح أسئلةٍ كانت تتردد دائما في ذهنه ولم يجد فرصةً مناسبة ليعرضها عليها، فقال لها مبتسما يدعي اللا مبالاة دون تلعثمٍ وهو يتحسس أوتار جيتاره متحاشيا النظر إليها:

_من هم الصوفية؟

ردت: لا أعلم من هم، لكن أخبرتني أمي بأنه إسم مذهبٍ لجماعةٍ تنتمي لديانة الإسلام، وأن معنى التصوف هو اختلاط الرجال والنساء بطريقة فيها معاصي أو أشياء مزرية

قال منفعلا وقد كست علامات الضيق ملامحه

_لا، هذا خطأ، أولا فإن الصوفية ليست مذهبا، والتصوف في الإسلام هو "تدريب النفس على العبودية" وثانيا ليس هذا هو معنى التصوف

_ إذن ما معنى إسم" الصوفية"

صمت قليلا قبل أن يجيب، أخذ جرعة من قهوته ليهدأ من روعه، ثم بعد دقيقتان من الصمت وكان قد أعاد على إثرهما توازنه الفكري وبهدوءٍ قال

_لهذا الإسم الكثير من المعاني، قال بعضهم أنه مشتق من كلمة "الثيوصوفيا" وهي تعني "عشاق الله" باليونانية، وبعضهم قال أنه من "الصفاء" وقال البعض هو مشتق من "الصوف" لأنهم كانوا يؤثرون لبس الصوف الخشن للتقشف والأخشيشان، وقال أحد العلماء أنه مأخوذ من كلمة "سوف" وهي تعني الحكمة "باليونانية" والكثير من الأقوال، لكن ما نعرفه عن التصوف هو "علم تعرف به أحوال تزكية النفوس وتصفية الأخلاق"

هزت رأسها بالموافقة وهي تقول "حسنا.. حسنا" أراد أن يرمي ثقل تساؤلاته، فسألها

_ألستِ مسلمةٌ؟

_لا، لكن والدي مسلم وأمي مسيحية

_وأنتِ.؟

_لا شيء

_ماذا تقصدين

_أقصد أنني لا أنتمي لأي طائفة دينيةٍ، أؤمن بوجود الله، أعرف كل ما يفعله أصحاب الديانات والعقائد، لكنني لا أميل لأيٍ منهم..ولن أفعل

_ولماذا؟

_لأنني أريد أن أعيش حياتي مثلما أريد

_لكن يجب أن تدفعي ثمن هذه الحياة، ثم ماذا عن تلك الحياة.. الحياة الآخرة؟

_لا أظن أن هناك حياة أخرى، أشك في هذا الأعتقاد

تعجب مالك واندهش من ردها ومن سخافة فكرها، هل هي تراوغه فقط لتتعرف على المزيد عن تلك الحياة.. أم أنها تحدثه بجدية؟ وهل يُعقل ذالك؟ أن يؤمن أحدهم بالله ولا يؤمن بالحياة الآخرة؟ بالطبع لا، إذا كان المرء يؤمن بإله لديه قدرة كاملة وعادل، فلا يمكن أن يعتقد أن هذا العالم الذي ينتصر فيه الشر في كثير من الأحيان هو الحلبة الوحيدة التي توجد فيها الحياة البشرية، لأنه إذا كان هذا الوجود هو الكلمة الأخيرة ويسمح الله للشر بالفوز فهذا ضد العدالة الإلهيةِ، وحاشا لله أن يظلم أحداً، امتعض منها لكنه كظم غيظه بداخله ولم يبارحها به، وأراد أن يحافظ على هدوئه فقال لها متسائلا بحيرة وبصوتٍ يافعٍ

_لماذا؟ وماذا تعتقدين أن يحدث لنا بعد الموت؟ هل ينتهي وجودنا هكذا ببساطة؟ أم ستُبعث أرواحنا في أجسادٍ أخرى وتطوف هكذا في الحياة إلى ما لا نهاية كما يعتقد "الهندوس؟" أو كما في معتقدات "البوذية" أننا نولد من جديد على هيئة بشرٍ أو أشباحٍ أو آلهة..ماذا تعتقدين.؟

_لا أعلم، لكني أجد صعوبة في إدراك الحياة بعد الموت منطقيا، فالمعلوم عن الموت لدينا.. هو نقطة النهاية لحياة الإنسان وبعد دفنه تلتهم الحشرات جسده حتى يتعفن وبعدها يتلاشى الجلد عنه ولا يتبقى منه شيئاً

سوى العظام التي ستصير غبارا فيما بعد، فكيف يحيا مرةً أخرى؟ بل ويعيش حياة أخرى؟ هذا غير منطقي.

_إن كنتِ تؤمنين بالله حقا وبعدله، فإنك ستؤمنين أيضاً بالحياة الأخرى بالجزاء والحساب بالجنة والنار، وبما أنكِ تعلمين كل ذالك الذي يحدث لجسد الميت.. فلابد من أنكِ تعرفين شيئا لما يحدث له في القبر بعد الموت؛ أما سؤالك هذا فلا يبدوا معقداً لذالك الحد، فمن السهل تجاوزه بالقليل من التفكير الصريح في وجودكِ وقدرة خالقك..تأملي هذه السماء معي...

رفعت عينيها إلى أعلى، فقال لها: كيف تبدوا

قالت: رائعة وعظيمة

قال: الإنسان أعظم أم هي؟

قالت: هي

قال: ماذا لو اخبرتك بان الله خلقهن سبع سموات طباقا وان هذه ليست شيئا بالنسبة للأخريات؟

قالت:سمعت عن ذالك

فقال: حسنا.. وهل يعجز الذي خلقهن من عدمٍ على إعادة خلق الإنسان وهو الذي سوّاهُ من قبل أن يكُ شيئاً؟

_لا، ولكن ما البرهان على ذالك، هل رأيت أنت يوماً بأم عينيك أن بشراً أحياه الله أمامك بعد موته؟

علم مالك أنها لا تحتاج للبراهين العميقة التي قد أعدها لها، فقال

_الأمر لا يحتاج للرؤية حتى أثبت لكِ بأن الله يحيي الأنفس بعد موتها، تعلمين أنتِ أننا نتحدث في الحياة بعد الموت وهذا يعني أننا نتحدث عن الأمور الغيبية ولا يعلم الغيب إلا الله، لذالك فلا أنا ولا أنتِ ولا أياً من البشر سيتمكن من رؤيتها، لكن بإمكانكِ أن تقيسي على هذه الآلة _يشير إلى الجيتار_ التي بين يدي، فبإمكاني تفكيكها أجزاءً وتركيبها من جديد..

لأنها ملكي وأنا أعرف موقع كل جزءٍ فيها ولو أنكِ تأملتِ قليلا في القصص التي وردت في "القرءان الكريم" فإنكِ ستدركين ذالك

_وما مضمون هذه القصص؟

_إنها تحكي عن الذين لا يؤمنون بالآخرة والبعث

_إذن قصها لي

_لا، هي كثيرة جداً، لكني سأحكي لكِ إثنان منها، واحدة من السنة والأخرى من القرءان

_أستمع...

_الأولى وردت في عهد النبي ﷺ وهذا في صدر الإسلام لما جاء رجلٌ من صناديد قريش يُدعى "أُبيْ بن خلف" إلى النبي ﷺ وفي يده عظم رميم، عظم تفتّت وهو يفتّه ويذروه في الهواء ويقول: "يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟!" فقال النبي صلى الله عليه وسلم "نعم يبعث الله هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك النار" وفيه نزلت هذه الآيات الأخيرة من سورة ياسين "وضرب لنا مثلا ونسي خلقه..إلخ."؛ أما القصة الثانية والتي وردت في القرءان الكريم فهي تتحدث عن رجلٍ في قديم الز..

_ومن هذا الرجل؟ أنبيٌ هو أم شخصٌ عادي؟

قاطعته قبل إكمال جوابه، نظر إليها ببلاهةٍ، ثم علق نظره بالأمواج التي تتلاطم بهدوءٍ، احتسى رشفةً.. صمت لبرهةٍ ثم استعاد ذهنه فالتفت إليها وقال

_ لا هو ليس بنبي، قال بعض العلماء أنه رجلٌ من بني إسرائيل، وقال بعضهم أنه "حزقيل بن بورا" وقال البعض أنه "أرميا بن حلقيا" والقول المشهور أنه "عزير"

_عزير..؟! سمعت عنه الكثير لدى المعتقد اليهودي، لكن ما علاقته بالإسلام وما قصته؟ وهل هناك علاقة بين الدين اليهودي والإسلامي؟

_نعم.. هناك علاقة بين اليهود والإسلام، والعلاقة بينهما نشأت بنشوء الإسلام ذاته في القرن السابع الميلادي، وتوجد بعض القيم المتشابهة والخطوط

العريضة والمبادئ المشتركة بينهم، ويذكر القرآن الكثير من الروايات التي ورد ذكرها في التوراة والإنجيل والتي تعتبر من التاريخ اليهودي وتاريخ بني إسرائيل، كما تشترك الديانتان بمفاهيم التحريم والحدود ويؤمن كل من أتباع الإسلام واليهودية بنبوة إبراهيم وله دور مركزي في كلا الديانتين مما يجعلهما يصنفان إلى جانب ديانات أخرى ضمن الديانات الإبراهيمية ولكن ليس جميع اليهود، فهناك فروقاتٌ يذكرها القرآن للتمييز بين اليهود الذين آمنوا برسل الله ورسالاته وهم في الإسلام الفرقة الناجية وبين اليهود الذين كفروا بالله وكذبوا رسله وهم حسب رأي بعض علماء المسلمين هم المقصودين في سورة الفاتحة ب (المغضوب عليهم) ويعتبر اليهود في الإسلام أهل كتاب يباح للمسلم الزواج منهم وأكل طعامهم؛ لكن ما هذا..؟ سمعتِ عنه الكثير لدى اليهود ولم تسمعي عنه في الإسلام؟ كيف؟.. لا أفهم.!

_أعني أنني لا أعرف عنه في الإسلام لأني لم أتطلع كثيراً في هذا الدين

_حسناً... نعم هو لدي اليهود له قصةٌ أخرى "شنيعة" فهم يعتقدون أنه ابن الله _وسبحانه أن يكون له ولد_ وقالوا ذالك لما جاء عزير بعد مائة عامٍ وبعدما غلبت العمالقة على بني إسرائيل فقتلوا علماءهم وسبوا كبارهم.. ففُقدت التوراة، ولما عاد عزيرٌ بعد المائة عامٍ وقال أنا "عزير" لم يصدقه أحد..لأنهم لا يعرفونه، فقالوا له "سمعنا من آباءنا أن عزيراً كان يحفظ التوراة.. والتوراة الآن فُقد أكثرها فإن كنت عزيراً فاسردها لنا" فسرد لهم التوراة عن ظهر قلب فكتبوها واستخرجوا النسخ التي كانوا قد أودعوها في الجبال وقابلوها بها.. فوجدوا أن ما جاء به صحيحا، فقال بعض جهلتهم: إنما صنع هذا لأنه ابن الله؛ ومن ذالك اليوم عظموه. لكن لدينا فهو رجلٌ صالحٌ وقال البعض نبي

_حسناً، وما قصته التي ذُكرت في كتابكم المقدس

_قصته شبيهة بما أنتِ فيه الآن حول الشك في الحياة بعد الموت، لكنه لم يكن شاكاً، بل كان متعجبا لما أتى ماراً بدارٍ خاوية متهالكةٍ محطمةً رفاتاً من كل

شيء، وقف متفكراً في ما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة قائلا (أنّى يُحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه) قال المفسرون أنه عندما بعثه ﷻ بعد موته كان أول شيء أحيا الله فيه "عينيه" لينظر بهما إلى صنع الله فيه كيف يحيي بدنه، ثم قال له "كم لبثت قال لبثتُ يوماً أو بعض يوم" قالوا : وذلك أنه مات أول النهار ثم بعثه الله في آخر نهارٍ فلما رأى الشمس باقيةً ظن أنها شمس ذلك اليوم فقال "أو بعض يوم" فقال تعالى "بل لبثت مائة عامٍ فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما" لم ينتن طعامه ولا شرابه، فأخبره الله بما لبث وأمره أن ينظر إلى حماره التي تفرقت عظامه حوله وهو يحييه أمام عينيه بالرياح التي جمعت كل موضع من تلك المحلة، ثم ركب كل عظم في موضعه حتى صار حمارا قائما من عظام لا لحم عليها ثم كساها الله لحماً وعصباً وعروقاً وجلداً، وبعث الله ملكاً فنفخ في منخريّ الحمار فنهق، فعند ذلك لما تبين له هذا كله "قال أعلم أن الله على كل شيءٍ قدير"

ترقبته لورين وصمتت طويلا بعد إكمال حديثه متأملة فيما قاله فبادلها الصمت هو أيضاً، ثم أضافت بعد ذالك الصمت الكثيف

_إذن هذه قدرة الله على إحياء الموتى، فما معنى الدار الآخرة؟

هنا أدرك مالك أنه استطاع تخطي المرحلةً الأولى احتفل في داخله بإمتنان ثم ابتسم وواصل في معركته قائلا

_الدار الآخرة هي القصاص بين الخلق يوم القيامة، يُحاسب الإنسان على ما عمل في الدنيا، وخير البرية هم المؤمنون بالله ورسله

_تقصد المسلمون

_كل دينٍ عداه باطل

_حسناً، إن كان الإسلام هو الدين الحق وتابعيه هم الأقرب لله، فلماذا يشقون أكثر من غيرهم؟

_يشقون من أجل حياة الخلود، والكفار يتمتعون لأنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة.. فأراد الله أن يمتعهم قليلا.. ثم يضطرهم إلى عذاب النار

***

في مساء اليوم التالي _وصادف ذالك يوم الجمعة_ لم يخرج مالك إلى الشاطئ ةلم تكن من عاداته، فقد كان كل يومٍ في المساء يأخذ جيتاره ويجلس أمام البحر يعزف ويغني، انتظرته لورين قرابة الساعة وبضع دقائق حتى ملت وبدأت تراجع أفكارها ماذا قالت له بالأمس حتى يعاقبها بهذه الطريقة؟ هل أحدثت خطئاً في مناقشتهما التي طالت حتى منتصف الليل؟ هل غضب منها؟ أم تخلى عنها لما عرف أنها ليست مسلمةً؟ هل ستتخلى عن أفكارها ومعتقدها الخاص بها، وتتورط في عقيدةٍ أخرى لأجل إرضاءه وهي التي تغضب من والدها بمجرد حديثه عن هذه الديانة؟! والكثير من الأفكار الثنائية التي تمزق ذهنها، نهضت من مقعدها واتجهت نحو شقته لتتفقده

ضغطت على زر الجرس .. لكنه لم يفتح، لقط سمعها صوتاً يخرج من داخل الشقة فوضعت أذنها على الباب وهي تسترق السمع بخفةٍ علّه كان يحدث من في البابِ، ولكن التقطت أذنها غير الذي توقعته تماما ودون أن يأذن لها أدارت مقبض الباب واندفعت إلى الداخل، رأته يفترش سجادةً صغيرةً في الأرض يجلس عليها حافياً متربعاً متجها نحو الشرق وفي يده كتاباً، ومن رداءه الأبيض المحتشم وترنيمة صوته العذبة علمت أنه يفعل شيئاً مقدساً، جلست بهدوءٍ على المقعد المجاور له، عبثت بهاتفها قليلا ثم وضعته على المنضدة التي بجانبه وبدأت تتأمله في صمتٍ وهو يقرأ بصوته المذيب للقلوب حتى وصل إلى قوله (أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

هنا هلع قلبها، انتفضت وتجلّدت.. هلعت بعينيها رهبةً كمن أصابته طعنة خنجرٍ من أقرب أصدقائه، وضعت يديها على صدرها وكأنها تحجب قلبها الذي

يكاد ينتزع من عُلو نبضاته، ومالك يواصل القراءة "اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ... إلخ.

شعرت وكأنه يحادثها ويدعوها إلى التوبة عن ما كانت عليه والبدء في طريقٍ جديدة بيضاء سالكةً ومستقرة، شعرت بأنه يجيبها على جميع تساؤلاتها التي أعدتها لمناظرة اليوم على الرغم من أنها لم تستمع إلا لبضع آيات من سورةٍ واحدة، بضع آياتٍ فقط أقنعتها بالحقيقة.. فما بالها لو قرأت القرءان بأكمله؟ إن كل آية في القرءان يحمل كل حرف منها كل الأجوبة على تساؤلات المستفسرين عن الإسلام، وجميع الأدلة على أنه الدين القويم يجدها بسهولةٍ ذالك الذي يبحث عن الصواب، أما الذي يجادل بغير علمٍ ويحاول تدنيس الراية البيضاء فتعمى بصيرته عن إدراكها

هدأت لورين قليلا وعادت إلى هدوئها عندما تلى قوله "وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم...إلخ" أشرق وجهها وصارتْ في سكينةٍ ورجاحةٍ، ذائبة القلب شاردة الذهن متعمقة التفكير في كل كلمةٍ وآيةٍ، حتى إذا ما وصل إلى أواخر آيات تلك السورة وفي منتصف الآية ٧١ عند قوله «وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا» هنا وضعت لورين كفيها على وجهها وانحنت قليلا على ركبتيها، بدأت تبكي وتبكي.. لكن بصمت، كانت أنثى لكنها ليست بتلك الهشاشة، تبكي بحرقةٍ وكأنها تتخيل شر ذالك اليوم، بعدما أنهى مالك قراءته وأقبل عليها سألته قبل أن يلقي التحية عليها:

_أخبرني، ما الذي يحتاجه المرء ليدخل الإسلام؟

***

إننا أحيانا لا نحتاج سوى شخصا يأخذ بيدينا نحو الصواب، نعرف الوجهة تماما وندرك الفرق بين الصح والأصح، لكننا بحاجة إلى شخصٍ يمحو ظنوننا السيئة عن الذي نُقبل عليه

في ذالك الصباح كان جالسا وحده في طاولةٍ بجانب الحائط الزجاجي في الجانب الأيسر من مقهى "بيبلوس" يرتشف قهوته بهدوءٍ متأملا تلك الطبيعة الغناء

واضعاً هاتفه في الطاولة بجانب طبق الحلوى الذي لا يطيقه، لكن "وائل" ذالك الفتى السوري اللطيف _الذي أرغمته الحروبات على ترك وطنه_ يصر دائما على تقديمه له، ودائما ما يقول له " إن كنت وحيداً لا تُرتشفُ القهوة إلا برفقة أحد هذه الأشياء.. أفكاراً تكتبها، أو كتاباً تقرأه، أو لوحةً ترسمها..أو برفقة طبق من الحلوى" سأله مالك يوماً "ولماذا؟" فأجابه

_لأن القهوة تعمل على زيادة نشاط الدماغ، والدماغ هو المنبع لإنتاج المعلومات الجديدة، لذالك حاول أن تستخدمه في أشياءٍ مفيدةٍ عندما يتنشط.

هز مالك رأسه، صمت قليلا ثم ابتسم بعبثٍ وسأله بمرحٍ

_وما دخل طبق الحلوى في ذالك؟

ضحك وائل بتلقائية، فشاركه مالك أيضاً بقهقهةٍ عفويةٍ، فقال وائل

_طبق الحلوى هذا يحل مكان الكتابة والقراءة والفرشاة، يدعك منتشيا.. تفكر أو تتأمل بطريقة إيجابية ومنتظمة

قطع حبل ذكرياته بغتة لما وجد إمرأةً تقف على يمينه وتنادي بإسمه في حياءٍ، لم يصدق ما ترى عيناه، "هل هذه هي؟" لقد أصبحت لورين آيةً من الجمال عندما أقبلت عليه مرتدية "الحجاب الإسلامي" تلك الحُلة التي تجعل من المرأة المسلمة ملاكاً لا يضاهيها جمال نساء الكون بأكمله، صار مترددا يحاور عقله بحيرة "أهذه هي؟"

ألقت التحية عليه، جلست بجانبه، شاركته قداسة صمته قليلا ثم شرعا في الحديث، أخبرته بما رأته في منامها تلك الليلة، ثم السكينة التي شعرت بها لما ارتدت هذا الحجاب والطمأنينة التي غزت قلبها وهي تؤدي فرائضها، ثم عن إدخال أمها الإسلام، سألها محتاراً

_كيف تمكنت من ذالك؟

قالت: أسمعتها تلك السورة التي كنت تتلوها بالأمس

لم يستاءل كثيرا عن الوسيلة التي أسمعتها بها، لأنه أيقن أنها سجلت قراءته بالأمس عندما وضعت الهاتف في المنضدة بجانبه، فقط تنهد بحزنٍ وألقى نظرة

للسماء رافعاً يديه قائلا "أيا رب إن لي عندك محبوبا قد أحب هذه السورة، وواظبتُ على تلاوتها إهداءً لروحه فتسببت في إسلامهن، فاكتب الثواب له يا إلٰهي واجمعني به تحت ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك"

ثم أخفض رأسه واضعاً يديه على وجهه، مسح أدمعه التي سالت دون شعوره بخفيٍ حتى لا تراه، لكنها كانت تراقبه بصمت دون تحدث، إلتفت إليها محاولا إختلاقَ ابتسامةٍ مزيفة ليخفي عنها حزنه.. لكن لم يستطع، فعيناه المحمرتان ووجهه الشاحب يظهران كمده، أدركت هي ما ينتابه وعلمت أن تلك الآيات التي سمعتها بالأمس لم تكن على محض الصدفة، بل كانت تلاوةً لروح شخصٍ ما كان عزيزاً عليه وربما قد يكن هو نفسه ذالك الشخص الذي حكى لها عنه قبل بضعة أيامٍ.. لكن لم يخبرها به، تلهفت شوقاً لمعرفة ذالك الشخص، أرادت سؤاله لكنها خافت أن تزوّد أشجانه فحالته كانت لا تحتمل العتاب، فقالت له

_إنك مُتعبٌ، إذهب واسترح قليلا

أجابها نافياً بهزةٍ من رأسه، وقال

_لا، أنا فقط غرقت في الماضي دون شعور

ثم صمت، نعم هو متعبٌ لكنه بحاجةٍ إلى راحةٍ نفسية وليست بدنية، ولا شيء يعيد اتزان نفسيته كتأمل تلك الطبيعة برفقة فنجان قهوة في حضورها.. هي، الكثيرون يعتقدون أن الإرهاق النفسي وألم الماضي يزيله النوم.. فيهرعون إليه.. لكن ذالك عبثا، النوم لن يغيثك إلا بالمزيد من الكوابيس التي تضاف إلى قائمة إجهادك النفسي.

إسترسل الصمت.. فبادلته هي أيضا ومرةً أخرى مجدت الصمت معه، فللصمت قداسةً لا يدركها إلا أولئك الذين أيقنوا أن الثرثرة ما هي إلا تدنيسٌ للعقول، تأملت معه قيلا تلك الطبيعة وأولئك الصغار الذين يلعبون بالكرة الطائرة ثم سألته

_ألم يراودك يوما شعور أن يكون لك طفلٌ؟

أجابها: عندما كنت طفلا كنت أرغب بشدةٍ وأتمنى متى أكبر لأكون أباً، لكن لما كبرت اتضح لي أن الحياة لا تستجيب لأمنياتي، لذالك أخشى أن أكون أبا وأرحل بعد أن يرى إبني النور فيُجذب إلى الظلمة عُنوةً ويعاني مثلما عانيت

أجابته مطمئنة بشيءٍ من الدعابة

_لا تقلق.. لن يحدث ذالك، وإن حدث فسأتكفل أنا بتربيته

إبتسما معا بقهقهة ضحكةٍ شبيهةٌ بالتنهيد.. فقالت هي

_أتمانع أن أكون أما لأطفالك؟

***

بعد يومينِ تقدم للزواج منها وكان والدها "عمرو الشيباني" رجل الأعمال الفرنسي الشهير جزائري الأصل مسلماً، قد انغمر بالسعادة وأحب مالك لما قدمه له أشدّ حبا وصار أكثر بهجة لما تقدم لطلب إبنته، أخبره أنما فعله ليس واجبا فقط.. بل معجزةً، أخبره بأنه منذ أكثر من اثني عشر عاماً يحاول إدخالهما الإسلام لكنه لم يفلح في ذالك، وفي كل مرة يُواجه بالرفض من الأم قبل إبنتها، وما فعله مالك كان كافياً لتزويج إبنته، أقام حفلا صغيرا احتفالا ببشرى إسلامهما، واشترى لمالك فيلا في "لندن" وحجز له أخرى في "مونمارت" وضمن له وظيفة مناسبة لخبرته في لندن بعد أن جعله مستشاره الأيمن وسجل ربع ممتلكاته بإسمه، تكفل له بكل مستلزمات الزواج وعرض عليه قضاء شهر العسل في "سنتوسا" لكنه اعترض شاكراً إياه بيْدَ أن رفضُ "الشيباني" كان قاطعا ولكن بعد حديثٍ طويل وإلحاحٍ تمكن مالك من إقناعه بأن قبوله للزواج فقط كافيا عن أي إضافةٍ أخرى، فهو قد أهداه جوهرةً ستغنيه عن كل ملذات الحياة أحيانا تُغلق الدنيا في وجهك.. لتفتح لك أبوابا أكثر اتساعاً، تحتويك وتمحوا من على ذاكرتك كل المآسي والأنين، تعوضك بأشياء لم تحلم بها، أشياءٌ لم تتردد حتى على وحي خيالك، فعندما يبتليك الله بفقدان شيءٍ ما.. تيقن أنه يخبئ لك فضلا وسعادةً أعظم من أن يستوعبها عقلك فقط لا تنسى عندما تمتلك تلك المسرة أن تتذكر أنك في يومٍ ما كنت تظن بأنك أتعس البشر وستقضي حياتك

على ذالك النحو، وتذكر أيضا أنه مثلما زال الأسى.. فالسعادة أيضاً لا تدوم، لذالك لا يجب أن ترهق روحك بالأسف كثيرا أياً كانت قيمة ما افتقدته، فقط تقبلها بالرضا وإدراكِ أنه لخيرٍ وأن الله لن ينساك

***

بعد ثمانية عشر يوماً من زواجهما وفي آخر ليلة لهما ب "الإسكندرية" بعدما تأهبا للسفر هما ووالديها إلى لندن بعد إنتهاء العطلة الصيفية وكانت طائرتهم ستقلع في رحلة السادسة من مساء الغد، وقف مالك بعد أن أدى فريضة "العصر" على نافذته المطلة على البحر بعد أن خرجت زوجته برفقة والديها للتسوق، كان الشاطئ على غير عادته.. كل شيءٍ فيه تبدل لونه إلى الأحمر، من المظلات والناس والأنوار وحتى المقاعد بُدلت بأخرى لونها أحمر، لم يفهم مالك ما يجري بالضبط، حتى الطقس صار أقل برودةً.. ربما هو أيضاً قد ارتدى الأحمر، بدأت السحب تتلاشى رويداً رويداً لتترك المجال لسماءٍ صافيةٍ بحُمرةٌ تتجزأ في أطرافها الغربية لشمسٍ قد التحفت الأحمر هي أيضا لتزيين الأجواء السماوية، ظل واقفاً في مكانه يتأمل تلك الكوكبة الحمراء حتى أذن المغرب ذهب صلى وعاد مرة أخرى ليشاهد، فقد أدهشته هذه المناظر الخلابة، علقت عيناه بجماعة يلعبون الكرة الطائرة.. فغرق في متابعتهم، يبتسم حيناً، يعبس تارةً.. ويضحك تارةً أخرى، حتى لمحت عيناه لما سرح في السماء _خِلْسَةً_ نجماً ساطعاً شديد اللمعان يقبع بجانب القمر من ناحية اليسار، تعالت نبضاته بقوةٍ فهمس في داخله "لميس" استثنى جميع ذالك الكون الذي كان يدهشه بإلهامٍ وكأنه أصبح لا وجود له وظل تائها في تأمل ذالك النجم الذي ذكره بأحدهم، ظل شاردا مع ذالك النجم لمدة ساعتين وكأنه يتحدث معه، يآنسه في تلك السماء الصافية التي لا ضجيج بها كما الأرض، فجأةً تغيرت ملامحه وحل الشجوُ مكان بهجته، إلتفت لتقع تلك الورقة التي علقها بجانب اللوحة في نظره ابتسم بحزنٍ ونقل بصره إلى الساعة معلناً هزيمته، فهذه المرة لن تفلح تلك الوُرَيقة في تهدئة أعاصير ماضيه، جحظ بعينيه عندما وجد الساعة قد

تعدت الثامنة ببضع دقائق، تأمل التقويم تحتها ليجده "١٤ فبراير" ومكتوبا تحته "الفالنتاين" تعالت نبضاته مرةً أخرى وتكرر نفس ذالك السيناريو للمرة الرابعة مع ذالك النادل قبل أربع سنواتٍ لما قدم لهم القهوة وقال "عيدُ حبٍ سعيد" غضب مالك منه وقال بإمتعاضٍ "أحمق، بالأمس كانت تلك الخرافة، أجابه النادل بنبرة أسف ليبرأ جملته "لا أقصد الفالنتاين يا سيدي، أنا أيضاً لا أؤمن به، لكن لدينا هنا هذه هي جملة الترحيب سواء في الفالنتاين أو غيره، فالحب لا عيد له لدينا.. الحب كل يوم، وعيدُ حبٍ سعيد"

ما زال متأسفاً ونادما على ذالك الموقف،ليته لو يجد ذالك النادل ويعتذر له بقبلة على جبينه..لكن هيهات، يستطيع مقاومة الماضي في العام كله.. لكنه يعجز عندما يغشاه هذا اليوم وخصوصاً هذه المرة.. قد أتى في وقتٍ جارحٍ، بعد ثمانية عشر يوماً من زواجه، وهذا اليوم هو آخر يومٍ له هنا في هذا المكان الذي وجد به ضالته والذي طالما أحبه كثيرا، غير أنه ذات التاريخ والوقت الذي غادر فيه بلاده، ناهيكَ عن أن هذه هي نفس تلك المدة التي سبقته فيها "لميس" إلى بارئها، جميع لحظات فراقه اليوم استيقظت لتحيي معه ذكرى ميلاد حبه الأول

حمل كتاباً في يده بعد أن أدى فريضته وارتدى الأبيض حتى قبعته وحمل جيتاره والحافظة الحرارية وقصد الباب متجها نحو الشاطئ ليحتفي وفاءً بعامٍ خامسٍ من سنواتِ حبه الذي ما زال مخلصاً له، ويعزي على روح فقيدته في يومِ لقياهما الأول بطريقته الخاصة، أحيانا يترك الله بداخلنا شيئاً من الماضي لا لنتألم.. لكن حتى لا ننسى كيف كنا

جلس على إحدى المقاعد وكل سهام أعين البشر تتأمله في حيرةٍ وغضبٍ والبعض يراه متخلفاً ويضحك ساخراً على ما يرتديه، وضع ذالك الكتاب في المقعد الذي بيمينه غير مبالٍ بنظرات تلك الحشود وبجانبه وضع حافظة قهوته، مد الجيتار في يديه راقب السماء تأمل ذالك النجم الذي بدأ الغيم في تغطيته _ربما لأنه قد أدى مهمته_ ثم دفن رأسه في أوتار جيتاره وبدأ بعزف موسيقاه تلك التي

أسماها "معجزة" وكل ما يأتي أحدهم ليجلس بجانبه يخبره بأن هناك شخصٌ آتي، رغم تكدس ملامحه التي توحي بالأسى.. إلا أنه قد تجمهر الناس حوله بكثافةٍ، لا لأنهم أول مرةٍ يرون شخصاً يعزف بجيتارٍ أمام الملأ.. لكن لإختلافه عن الجميع وروعة تلك الموسيقي وإحساسه النابض بها، لأنه عندما تفعل شيئاً ما بإخلاصٍ من أعماق داخلك.. تجد الناس معجبةً بك وتهديك الحب دون مقابل، ظل يعزف حتى بعدما فرغ الجميع.. إلى منتصف الليل، رغم أنه لا يرتدي معطفه الشتائي ولا أي مدفأة واقيةً من ذالك الصقيع.. إلا أنه قد أدمن الشتاء وقدسه أمام البحر في تلك الليلة الشتوية القارسة، ليس لأنه لا يشعر بالبرودة فيه.. لكنه يأمل أن لا يخلف عهده معها حين أقسم لها ذات ليلةٍ شتوية أنه سيحبها أكثر من كرهه للشتاء وأعظم من كُبر كل المحيطات وعمق البحار، لذا اراد ان يتحداهما كما وعد

بعد الثانية منتصف الليل لمح طيفاً يقترب منه وعندما انثنى للجلوس بجانبه مد يده بعزمٍ وأشار بالنفي دون أن ينظر إليه قائلا أن هناك شخصاً آتي، لم ينطق ذالك الشبح بكلمةٍ، جلب مقعداً آخر وجلس أمامه ليلفت نظره، لكنه حتى لم يرفع عينيه لكي يراه

ختم جلسته تلك بأغنية هادئةٍ كان يقول فيها

"يا لميس يا حروف ندية.. بعد فراقك أنا ايه أقول

العَبرة خانقاني وبقاوم.. في الدموع شان ما يشوفا زول"

أنهى الأغنية ووضع الجيتار جانبا، رفع رأسه ليجد أن ذالك الطيف الجالس أمامه ما هو إلا "لورين" زوجته التي كانت تنصت إليه بتعجبٍ وهو يغني، تأملته بدهشةٍ محتارة وبداخلها العديد من الأسئلة، ابتسم لها ببلاهةٍ، فسألته بإرتباكٍ وغرورٍ وغضبٍ مصطنعٍ

_ من الذي تنتظره؟

فقال: لا أحد

ثم رفع الكتاب والحافظة من على المقعد وأشار إليها بالجلوس قائلا

_فقط أنتِ.. تفضلي
ردت: لن أجلس بجانبك حتى تخبرني من هي "لميس" هذه التي تغني لها وتصدح بإسمها كلما تغفوا
نظر إليها بإستغرابٍ متعجباً مما تقوله، هل ذالك حقاً أنه كان يكرر إسمها في منامه؟! أجابته عن أسئلته تلك قبل أن ينطقها
_نعم، لقد كنت تتفوه بإسمها كل يومٍ في منامك، أخبرني من هي؟
ابتسم بسخريةٍ ثم أتبعها بنوبة ضحكٍ عالية بطريقة بهلوانية جعلتها تغرق معه دون شعور في نوبة ضحك هيستيرية حتى أخرجها من إنفعالها، بارعٌ هو دائما في الخداع، والأرواح المتناسقة لا تطلب جهداً للتفاهم فيما بينها.. تمتزج فوراً في كل شيءٍ دون مقدمات أو شرح، لكن ورغم ذالك لم يستطع كبح سؤالها الذي أخرجته فور هدوئهما
_أخبرني من هي؟ هل تحب إمرأة غيري؟
فأجابها: نعم
قالت بصوتٍ حزين يائسٍ وقد تغيرت ملامحها
_ من هي وأين؟
وضع ظاهر كفه على بطنها وقال بإبتسامة مطَمْئِنةٍ:
_هنا
تأملت يده التي على بطنها قليلا، صار وجهها بشوشاً، ثم رفعت رأسها وقد برقت عيناها بإبتسامة ممزوجةً بإكسير السعادة، فبادر قبل أن تخرج جملتها المعتادة بعدم تصديقها له عندما يدهشها في شيءٍ ما متيقنا أنها ستصيب هذه المرة، وقال
_لقد كنتُ أتمنى منذ أن رأيتك أول مرة أن أتزوج منك وأنجب فتاةً تشبهك نسميها "لميس"

***

"مذكرة مالك"

"أحياناً نتعلق بالأماكن أكثر من أصحابها، فالمباني والجدران لها صداقة أقوى وأصدق من حب بعض البشر، عندما تفارق داراً أو بيتاً نقشت فيه الكثير من الذكريات.. فإنك تشعر وكأنك قد تركت جزءاً من أشلاءك فيه، نعانق الأهل والأصدقاء عند الرحيل لأننا ربما لن نجدهم إن عدنا أو ربما نجدهم أشخاصا آخرين بأقنعةٍ أخرى، أو ربما لن يسمح لنا القدر بالعودة حتى نلتقي فيفرق بيننا بالموت أو النسيان، لكن الأماكن التي نتعلق بها لا نودعها عند الرحيل لأننا لن نستطيع نسيانها بسهولةٍ حتى وإن هُدمت وبُنيت مكانها تماثيلا، لأن ذاكرة الروح لن تمحوا من قرطاسها مكاناً أو شيئاً منحها الدفء يوماً ما، الأماكن هي أصدق شيءٍ في الأرض على الإطلاق، فهي لا تتغير أبداً حتى يفعل البشر بها ذالك، فالبشر مفسدون دوماً، يتلفون كل جميلٍ تقع عليه أعينهم القذرة، خلق الله لهم عقولا نيّرةً وميزهم عن جميع مخلوقاته.. فراحو يبحثون عن جميع مخلوقاته ليؤكدوا لهم أنهم الأبشع، هل رأيت يوماً مخلوقاً يقود بنفسه إلى التهلكة؟ البشر يفعلون ذالك؛ رغم أن الله منعهم عنها.. لكنهم صاروا من أفضل المخلوقات إلى أحقرها، لقد خلق الله لهم خضرواتٌ وفواكه لينعموا بها.. فراحوا يخلقون منها مساحق تجميلٍ يشوهون بها ملامحهم ودخاناً يحرقون به صحتهم "ربما قد صدقتْ تنبؤات الملائكة لما قالوا أننا سنقتل وننشر الفساد في الأرض" لكن إبليس كان مخطئاً عندما تكبر عن السجود وأغراهم بتفاحةٍ ليدعوهم معه إلى حفلةٍ تنكريّةٍ في الأرض ظناً منه أنه سيراوغهم بذالك ويضلهم عن الله، لكنهم أقنعوه فعلا بأنهم ليسوا بحاجةٍ لتلك المسرحية عندما سخروا منه وجعلوا من تفاحته دخاناً ينفثونه بإستفزازٍ من بين فتحات أنوفهم، البشر سافلون جداً حتى بغير وجوده في رمضان إن لاحظت ذالك، بالرغم من أن الشياطين مقيدةً فيه.. تجد أن بعض البشر منحرفين.

لا يهم، فالبشر لا يكفون عن الإتلاف، وأنا تعلقت بهذا المكان حد الإلتصاق ولا أرى أن في غيره راحة، ولكن لست أدري لماذا كلما أحببت شيئاً تدخل القدر بوحشية الفراق فيما بيننا، مثلما فارقت قريتي ومن بها في ولاية "نيالا" مثلما افتقدتك بعد سنواتٍ حبٍّ.. مثلما رحلت عن وطني حزيناً.. سأغادر الإسكندرية اليوم لكن برحيلٍ مختلفٍ عن تنقلاتي السابقة، سأغادر اليوم وأنا في أكمل توهّجات سعادتي، ما كنتُ أنوي الرحيل عن هذه المنطقة أبداً.. لكن وكما أخبرتيني قبل أعوامٍ أربعة أن " الحياة قصيرة جدا، فلا يمكن للمرء أن يختصرها بقرار واحدٍ أو أن يجعلها أسيرة في قفص حلم واحد" فأنا صرت بعد فقدانك أسير الإرتحال.. أحب التنقل بشكلٍ دائمٍ لأني أأْملُ أن يقتصُّ القدر من سنواتِ رحلتي في هذه الحياة التي سئمت البقاء فيها أو لعلّي ألحق بك في حادث سير مفاجئٍ، حتى عندما أتيتُ إلى "مصر" بدأت أطوفها كالذي يبحث عن كنزٍ ولا يعرف أين دفن تحديداً، أدمنتُ الإرتحال بشكلٍ مستمرٍ ومباغت لأنه ليس لدي ما أخشى فراقه، أتعلق بكل شيءٍ.. وسرعان ما أنساه، لكن هذه المدينة مثلكِ.. يُصعب نسيانها، فقد أحدثتْ فارقاً عظيماً في حياتي، أخرجتني من مستنقع سوءاتي الأدهمِ إلى قمة النور وسنام السعادة، كنتُ أتجنب قواحل الحب حتى لا أصبح ضحيةً لقصة حبٍ لم تكتمل، كنت فقط أبحث عن شيءٍ يثير سكينتي.. فوجدت الحب والراحة والطمأنينة جملةً واحدةً في مكانٍ واحدٍ أوصاني به صديقٌ حميم، وليس من السهل أن تنسى مكاناً غير مجرى قاربك نحو مرسى المسرة، والإسكندرية هي (موطن إله الحب العربي)

_قارئ مرةً، تارةً رسام، فوتوغرافي أحياناً، وطوراً موسيقار.. لا أدري إلى أي الفنون تنسب وبأي لقبٍ أناديك، على كل حال أنا قمت بجمع الأغراض في الداخل فهيا نجمّع هذه الأشياء إن كنت ترغب بإصطحابها

أغلق مذكرته بهمجية ووضعها في جيبه عندما سمع لورين تتحدث إليه خشية أن ترى ما قد كتبه، فهي منذ زواجهما تركت مسكنها وشاركته في

شقته، نهض من مكانه مبتسما بشوشا وأقدم ذراعيه عليها، أحاطها من خصرها الممشوق بكلتا ذراعيه، أخذها في صدره، ألصق جبهته بجبينها، تأمل عيناها الزرقاوان قليلا ثم قال بإبتسامةٍ:

_لقد وضع الله نصف جمال الكون في عينيكِ

فردّت وهي تضع يديها فوق كتفيهِ قائلةً:

_والنصف الآخر في ابتسامتك

تبادلا الإبتسامة ثم انطلقا في عنان قبلةٍ قابليةٍ ساخنةٍ طويلة المدى، أبعد من رحلتهما المنتظرة، غرقا معا في قاعِ محيط نشوتهما وكادا يفعلانها.. فانتفضت لورين فجأةً بعدما احمرت وجنتيها خجلا قائلة:

_لا وقت لممارسة الحب الآن.. يجب أن نُتأهب للرحيل.

بعد أن نقل الخدم جميع أغراضهما في سيارة النقل الخاصة بالفندق الواقفة في جراج أسفل البيدروم، أمسك مالك بمقبض باب الشقة ليغلقه، وفي حين إلقاء نظرته الأخيرة لمح تلك الورقة المعلقة بجانب اللوحة، ابتسم بلهفةٍ وأقدم عليها عكسها من الجانب الآخر وأعادها مثلما كانت، ثم أغلق الشقة ولحق بموكبه، ذالك الجانب من الورقة الذي وقّع تحته بخطٍ إبداعيٍ رقيقٍ وصغيرٍ بحروف إسم فقيدته لما كتب فيه بعد يومهما الأول من الزواج هذه الجملة

"الحياة قصيرة جدا، فلا يمكن للمرء أن يختصرها بقرار واحد، أو أن يجعلها أسيرة في قفص حلم واحد."

الفصل الرابع
"صُدفة"

"اللقاءات التي تأتي مصادفةً هي أجمل ما
تهدينا له الأقدار"

"مصطفى نمر"

لندن/بعد مرور تسع سنوات

"مذكرة مالك"

"دخلنا المتجر لشراء، دراجة صغيرة لإبنتي التي بلغت للتو سنها الثامنة، ولما مررنا بناحية جانب الدراجات الكهربائية وجدنا شابا يريد شراء دراجةً كهربائيةٍ متحركة "أوتوماتيكية" لأمه التي تقاعدت وبرفقته والده الذي بدا مندهشا ومتعجبا من تلك الدراجة التي تسير وحدها دون أن يلمسها أحد؟ كان الجميع يتأمله بإبتسامة عفوية والبعض يصوره وهو يتابع الدراجة ويركض خلفها بطريقة بهلوانية منبهرا من هذا الأمر، أنا أيضا كدت أخلع من رقبتي كاميرتي التي أهدتني إياها لورين منذ ذكرى زواجنا الأول، لكني تجاهلت الأمر ووضعت كفي على فمي، ضحكت بعمقٍ من داخلي عندما تذكرت مقولة لتلك الكاتبة الروسية الساخرة "تاتيانا ألكسيفا" حينما قالت في إحدى روائعها بسخريةٍ كعادتها

"أمي كلما انتهى شحن الموبايل تظن أنه تعطل، وأبي يحمل في جيبه دفتراً يسجل فيه أرقام الهواتف ويستعين به كلما أراد إجراء مكالمة من موبايله، وعمتي تستعمل فلاش الموبايل كي تضيء به ساعتها عندما تريد معرفة الوقت. سؤال يلحّ عليّ: كيف استطاع جيلهم الوصول إلى القمر؟!"

التفت بوجهي إلى الناحية الأخرى واضعا كفي على فمي حتى لا يلحظ الناس ضحكتي الشامتة، لكن سرعان ما تبدلت ملامحي من ضحكة سخرية إلى ابتسامةٍ دهشةٍ واسعةٍ لا تخلو من الحيرةِ لما لمحته واقفا برفقة فتىً صغير يبلغ عمره حوالي عشر سنوات تقريباً وبجانبه إمرأة جميلة بيضاء تميل وجنتاها إلى اللون الوردي قليلا، ترتدي الحجاب الإسلامي بعباءةٍ سوداء وطرحةٌ باللون الأبيض وتلبس ساعةٌ نسويةٌ ذهبية في يدها اليسرى وحقيبة

يدٍ طويلةٍ تعلقها في كتفها، عيناها زرقاء ممددةٌ وكأنها من فصيلة "المنغوليا" تشبه إلى حدٍ ما سكان شرق آسيا، كانت تقف بالقرب منه وتداعب الفتى الذي بدوره يشير لها على إحدى الدراجات الهوائية، وقفت أتأمله لبرهةٍ فاتحاً فمي مذهولا، وهو أيضاً صُدم لما رآني، ظن أني خيالا أو سراباً يتخيله كما يتخيل فقيدته، أطال النظر إليّ لبرهةٍ، هرولت إليه بخُطىً مسرعةً كأن شيئاً ما يدفعني إليه، فتقدم هو نحوي بخطاوٍ بطيئةٍ، لا يصدق ما ترى عيناه، وقفنا في نصف الصالة أمام بعضنا، زمجر بجبهته، صغُرتْ حدقتا عيناه اللتان يحجبهما حاجز زجاج نظارته التي يرتديها، أشار نحوي بسبابته التي تراخت بشدةٍ من أنياب الزمن، رمقني بدهشةِ من يرى مشاريع "القضارف" لأول مرةٍ وهو يفكر "كيف أن يمس الضرم هذا الشعب؟". أو كموظف ابتلع غيظه لأنه يعمل في ميناءٍ "بورتسودان" ولا يستطيع شراء كيلو من اللحمة لأبنائه. تأملني بحيرة ممزوجة بشكٍ ويقينٍ أن ما يراه سراب، ثم قال متسائلا بصوتٍ مرتبكٍ بعد ترددٍ

_مالك؟

كنت أنا أيضاً مثله مرتبكاً ومحتاراً ولكن ليس كحيرته، فأنا أعلم أنه قد رحل ولن يعود، لكنه لم يتخيل بأنني أيضا سأفعلها، فأجبته مذهولا بسؤالٍ أبادله الحيرة فيه

_عم عمران؟

ثم تبادلنا عناقاً طويلا أفرغنا فيه كل الأشواق التي احتضناها لمدة لا تقل عن عشر سنوات، أعدنا على إثره كل الذكريات، عناقاً كان بمثابة عمرٍ، سدد كل الفراغات التي كانت تنقصها تلك السنين الغابرة، ثم تسالمنا وتبادلنا أطراف الحديث، لكنني صُعقت عندما أخبرني بأن السيدة والطفل اللذان يقفان بجانبه هما زوجته "سيلينا" وإبنه "رامي" وأتيا لجلب دراجة لإبنه، تساءلت في داخلي وشردت بعيداً ببرق تساؤلاتي" لماذا فعل ذالك؟ وأين هي؟

هل تخلّى عنها؟ هل انفصلا؟ وكيف حدث ذالك "أخرجت سؤالا من التي ضاقت بقفص صدري ورميته عليه قائلا في حيرةٍ:

_وأين عمتي سلمى

رمقني بنظرة لا تخلو من الأسى وإبتسامةٍ بلاستيكية لا ترفض ولا تجيب، وقال لي أن مجرى هذا الحديث سيطول قليلا، إقترح لي أن نجلس في إحدى المقاهي لنتحدث برخاءٍ بعد قضاء حاجياتنا، وافقته على ذالك، وقبل أن يكمل سؤاله عن سبب مجيئي إلى هذا المتجر رأيت لورين وهي تهرول إليه كطفلةٍ تركض ناحية والدها الذي كان ينتظرها أمام مدخل المدرسة حاملا في يده "عروسةً" بلونٍ أزرق

افترستْ ملامحه، تأملتْها بدقةٍ، ثم قالت وهي تصافحه

_انكل عمران؟ كيف حالك، أين إختفيت كل هذه المدة لقد اشتقنا لك كثيرا،(وأردفت وهي مبتسمة حد الضحك) وأين القطة البرية

بادلها الإبتسامة هو أيضاً والتحية، ثم أخبرها بأن القطة البرية رفضت اصطحابه هذه المرة، صُعقت أنا في تلك اللحظة.. بل وكدت أُجن، من أين عرفت لورين هذا الرجل؟ هل هو عمها كما نادته؟ وماذا تقصد بالقطة البرية؟ لكنني توقفت عن تساؤلاتي لما أقنعت نفسي بأنه ربما كان صديقا لوالدها، فوالدها ثريٌّ جداً ومن المتوقع أن يكون على حدود واسعة من المعرفة، ولأن الأثرياء هم من يختارون رفاقهم بدقةٍ.. أقنعت نفسي بأنه رفيق والدها، اضطررت على تقديم عائلتي الصغيرة له لما ألقاني خلسة بنظرة تساؤل عندما رأى طفلة تتشبث بذراعي، فقلت له:

_هذه لورين.. زوجتي، وهذه (صمتٌ لبرهةٍ، ثم قلت مبتسماً بصوتٍ شجيٍ بعد تردد) إبنتي... لميس

جحظ بعينيه وتوسعت حدقتاه بتعجبٍ تكسوها مسحة حزن وامتنان، إبتسمت زوجته بإبتسامةٍ تخفي خلفها ضحكة ساخرةً أكاد أسمعها عندما رأتني أغمز له بأن يكتم، فأنا لا أريد أن أفصح لزوجتي بأنني أعرفه حتى

لا تدري بأني أنتمي لذالك الوطن الخبيث، فهمني، فهز رأسه وردد متجاهلا إيايَ بنبرة من لا يعرفني من قبل قائلا

_تشرفنا

إفترقنا في المتجر بعد أن أخذت رقم هاتفه، وبعد أن أنهينا التسوق أقنعت لورين بالعودة للمنزل وأني سألحق بها بعد أن تحججت لها بأن لدي لقاءٌ مع أحد أصدقائي القدامى، اتصلت به بعدما فرغنا من التسوق فأخبرني بأنه ينتظرني في مقهى (Story Coffee) أخذت سيارة أجرة وذهبت إليه

بعد ربع ساعة التقيت به، وجدته جالسا في طاولةٍ بعيدةٍ تحتل آخر زوايا المقهى، أشار إلي بيده من بعيد لما رآني أبحث عنه في وجوه الزبائن، أقدمت عليه، نهض من مكانه.. حياني، جلسنا معاً، طلب من النادل أن يحضر لي قهوة دون أن يسألني ما الذي أود ارتشافه لأنه يدرك ما الإجابة، لقد ورثت ذالك عن إبنته وعنه، تناولنا أطراف الحديث كعادتنا تمهيداً للمواضيع العميقة، تناقشنا قليلا عن لندن والأمور الفنية والسياسية

لكن كان أكثر ما يشغل بالي هو أمر زوجته "سلمى" ودون مقدمةٍ سألته عنها فقال لي بأسفٍ

_رحمها الله

فقلت منفعلا: ماذا تقصد؟

قال: هكذا هي الأقدار يا بُني، فالأجل لا يُؤخَّر، وبعض الصمت يُكوّم جبالا من السخط في دواخلنا، وعندما تثير براكينها لا نستطيع المقاومة

_كيف حدث ذالك ومتى؟

رمقني بنظرةِ من يبحث عن شيءٍ دقيقٍ ولم يجده.. فارتشف جرعةً من قهوته ثم قال

_عندما سقط النظام السابق بعد عامين من مجيئنا إلى هنا وبعد سفرك أنت إلى مصر، إتصل بي أحد أصدقائي كان يعمل مع رجال لجان المقاومة وانتقل إلى قوى "الحرية والتغيير" بعد الثورة التي أقيمت في ٣١ سبتمبر

والتي خُلع فيها "عمر البشير" إتصل يخبرني بأن "فيلتي" ومنزلي اللذان كنت أملكهما في "المهندسين" قد صودروا من قبل سلطات النظام الجديد مع الكثير من الأراضي التي لا علاقة لأصحابها بحكومة النظام السابق، وأوضح أنهم صادروها باعتباري تابعاً لحكومة "الكيزان" وهربتُ عندما اندلعت شرارة الثورة.. فطلب مني المجيء في غضون الثلاثة أيام المقبلة لأنهم أمهلوني إياها كحد أقصى لأنهي التحقيقات التي تنتظرني هناك بعد أن أقنعهم هو بأنها ملكي وأني لا أنتمي للنظام السابق، في البداية رفضتُ أن تأتي معي لكنها أصرتْ بأن ترافقني، عدنا معاً.. أنهيت أنا مهام الفيلا بعد أن دفعت الكثير حتى أسجلها من جديد في هيئة العقارات بإسمي، وفي ذالك اليوم ذهبت لزيارة صديقي "عبد العزيز الكلسي" في منزله ب "أمبدة، الحارة العاشرة" وكان ذالك بعد ظهر الجمعة بعد أن رفضتْ سلمى مرافقتي وتحججت بأنها تعاني من الضغوطات والحمى بسبب الحرارة، واقترحت لي بأن نعود غداً إلى لندن.. فوافقتها

جلسنا في بهو البيت أنا وصديقي عبد العزيز برفقة أبنيهِ عادل وموسى نرتشف قهوة العصر بعد الغداء، رن هاتفي وكان المتصل حينها عبد الباقي والد لمى يخبرني بأن سلمى قد انتحرت بعدما أطلقت النار على عماد ومعتز الشقيقينِ الذيْن كان يعملان في قوات "الدعم السريع" والذيْنِ قتلا لميس.!

فجأةً وجدتني أبكي.. دموعي تتناثر بتوالٍ ولا أستطيع كبحها، ناولني منديلاخففت به أدمعي، طبطب على كتفي مطمئنا إياي بكلماتٍ مواسيةٍ، بينما هو لم يذرف دمعةً، ما زال هو على حاله رغم شيخوخته وتجاعيد وجهه التي تبين أن الوقت قد انتزع سنوات عمره بعتوٍّ دون رحمة، تظاهرت بالسعادة لما قال لي ساخراً بضحكةٍ منخفضة ليخرجني من جُبّ حزني

_لقد كبرتَ ولم تتغير، ما زلت تتأثر بالموت وتبكي كطفلٍ رضيع، يا سوء ظني عندما تخيلتك أباً

ثم صفق كفيه برفقٍ يدعي الأسف وبعدها تناول فنجانه، أخذ جرعة من قهوته، فارتشفت أنا أيضاً جرعةً، ثم سألته:

_متى تزوجْت؟

أجاب وهو يضع الفنجان بعد آخر رشفةٍ

_بعد انتقالنا إلى هنا بعام."

كانا يتحدثان عن الوطن تارةً، وأخرى يتبادلان الأسئلة، حتى رن هاتف عم عمران، فاستأذن من مالك ووعده بلقاءٍ آخرٍ في وقت أكثر إتساعا

ليس من الضرورة أن نكون على اتصال دائم، فاللقاءات التي التي مصادفة هي أجمل ما تهدينا له الأقدار، أحيانا تتعثر خطانا في رجّات الأقدار الفُجائية فنظن أنها أهملتنا وتخلت عنا، بينما هي ترتب لنا حفل سُعدٍ جديد في ناحيةٍ أخرى نعجز عن رؤيتها، والذي فعلته بنا ما هي إلا مقدمةٌ للموسيقي التي سترقص عليها الأفراح ترحيبا بنا، لا يجب أن نتأنى كثيرا عندما يدع لنا القدر إحتمالات النجاح أو النعيم، بل يجب أن نعافر ولا ننظر خلفنا حتى لو احترق الجميع، لأن تلك النظرة ربما ستعيدنا ألف عامٍ إلى ما بعد الإنحدار والندم، لكن قبل ذالك يجب أن نتأكد أنه لم يعد لدينا أبداً ما نخسره، وأننا استغنينا عن كل شيء.. إلا أحلامنا

لقد سرى مالك في طريقه وعمَى نظره عن رؤية كل الأشياء خلفه وأمامه.. إلا حلمه، ولما التقى به وألقى نظرةً على تقرير ماضيه.. إزداد حسرة وتوجعاً، لقد كان مخطئاً عندما ظن أنه ليس لديه ما يخسره

لم يمضي الكثير من الوقت مع عم عمران، لكنه أخبره عن الكثير من المعلومات التي لم تصله طوال سنوات غيابه، قد كان يبكي كطفلٍ نهرته أمه عندما أخبره العم عمران بأن صديقه حمدان قد توفى متأثراً بمرضٍ لازمه الفراش لأيامٍ لما كان يتأهب لمناقشة "الدكتوراه" بعد مناقشته رسالة "الماجستير"

حمدان ذالك الرجل التقي الزاهد الذي كان يعاني من مرض "الغضروف" رغم فرق السن الشاسع بينهما.. إلا أنه كان صديقه المقرب إليه من بين الجميع، الذي تعرف عليه بواسطة أخيه "جبران" لما كان يزورهما توالياً، رغم أنه لا تجمعهما سوى الجامعة..إلا أنه أصبح كشقيقٍ له، كان يدرس في كلية الشريعة والقانون، إختارها لأنه عانى من الظلم كثيرا في حياته من أقربائه وحتى من أمه وأبيه، غير أنه قد فقد تسع سنوات من عمره ظلما في سجون "ليبيا" حتى خرج بالإفراج لما قُضيَ على "معمر القذافي"

لقد عانى الكثير في مشواره العلمي، ولم تكن أحلامه سوى أن يكون محاميا أو قاضيا يُحيي في وطنه العدل الذي افتُقده وأفقده، لكن كان للموت رأيٌ آخر، فهو لا يختار إلا الطيبين، الدنيا لمن لا حياة لهم هناك، الذين قدّمو لحياتهم الأخرى لا يؤخرهم الله كثيراً هنا، لقد رحل حمدان ورحل معه كل شيء.

رحل وترك مالك في حسرته وأحزانه، لقد تثاقلت الضربات على قلبه الموجوع، منذ أن دخل الجامعة وهو يفقد كل عزيز.. ولا عزيزا يتفقده، يبدوا أن لعنة العلم قد حلّت عليه، لقد بدأ بأخاه أولا، ثم لميس التي ما زال متيما بها، وبعدها والدتها التي كانت تحمل بعض خصالها، تبتسم له.. فيتأملها ليرى لميس قابعةً في وجهها تراقبه من بين عينيها، تؤانسه.. فيسمع في صدى صوتها همس لميس وترانيمها التي تُنير حياته الداخلية، فقدها تلك النسخة طبق الأصل من مسببات مسرّته، وأخيراً.. أخيرا حمدان، الذي دائما ما كان يدله على الطريق الصحيح، يستشيره حتى في أصغر الأشياء، يذكر أنه في يومٍ ما وعندما اختلف مع أخيه، في غفلة دخل حمدان "العمارة" فوجده يجمع أغراضه تهيئاً للسفر، سأله: "إلى أين؟" أخفى مالك الحقيقة عنه وقال بأنه ذاهبٌ لإكمال دراسته في "الأزهر الشريف" رغم أنه كان يُخفي ملامحه عنه، إلا أن حمدان قد علم بسره، لم يعاتبه فقط قال "أنا لا أصدقك، لكن لن تستطع القراءة إن ذهبت هناك" ابتسم مالك وهمس في

أذنه "سأخبرك عن السبب لاحقا" هو الوحيد الذي كان يحل له أكثر عقداته.. وها هو قد رحل.. لقد أخذت الأقدار كل ما كان يرغب بالحفاظ عليه ولا يدري متى يتوقف قطار القدر المخيف هذا أو أين يرسوا

***

"تقدل طفلة حلوة وبين يديها كتابا والحبوبة تمسح بالحنين اتوابا
القمرية تصدح.. تستريح دبابة.. القطر القبيل يمشي ويشق الغابة
البالمبو يفتح للقلوب ابوابا.. والنقارة زي.. أم كيكي.. والربابة
بلداً هيلي نا"

دخل مالك بعد عوته بغتةً كان منهكاً والحزن يمطر من بين ملامحه ليجد هذه الاغنية على جهاز اللاب توب، كانت تشدو بها صاحبة الحنجرة الذهبية، أنثى الفن وسندريلا الغناء السوداني "نانسي عجاج" ولورين تلاعب طفلتها بمرحٍ ومسرةٍ وتردد مع الأغنية بشغفٍ وإحساسٍ بليغٍ، تقلد بصوتها تلك المتألقة بدقةٍ.. وكأنها هي من تؤدّي الأغنية، والطفلة تصفق.. تضحك.. وتداعب خدود والدتها بحب وبراءة، إستغرب مالك لما راها، أصابته الحيرة والدهشة وقف مذهولا لا يدري كيف يعبر عن هذا الموقف، كيف يمكن هذا؟ من أين أتت بهذه الأغنية؟! هلعتْ هي لما رأت طيفاً يقف خلفها، تفاجأت بوجوده، لم يصدر حركةً ولم يلقي التحية حتى، أخفضت صوت المشغل قليلا والتفتت إليه، قطبت حاجبيها في حيرةٍ وتأملته لبرهةٍ، حاله كان مزيجاً ما بين الحزن والدهشة، فقالت مازحةً وهي تحدث نفسها، تسأل وتجيب

_يا ترى هل هو جائع؟.. لا؛ حسنا ما الذي يشغل باله حتى انه لا يلقي التحية؟

خرج من شروده وقال مبتسما:

_مساء النور

ردت له التحية بإبتسامةٍ، ثم سألتْه بعبثٍ وهي تتأمله

_لماذا أراك شارداً هكذا؟ ما الذي حدث هل تشاجرت مع صديقك!؟
أجابها بإبتسامة بعد قهقهة ضحكةٍ تلقائيةٍ من براءتها
_ لا، أنا بخير فقط هذه الأغنية أشعر وكأنني سمعتها من قبل، من أين لكِ بها؟
انزوت بعيناها ناحية الجهاز وقالت له:
_نسختها قبل سبعة عشر عاما "تقريبا" من حاسوب صديقة لي من "السودان" تدعى "مريم" التي كنتُ أتمنى أن نسمي إبنتنا عليها، أتت إلى هنا برفقة والديها للدراسة وكنا ندرس معا في كلية "الآداب"بنفس الفرقة في جامعة "كامبيردج" غير أن تخصصها هي في "اللغة العربية" وأنا في "اللغة الفارسية" كنا نجلس معا أكثر الأوقات حتى في القاعة عندما تكون لدينا محاضرات مشتركة لا نفترق، علمتني الكثير من الأمور الدنيوية والكثير من ثقافتها حتى صرتُ أرتدي الحجاب الإسلامي أحيانا رغم أني لم أكن مسلمةً آنذاك، فقد كنت أصير مثلها.. أكثر أناقةً وجمالا وأنا أرتديه، كانت لي أكثر من صديقة، هي من علمتني العربية وصرت انطقها بسهولة مثل أبي لكن لم تعجبها لندن فغادرت الى بلادها لتكمل دراستها هناك، لقد كانت تحن لوطنها وتهتم به أكثر من اهتمامها بدراستها، حدثتني كثيراً عنه حتى تمنيت زيارته لكنها أخبرتني بعدم الذهاب إليه لأنني لن أتحمل العيش هناك؛ قلت لها عندما صممتْ على المغادرة: "قد عشتِ عاما كاملا هنا بإمكانك استكمال دراستك والتأقلم مع الوضع" فقالت لي: "أولا.. أنا صبرت لهذا الوقت حتى لا أخسر سنة كاملة، وثانيا الذي جعلني أصبر طوال هذه المدة... هو أنتِ، لولاك لما صبرت يوماً هنا" عانقتُها بحرارة، بكينا كثيرا يومها لم أتذكر أنني ذرفت دمعا من عمقي بقدر ما نثرته في ذالك اليوم، قلتُ:
_ سأحزن ولن أستطيع العيش بدونك
فرددت لي بحكمةٍ كانت تكررها لي كلما رأت حزنا يستوطن ملامحي وتغيرها حسب الحال، فقالت لي ونحن في آخر لحظاتنا معاً بمطار "هيثرو"

"الحياة قصيرة جدا، فلا يمكن للمرء أن يخسرها بفقدان شخصٍ واحد" صغيرةٌ هي بعمري أو أقل، لكن كان لها عقل يزن جبالا من الفطنة، لقد أذهبتْ حزني، رسمت بسمة على ثغري رغم كمدي وهززتُ رأسي بالموافقةِ فبادلتني الإبتسامة هي أيضاً وربتت على كتفي قائلةً "إن رأيتِ أحداً يائساً من هذه الحياة.. طمئنيه بهذه الجملة وخذي أنتِ الثواب"

"عزة ما سليت وطن الجمال.. ولا ارتضيت بديل غير الكمال
وقلبي لي سواك ما شفتو مال.. خذيني باليمين ونا راقد شمال
عزة في هواك.. عزة نحنا الجبال"

توقفت عن الحديث عندما سمعت هذا المقطع من الأغنية بعدما تلت تلك وكانت أيضا تغنيها "السندريلا" تلك المرأة التي ربما حتى الفن قد عشقها أكثر من نفسه بحيث يصطحبها معه أينما اتجه، فكانت تغنيها آنذاك في حفل "سودان المحبة" بالعاصمة السعودية "الرياض" نقلت أنظارها نحو الجهاز مرةً أخرى، صمتت قليلا وهي تتأمله، ثم أردفت وهي تتابع الأغنية بشغفٍ

_هذه هي أغنيتها المفضلة، كانت تردد استماعها بشكلٍ دائمٍ حتى حفظتُها عن ظهر قلبٍ.. فصارت أغنيتي المفضلة

كان مالك في حالة صدمة وحيرةٍ لا تُوصف "هل هي تجيد تلك اللغة؟ هل كانت تفهم كل أغانيه؟ لكن لماذا كانت تتظاهر بالحماقة؟ هل هي كانت تعرف بأنه يكذب لكنها كانت تجامله؟ لا لا لا"

أخرجته من شروده لما عبثت بجهاز "اللابتوب قليلا" وأثبتت بشاشته صورتين للفنانة "نانسي عجاج" وقالت بإبتسامةُ مكرٍ

_هذه هي الفنانة التي كانت تغني، هل ترى فرقا بين الصورتين؟

في البداية أجاب: لا

لكنها رفضت رأيه وأخبرته بأن هناك فرقاً بينهما، اقترب قليلا من الجهاز وإبنته ثاويةً على ظهره تعبث في خصلات شعره وتدندن مع موسيقي تلك الأغنية،

تفرس ملامح الصورتين جيداً، وضع سبابته على الصورة الأولى وقال ساخراً يمازحها

_هنا يبدوا أنها مثلكِ، عجوزاً قد تلاشت ملامحها

قرصته في ذراعه عاضة على شفتيها ضاحكةً بهمسٍ قائلةً "وغد" فضحك بصوتٍ هامسٍ وواصل بإبتسامته قائلا

_لكن هنا...،؟!

توقف عن الحديث وتأمل تلك الصورة مليا، تزلقت دمعات حارقةً كانت متجمعةً حول حوافّ عينيه مرت على وجنتيه عبرتهما مسرعةٍ وكأنها تستتر خوفاً من أن يراها أحد أو أنها كانت تنتظر ميعاد السقوط بعدما مزقها لهيب الإنتظار، تتابعت بعدها قطراتُ دمعٍ جثت على قميصه حتى بللته، لم يستطع تكابح ذالك الحزن الذي سيطر عليه بغتةً، ظل يتأمل تلك الصورة وتنهمر دموعه بتنهيدات أسفٍ ولهيب وجعٍ إشتعل بصدره، وضع راحتيْ كفيه على وجهه وظل يبكي ويبكي، لم تستطع لورين تحمل تلك اللحظة حاولت أن تهدئه من وتيره بكاءه أو تفهمه لماذا وما السبب الذي يبكيه لكنها فشلت في ذالك ولم تتمالك أعصابها حتى وجدت نفسها قد انهمرت بالدموع وشاركت زوجها في نوبة ذالك البكاء الذي لا تعرف أسبابه، ودون شعورٍ واربٍ انضمت إليهما تلك الصغيرة، لكن بعد وهلة من البكاء والتفكير استجمعت قوى فطنتها واستطاعت تخمين أن الذي يبكيه ربما هذه الأغنية أو إحدى هاتين الصورتين، فأوقفت الأغنية وأغلقت الجهاز، لكنه ظل يبكي ويبكي حتى توسلت إليه وترجته أن يتوقف من أجل هذه الصغيرة التي لا تكف عن البكاء إلا عند رؤية ابتسامته، لأول مرة يشعر بالضعف، لأول مرة منذ سنين يبكي بهذه الطريقة، كفكفت أدمعه من على جبينه وأخذته في حضنه لمدةٍ وهي تمسح بكفها على ظهره تطمئنه ببعض كلمات المواسات حتى هدأ.. فسألته ما الذي يبكيه، فاعتدل في جلسته وعاد لطبيعته وبدأ يجاوبها أخبرها أن مريم التي تقصدها والتي على هذه الصورة هي نفس تلك الفتاة التي حكى لها عنها قبل تسعِ

سنواتٍ في شاطئ "ستيفانو" وذاتها هي"لميس" التي كان يغني لها بإستمرارٍ والتي سمى عليها إبنتهما

اندلعت الدهشة على ملامحها وأخبرته بأنها أيضاً عندما عرضت عليه إسم "مريم" في ميلاد صغيرتهما كانت تقصدها هي، لكنها سألته: لماذا أسمها لديك "لميس" وعندي "مريم"؟

فحكى لها قصة تسميتها وهنا عاد بذاكرته إلى ما قبل خمسة عشر عاما لما كانت "لميس" تخبره عن نزاع والديها في إختيار إسمها ما بين "لميس وعائشة" وإختيار أجدادها إسم "مريم" لحسم الصراع، وتذكر أيضاً تلك اللوحة التي يتوسطها هذا الإسم في مقبرة "أحمد شرفي" سقطت دمعة متخفية من عينه فمسحها دون أن تلاحظ لورين ذالك، لكنه فجأة زوى ما بين حاجبيه محتارا في هذه النقطة، كيف حدث هذا؟ هل هو مصادفة أم انه ترتيب القدر لتعويضه عن ما سبق؟ أيقظته لورين لما سألته بعجبٍ

_وكنت تخفي عني كل ذالك؟

قال بتلعثم: نعم، مثلما أخفيتِ أنتِ

قالت:لا، أنا ما أخفيتُ شيئاً، فقط لم تأتي اللحظة المناسبة، واليوم لما رأيت والدها فوراً تذكرتها وعدت إلى هنا أتأمل ذكرياتي، لكن أنت.. لماذا أخفيت عني كل ذالك رغم أني كنت أسألك أحياناً.. لماذا؟

قال: لأني لا أريد أن أحملك عبء أحزاني وأفتقدك مثلما افتقدتها

قالت: أنا لا أحمل الأحزان، أنا أخفف ثقلها على حاملها كما كانت تفعل هي

نظر إليها بودٍ ثم ابتسم، فبادلته الإبتسامة هي أيضاً ثم سألته

_هل تعرف أين هي الآن

أجابها: رحمة الله عليها

جحظت بعيناها، تحولت ملامحها إلى الحزن المكثف، أخفضت رأسها قليلا، تمتمت ببعض دعوات العزاء.. لكنها لم تدمع، فاستغرب هو، سألته كيفَ ماتت، فأجابها

_أُغتيلت من قِبل حكومة النظام السابق بعيارٍ ناريٍ أُطلقَ عليها في إحدى المظاهرات

رمقته بنظرة أسفٍ متعجبةً وهي تقول

_عيارٌ ناريٌ؟ وفي مظاهرات؟!.. كيف قُتلت بهذه الطريقة الوحشية وهي التي كانت لا تكف عن الحديث عن وطنها ومتابعة أخباره كل يومٍ بل ووتكره العيش خارجه؟

فقال مجاوباً إياها بإبتسامة لا تخلو من الحيرة الساخرة والأسف الشديد

_هه.. أنتِ لا تعلمين شيئاً، إن في وطني.. الذين يطالبون بحقوقهم ويحلمون بحياةٍ مبسطةٍ في وطن مسالم وجميل، غالبا ما سيكونون الأوائل في بقيع الشهداء، وكانت هي من ضمن تلك الضحايا التي قدمت أرواحها قرباناً من أجل إصلاح الوطن.. فمات الوطن معها وحتى الآن ما زال تالفاً مهترئاً مفتتا لم يستطع أحد جمعه، خلع الشعب رئيسه وما جاء بعده حداداً على روحها لكنه لم يزدد إلا سوءاً وتفككا

اشتدت حيرتها.. تنهدت بنبرة حزينةٍ وهزت رأسها بالنفي متأسفة عندما أردف قائلا:

_ إن حكومتنا تحرص على إطلاق النار على المتظاهرين أكثر من أعدائها، ناهيك عن الغاز المسيل للدموع، فقادتنا طُغاةٌ ولا يمتلكون ذرةً من روح الوطنية في داخلهم.

هو ما زال معارضاً لتلك الحكومة يقاطعها ويكرهها بشدةٍ فهي من عكست لوحة أقداره لمرآة الخزي والعذاب، وهو له الحق في ذالك.. وكرهها من واجبه، فحكامنا وحكومتنا لا ترغب بالعدل أبداً ما يهمها فقط هو أن تدوم طويلا في رفاهية الملك، تنهب الشعوب غصبا وتواجه من يثور عليها بالقتل والتعذيب، وإن معظم الشعوب التي نهضت ثائرةً.. لم.تكن طموحاتها سوى الحرية وبعضاً من المطالب الصغيرة التي لو تكفل بها أحد التجار لسددها، ولكن حتى بعض التجار يقفون في صف الحكومة لتبسط لهم الإجراءت وتساعدهم في تهريب

ممتلكات الدولة، لذا عمل بعض رجال الأعمال بجهدٍ بالغٍ لتأسيسِ أحزابٍ متفرقة بمسمياتٍ مختلفةٍ للثوار تدعمهم للتفرقة.. ونجحوا في تفرقتهم، لقد كان الشعب يداً واحدةً وكانت غايته وحلمه هو بناء وطنٍ مسالمٍ وجميل، لكن عندما انحرف قليلا.. نجحت الحكومة في تبديده فصار فرقاً مجزأةً وفقد مبادئه.. ففشل

يقول "تشي جيفارا" وهو القائد الثوري الكوبي المعروف لدى الجميع "عندما لا تحمل الثورات القيم والأخلاق الإنسانية السامية كمبادئ لها تكرسها وتغرسها في النفوس فإنها لن تجد غير قيم واخلاق الظالمين الذين ثارت ضدهم".

لذا.. عندما تتنحى _ولو قليلا_ عن الطريق الصحيح. فاعلم أنك قد ضللت وجهتك، لذالك لن تحصد الإنتفاضات الثورية سوى الدمار والمزيد من القتلى إن لم يكن أساسها التوحد والأخلاق النبيلة

***

_هناك أشياء لا يجب اقتنائها ولا تليق بنا نحن كمسلمين، لكننا نفعلها رغماً عن ذالك أحيانا، لا لأننا لسنا ملتزمين أو لا نخاف الله.. لكن لأننا بني آدم ضعفاء.. تلهينا أقل الملذات تفاهةً

قالها مالك ثم واصل العزف بهمةٍ لما خرجت عليه لورين ووجدته جالساً على الأريكة في شرفةِ المنزل الواسعة وهو يعزف موسيقته المحببة إليه "معجزة" سألته عن بعض الأشياء من ضمنها "الموسيقى" وحكمها في الدين الإسلامي، لم تكن غايتها المعرفة بل كانت الغيرة، قرأها في عينيها بوضوحٍ.. فأجابها بذالك ولم يكترث لها، كانت تغار عليه من تلك التي اختلست عقله وروحه وفؤاده.. ومن ثم رحلت بهم، تغار من حبه وإخلاصه لها رغم علمها أخيراً بأنها صديقتها القديمة المقربة إلى قلبها لكن القديم لدى الغربيين مهما غلى ثمنه.. فهو قديم، وإن الغيرة في النساء سجية لا يستطعن التغلب عليها، وإن الرجال إن أحبوا بصدقٍ.. لن يسلب حتى الموت وفاءهم، لذالك هو ما

إن يرى ذالك النجم حتى تهيج عواصف الماضي بقلبه، على الرغم من أن سماء لندن لا تصفوا إلا قليلا.. لكن حتى في تلك اللحظات النادرة التي تزرقُّ فيها يبين له ذالك النجم ليشعل بداخله لهيب الذكريات، يبدوا أن السماء هناك لا تصفوا لأجل سكان المملكة.. بل من أجل أن تظهر له ذالك النجم وتعيده إلى قاع الذكريات

سألته لما فهمت أنه قد اطلع على خبايا عقلها قائلة

__أنت تعلم أنها غادرت ولن يفلح عزفك في إعادتها إذن لماذا تغني لها وتهدر الكثير من الوقت عبثا؟

وضع الجيتار جانبا ورضخ لإرادتها، علم بأنها تنبهه بترك العزف ومحاورتها بدلا من ذالك، التفت إليها ورمقها بإبتسامةٍ هازئةٍ تلخص سخريته منها، لتقطب هي حاجبيها لهفةً ويشتعل اضطرام فضولها في المعرفة أكثر، قال وهو يخرج لها ما بداخله دفعةً واحدةً

_أنا لم اغني ولا أعزف من أجلها، أنا أفعل ذالك من اجل الشعور الذي تركته بداخلي، لقد ملئت لميس بداخلي فراغاً لم يكن أحدٌ ينوي الإقتراب منه

هزت رأسها مجيبة بالموافقة بأسىً شديدٍ وكأنها تعزيه في فقيدته، فأردف قائلا

_إن من يسكن دواخلنا ويعمرها بعدما كانت مشوهةً.. هالكةً مهجورةً تحتل زواياها خيوط العناكب.. لا شيء فيها سوى الغبرة وبقايا الرماد.. فإننا سنظل ممتنين له طوال حياتتا بأرواحنا، وإن وهبنا له أعمارنا حبا.. فلن تكفي لما فعله لنا حتى وإن اكتفى هو منا

نظرت له ببلاهةٍ متعجبةً منه ومما يقول، بدا وكأنها قد اقنعتها كلماته، لكن المرأةُ كالقطة.. لا تكف عن الصراخ إلا عندما تطعمها فقط، فقالت له بمكرٍ بعد صمتٍ قصير وكأنها لا تعي ما تحدث عنه للتو

_يقولون أن عقل المرء يتغير وينضج مع مرور الوقت، أنت لقد تزوجتَ وأصبحت لك طفلةٌ وشريكة حياةٍ وما زلت معلقاً بها؟

أجابها بدهاءِ رجلٍ راشدٍ وفلسفةٍ عميقة مشيحاً وجهه عنها ومدعياً اللا مبالاة

_تلك الأعوام لم تكن كافية لإفساد عقلي حتى أتغير
ان عقل الإنسان كزهرة "الياسمين" تنضج وتنموا بمرور الوقت لكنها لن تتخلى عن نضارتها إلا إن اقتصها صاحب البستان، كذالك العقل.. لن يتغير إلا إذا ما أراد صاحبه ذالك، أما عن أولئك الذين يقولون أن "الزمن يغير النفوس" فهُم ليسوا بحكماء، السنين بإمكانها أن تُقسي قلوب من مرت عليهم بشدتها، لكنها لن تستطيع أن تحجر ليونة مشاعرهم، فهي لا تمتلك طاقةً كافية لتصل إلى باطن الإنسان، لذا.. فليست هي التي تغيره.. بل هو من يتغير
طال الصمت بينهما وكلٌ غارقٌ في تفكيره، هي التي تنظر في اللاشيء وتظن أنه لا يحبها، وهو الذي لا يريد أن يشاركها شيئاً أهداهُ لأحدهم، كسرت لورين حاجز الصمت ذاك وأثارت لهب الحديث مرة أخرى عندما سألته بدعابة
_حسنا، ألن تغني لي أو تعزف او تخترع موسيقةً لي؟
_لا.. اننا نهدي كل شخصٍ نحبه شيئا ما يميزه عن الاخرين، ولا يمكن أن نقدم ذات الهدية لجميع الذين نحبهم، فلكلٍ منهم بداخلنا مقام
_أفهم من هذا انك لا تحبني.!
_لا.. أنا أحبك لكن...
_إذن اطلق معزوفة بإسمي الان.. حتى أصدق انك تحبني حقا
_لا
_لماذا
_لأن العزف والغناء مخصوص لها وحتى إن فعلت فسيكون ذالك لأجلها
_لكنك غنيت لي قبل تسع سنوات في شاطئ ستيفانو
_في ذالك الوقت ما كنت أحبك
_ماذا تعني؟
_أخبرتك أن من أحبه أخترع له شيئا يليق به ويخصه

رمقته لورين مبتسمةً بمكر وصمتت قليلا.. ثم اتجهت إلى داخل المنزل وابتسامتها تمتد أكثر، لم تسأله عن الذي خصه لها ليعلمها بحبه لأنها رأت أن صراحته معها والحب الذي يقدمه لها دون مقابل وحده كافٍ عن كل شيء، بادلها الإبتسامة هو أيضا ثم نهض من مقعده بعدما ذهبت هي واتكأ على الشرفة بذراعيه مائلا إلى الأمام قليلا يتأمل المارة وكان الطريق مزدحما بالكثير من الناس الذين يتقدمهم جماعةً يضربون الدفوف الملونة بالأبيض والأحمر والأزرق الغامض واخرين يعزفون بآلات الساكسفوند والبقية يصفقون على الإيقاعِ ويغنون بكلماتٍ إنجليزية من الصعب استيعابها لمن لم يتعود عليها، انبهر مالك من ذالك المنظر الجذاب، ظل يبتسم ويضحك بصوتٍ منخفضٍ أحيانا عندما يرى أولئك الذين يرقصون طرباً بطريقةٍ بهلوانيةٍ وسعادة عارمةٍ، وأولئك الذين يرسمون علم المملكة على خدودهم وعلى وجوههم، فاليوم هو يوم المباراة الأخيرة بين بريطانيا وإسبانيا في الدور الربع النهائي من بطولة "أمم أوروبا"

انضمت إليه لورين في شرفته مرةً أخرى، مدت له كوباً من عصير "المانجو" وبدأت تشاهد

وهي تتأمل ذالك الموكب الذي يسير في صفٍ واحدٍ بإنتظامٍ ولا ينتهي، وكأنها تسخر منه أو تريد أن تخبره في محاولةٍ منها بأنه مخطئ عندما قالت

_هؤلاء الجماهير جميعهم يحبون فريقا واحداً، وجميعهم يرتدون نفس الملابس ويهتفون له بنفس الأغنية ونفس الترانيم.!

ثم صمتت دون أن تلتفت إليه، ابتسم بتلقائية وعلم ما تقصده فأجاب دون أن يلتفت إليها هو أيضاً قائلا

_معكِ حق، لكن فلنفترض أن أحدهم ترك هذا الفريق وانتقل لتشجيع فريق آخر.. فهل سيردد نفس تلك الترانيم التي كان يهتف بها؟

مالك شخصٌ فلسفيٌ غامضٌ يدرس كل شيء بعناية، يرد بإجابات قاطعة تربك العقل، التفتت إليه بنصف جسدها.. قالت بإبتسامة قاطبةً حاجبيها والدهشة قد كوت ملامحها

_لكن ومن المستحيل أن يتخلى مشجع عن فريقه

اتجه ناحيتها برأسه وقال لها فارداً ذراعيه ورافعاً حاجبيه وكتفيهِ بهزةٍ من رأسه توحي بالأسف والموافقة معا

_أنا ذالك المشجع.. وهي فريقي.

ثم أشاح وجهه عنها، إحتارت لورين لدرجة أنها لم تستطيع إنتقاء كلمة مناسبة ترد بها فقط اكتفت بتأمله، لقد أدخلت نفسها في مأزقٍ ضيقٍ للغاية؛ أخذ رشفةً من كوبه ثم أضاف بعد صمتٍ قصيرٍ وهو يتأمل ذالك الحشد

_كنت أعتقد أنني لن أتمكن من تجاوز تلك الأزمة في البداية، محال أن أنساها.. لكن الآن فخورٌ بنفسي وعائلتي.. وبكِ.. أنتِ التي أنجدتيني من قاع تلك الأحزان والذكريات إلى شاطئ الحب، سأكون ممتنا لكِ مدى عمري

زينت لورين وجهها بإبتسامةٍ عريضةٍ وهي تتأمله بودٍ وهو في حالته تلك معلقاً نظره بتلك الحشود التي لا تنتهي، فتغيرت ملامحه فجأةً وقال بنبرةٍ حزينةٍ وكأنه يحدث نفسه

_اعتقدت أن هذا محال، لكني أدركت أن القدر لا يعرف المستحيل.

أومأت رأسها بالإيجاب مرتعشةً في شفقة وحسرةٍ، فلقد بدا غامضا مخيفا وحزينا كما لم تراه من قبل، فالحزن عندما يتناسل من الحب والذكريات يجعل من الإنسان مخيفاً ويكون قاتلا أحياناً، فالكثير من البشر أصبحوا سفاحين بسببه، والبعض أُجبروا على اختيار الموت والإنتحار بسبب الحزن الذين يتوالد من الماضي

أنّب مالك ضميره عندما رأى ملامحها قد علاها الأسى وهو كعادته لا يريد رؤيتها تعيسةً بسببه، لكنه لا يستطيع التغلب على هياجه عندما تهب في عقله

عواصف الذكريات العاتية، أخذ رشفةً من كوبه ثم نظر إليها بملامحٍ أخرى وتعلو وجهه البشاشة والحبور، رفع حاجبيه وقال منتشيا ليخرجها من كآبتها
_اممم، هذا العصير رائعٌ للغاية، هل صنعتهِ أنتِ؟
هزت له رأسها بالموافقة مبتسمةً ببراءةٍ، فلوح لها بسبابته وقال مبتسماً بعُنجهية مصطنعة:
_سأحضر لكِ مفاجئة.. فقط انتظري
وضع الكوب في المنضدة بجانب الجيتار، أفل إلى داخل المنزل وهو يتمتم لها مبتسماً ببعض كلمات التحذير بأن لا تهجم ولا تتجسس عليه، أومأت له برأسها في ارتباكٍ وحيرةٍ فهي ما زالت لم تتفهمه جيداً رغم كل تلك السنوات التي قضياها معاً..لأنه كل مرة يبين لها بطريقةٍ مختلفة، يصبح أحيانا شخصاً إنطوائي شديد التقلبات وكثير المفاجئات، بخلاف طبيعته المعتادة، وما استطاعت تخمين ماذا ستكون هذه المفاجأة وما المناسبة؟ قهقهت ساخرةً بصوتٍ هامسٍ عندما قالت لنفسها "سأصنع له كل يومٍ ثلاثة أكوابٍ من المانجو إن كانت هذه المفاجئة بمناسبة العصير" ثم أردفت بتفكيرها "سأفاجأه أنا أيضاً بواحدةً إن أعجبتني مفاجأته"
صحت من شرودها على صوته وهو يناديها من الداخل، قدمت عليه بسرعةٍ متلهفة لرؤية تلك المفاجأة، وكان قد غير ملابسه ببنطالٍ أسودٍ وقميصاً باللون الأزرقِ تفوح منه رائحة عطره الذكي المميز، وقفت أمامه قاطبة حاجبيها تردد في داخلها "لماذا لم يخبرني بأننا سنتمشى خارجاً.؟" فتحت شفتيها وقبل أن تنطق وضع هو سبابته على فمه مشيراً للصمت، فأطاعته على ما أراد، ثم أمرها بإغلاق عينيها ففعلت، قبضها من معصمها وتوجه بها ناحية مكتبته التي جردها من الكتب وملأها باللوحات وكانت مضاءةً ببعض الشموع التي فرقها بداخل الأواني الزجاجية ووزعها بجانب الورود التي كانت في آنيةٍ زجاجيةٍ أيضا ووضع آنية شمعٍ وورد بين كل لوحةٍ وأخرى، دلف بها إلى الداخل، تأكد من

إغلاق الباب جيداً، وقف بجانبها من الناحية اليُمنى ربّع يديه على صدره، ثم قال لها بصوتٍ موسيقي هامسٍ لا يخلو من نفحات الحب ومفردات الإعتذار

_إفتحي عينيكِ

فتحت عيناها _يا رباه..ما هذا_ لم تصدق ذالك المنظر الخلاب الذي يلوح أمامها، اعتقدت أنه سحر، ظنت نفسها في حلم أو أنها تتناقل ببراق الخيالٍ في أمدٍ بعيد، جحظت بعيناها، رفعت حاجبيها ببلاهةٍ ووضعت كفيها الرقيقتان على خديها فاتحةً فمها من الدهشة، وعندما رأت تلك الورود المتناثرة في أرجاء المكتبة مع إنتشار الشموع المنيرة لها والتي تذكرها بقصص العصر الحجري.. تخيلت أنها في كهفٍ سري يعرض الألواح النادرة ل"دافينشي" أو أنها في جاليري أكاديميةٍ عليا للفنون، لطالما أحبت هي ذالك النوع من الفن الأزلي.. ففاجأها هو بأكثر شيء أحبته وأكثر ما ينسيها مآسٍ قد تسبب هو في شنّها، حيث أن رفوف المكتبة جميعها مليئة بألواح رسوماتٍ بديعةٍ تحمل صورها النادرة التي لم تلتقطها بالكاميرا ولا حتى تعلم متى تم رسمها، كانت أكثر من ٥٠ صورة لها وحدها ناهيك عن اللوحات المشتركة بينهما والمخصوصة به وإبنته، كانت مذهولة للغاية، ليس من الرسومات فقط.. بل المكتبة أيضاً، كيف فعلها؟_قد جردها من كل الكتب التي كانت تحملها وعلّق فيها العديد من أنواع اللوحات منذ يوم لقاءهما الأول وحتى قبل شهر كانت آخر توقيعات رسوماته_ سألته بشكٍ وارتباكٍ لتتأكد

_هل أنت من رسمت كل هذه اللوحات؟

أجابها مبتسماً بإمالةٍ من رأسه، فسألته مرةً أخرى

_لكن أين تعلمت الرسم؟

أخبرها أنه تعلمه في "مصر" عندما انتقل من فندق "ماريوت" العريق إلى بلدةٍ فقيرةٍ في أواخر القاهرة تُدعى "النهضة"يسكنها الفقراء المهمشين وبعض المجرمين الهاربين من العدالة والكثير من "السودانيين" و "البنغلاديش" و "الإثيوبين" وأُناسٌ من مختلف البلاد الأفريقية الذين يمكثون هناك بإقاماتٍ

منتهيةٍ ويعملون في تلك المصانع مختبئين من حملات الحكومة الفُجائية، ذهب إليها عندما أخبره العم "إسلام" أنه سيشعر هناك بالألفة وسيوفر من أمواله التي يتقاضاها هنا، وأخبره أيضاً أن الأجرة التي يدفعها هنا مقابل يومٍ واحدٍ بإمكانه أن يستأجر بها هناك شُقةً لمدة عامٍ كامل، وربما سيجد ضالته هناك في تلك الملامح الأفريقية، رغم أنه يمتلك الكثير من المال.. وبإمكانه العيش في مكانٍ أفضل من تلك البقعة الملوثة بجميع أنواع البشر.. إلا أنه ذهب إليها وقضى فيها قرابة العشرة أشهر، تعرف فيها بالكثير من الشخصيات من مختلف الجنسيات والبلاد حتى التقى فيها بصديقٍ له إسمه "الفاتح" دلّه على إحدى المعاهد الفنية في "مدينة نصر" و "الدقي" التي تقدم "دبلومات" في تعليم الرسم والبيانو والكمان وأخبره بأن ذالك سيخفف عنه الكثير من أشجانه وفعلا أتقنها بإبداعٍ، لكنه تخلى عنها عندما عادت إليه ذكرياته مرةً أخرى، فهو تعلمها من أجل النسيان لكنها لم تزده إلا تعلقاً وتعمقا، فأوصاه صديقه بأن ينتقل إلى الإسكندرية وإن لم يجد بلسماً هناك في تلك الشواطئ.. فلا ترياق له سوى الموت، وعندما قدم إلى هناك.. وجدها هي.. فكانت بلسمه وقاربه الذي أنجاه من الهلاك وفيها قد أعاد موهبته

إبتسمت لكلماته المعسولة تلك، فهو دائما ما يفعل المستحيل ويبتكر طرقا غير متوقعة ليخرجها من نكبات حزنها، يحزنها لحظةً ويسعدها عاما لتنسى تلك اللحظة، لكن مفاجأته لها هذه المرة كانت أكثر من المتوقع، وهكذا هو الحب.. حتى وإن اعتبره البعض شعوراً زائفاً أو لا منطقياً.. فإنه لا يخلو من المودة والعاطفة، وإننا نشعر بالسعادة والسرور عند رؤية البهجة في ملامح من نحب، تلك الإهتمامات والهدايا التي تبدو بسيطةً.. فإنها تكون شيئاً آخر للذين نقطن بداخلهم.

وقع نظرها من بعيدٍ على لوحةٍ ساحرةٍ بسماءٍ زرقاء فوقها قمرٌ متلألئٌ وبجانبه بعض النجوم تبدوا ليليةٍ شيئاً ما، سرت ناحيتها في سكونٍ بخطاوٍ مبعثرةٍ خوفاً من أن تتعثر على إثر مشيتها الغير منتظمة وتستفيق فتجد أن كل ما تراه ليس

سوى مجرد حُلمٍ باهت، تأملتها جيداً.. لم تستطع رؤية ملامح تلك الجميلة القابعة في كنبةٍ طويلةٍ ممتدة أمام أمواج البحر التي تبدوا هادئة تتلاطم في وجوم، منحرفة إلى يمينها قليلا، منحنية برأسها وشعرها منسدلا على جيتارها بحريةٍ، وأصابعها تداعب جيتارها التي تبدوا منسجمة معه للغاية، لم تستطع معرفتها، لكنها تمكنت من تمييز فستانها الذي كان لونه بنفسجيٌ به دوائر بيضاء رائعةٌ ومرصعا برسومات الورود، امتدت ابتسامتها أكثر عندما أعادت بصرها إلى يمين الصورة ولمحت نافذةً عريضة في الدور الرابع من العمارة الطويلة التي خلفها ويقف من وراء النافذة رجلا أسمراً ذو وجهٍ بشوشٍ مزيحاً ستائر النافذة بيديه إلى الجانبين، وتطل من ثغره إبتسامةٌ واسعةٌ تُعربُ عن إعجابه وبهجته، استطاعت التعرف عليه من خلال ملامحه التي لم يشوهها الدهر حتى الآن.. بأنه هو.. مالك، الرجل الذي ظهر في حياتها كمعجزة إلهيةٍ ووهبها كل ما كانت تفتقده من حب وحياة، وأن تلك الجالسة أمام البحر برفقة الجيتار.. لم تكن إلا هي، لكنها لم تتمكن من أين ومتى كانت حادثة هذه اللوحة فظنت أنها من وحي خياله، حتى قفزت نظراتها بغتةً على توقيعٍ صغير في أسفل الجانب الأيسر باللغة العربية قرأته بعد صعوبه لتجده "*سان ستيفانو_الإسكندرية*" لكنها لم ترى تاريخها، أرادت أن تسأله عن التاريخ، أدارت وجهها بحماسٍ لتصطدم بوجهه بقوةٍ، فقد كان خلفها يتأمل معها تلك اللوحة لكنها لم تشعر بوجوده أو حتى بأنفاسه، وبّخته على ذالك ونسيت سؤالها برؤيته، وبعد مدةٍ من الحوار والضحك وتأمل اللوحات.. إقترحت عليه أن يرسم لها لوحةً أمامها لأنها لم تصدق بأنه من رسم كل هذه اللوحات، قبِل طلبها، لكنها لاحظت شيئاً ما في جميع رسوماته فبادرت بسؤاله وأشعلت لهيب الحديث معه كعادة فضولها، ابتدت قائلةً:

_لماذا أنت لا تهتم بتدوين أرقام السنوات في توقيعك

رد بسخريةٍ ولا مبالاةٍ وكأنه يحمل جل البراهين في جملته تلك قائلا

_لأنها مجرد أرقام

فاعترضت فوراً على رأيه قائلةً
_لكن الأرقام تصنع التاريخ
جاوبها بعد قهقهة ضحكةٍ ساخرةٍ يتسفزّ فضولها
_لا، بل التاريخ من يصنع الأرقام
صمت قليلا ثم أضاف
_مثلا قبل أن يخلق الله البشر لم يكن هناك أرقام تدعي حفظ التاريخ..أليس كذالك؟
أجابته بمكرٍ
_لأن الإنسان من اخترعها
_ولماذا اخترعها إذن؟
سألها بخبثٍ كمعلم يلقي لُغزاً لتلميذه ويرمقه بنظراتٍ محمرة فينسيه الإجابة التي ساهر في حفظها، لكنها كانت أكثر فطنةً.. فأجابته
_ليحفظوا بها التراث من الحوادث والأشخاص والأماكن القديمة
أجابها بإبتسامة المنتصر على خصمٍ عنيد
_إذن..فالحوادث والأشخاص والأماكن القديمة هي التاريخ.. وليست الأرقام، أليس كذالك؟
تلعثمت، لم تستطع أن تنطق وكأنه قد ابتلع الحروف من لسانها، وقفت تتأمله بعجبٍ قاطبةً حاجبيها.. مشدوهةٌ من أناقة فكره وعُمق فلسفته القصية، فهو دائما ما يكسب شجاراتهما ونقاشاتهما بالمنطق فقط، ابتسم بأريحيةٍ من تلقائيتها فما زال فيها شيئاً من نقاء طفولتها البريئة، ثم التفت نحو أدراج المكتبة التي رصّ فيها اللوحات بإنتظامٍ وقال مشيراً بيده إلى آنية الشمع والورود

_إن الأرقام مثلها مثل هذه الآنية الزجاجية، بإمكان التاريخ أن يتكون من دونها، لكننا نستخدمها للحفاظ على وقت حدوثه، ولو حذفناها.. فلن يشكل ذالك فارقاً

_لكننا سنفتقد معالم وآثار التاريخ حينها

باغتته بسؤالها فردّ قائلا

_لن نفتقد شيئاً، بل إستخدامها هو من يُفقدنا معظم الأشياء، فوحدهم المؤرخون من يمتلكون طريقة وصف التاريخ، يُجمّلون ما يروق لهم ويُقبّحون ما يكرهون ويحذفون منه ما يرون أنه قد يتسبب في تعييبهم أو التعالي على سياستهم، فلنقترح _مثالا_ لماذا لم يذكر التاريخ بعض الشخصيات الأفريقية البارزة وبعض الأبطال الذين أثرو عليه بشدةٍ، مثل السلطان "إدريس ألوما" الذي انتصر في 1000 معركةٍ دون خسارة؟ ولماذا يمجد التاريخ ويمتدح "نابليون"، بينما يُقبّح ويلعن "هتلر" بما أن جميعهم قادةً عسكريين أشادوا حروباً عالميةٍ؟

قالت بحيرة وكأنها قد اكتشفت شيئاً ما

_"إدريس ألوما؟" لم أسمع عنه من قبل، لكن ما أعرفه أن نابليون كان منصفاً وهتلر لم يكن إنسانياً

_لا.. تلك فلسفة المؤرخين، لكن الحقيقة ليست كذالك، الحقيقة هي أن "نابليون" دمر العرب و "هتلر" أباد اليهود، وتلك هي طريقة المؤرخين في العبث بعقول الأجيال

بدت علامات الغيظ تسيطر عليها، لاحظ هو ذالك.. فجلس على مقعدِ أمام إحدى أدراج مكتبته، أخذ ريشته وبعضا من الألوان والأوراق وقال لها

_سأنتظرك في الشرفة

أمالت له رأسها وخطت خطوات نحو اليمين _من أول لوحةٍ_ وبدأت تجول بنظرها تتأمل تلك اللوحات وذالك الجمال والإبداع الحسيس الخيالي، لم تُخمّن يوماً أن زوجها يبدع في فن الرسم لهذا الحد، أمضت الكثير من الوقت وهي

تتجول بداخل تلك المكتبة التي صارت لتوها "جاليري" أو "متحف" أو "معرضاً خاصاً" لصورها وأسرتها الصغيرة، أعادت بذهنها أنه ينتظرها ليبدع لها بلوحةٍ أمام عينيها فاستدارت خارجةً، وعندما وضعت يدها على مقبض الباب لتغلقه.. رأت رفاً كاملا يبدوا فارغا من الأطرافِ تتوسطه لوحةٌ سوداء في منتصفها من الأعلى رسمة بيضاء صغيرة كالوردة وبها بعض الحروف العربية التي لم تتضح لها.. فساقها الفضول إلى رؤية تلك اللوحة التي لم تنتبه لها بالرغم من أنها طافت المكان لأكثر من مرة، وعندما اقتربت منها وجدتها كتابا يحمل إسم"بوليفونيا 4078 يوم" ويحتل رفاً كاملا وحده من بين وسط اللوحات، عادت بذكراها إلى ما قبل تسعة أعوامٍ في ليلة الفالنتاين عند الثانية فجراً بعدما عادت هي ووالديها من التسوق لمعدات السفرِ دخلت شقتهما في لهفةٍ لتخبره بتفاصيل التسوق.. لكنها لم تجده، أين يكون قد ذهب في هذا الوقت يا رباه؟ إلى الشاطئ؟ نعم لقد ذهبت إلى الشاطئ.. لكنه كان خالياً من كل شيءٍ.. لا أحد فيه لأن الجو كان لاسعاً في تلك الليلة، لمحت من بعيدٍ خيالا لشبحٍ أبيضٍ يجلس في إحد المقاعد وبجانبه مقعدٌ فارغٌ فتيقنت أنه هو.. لكنها ترددت في القدوم إليه، فهي لم تراه أبداً يوماً يرتدي الأبيض من قدمه وحتى قبعته، وبعد ترددٍ وإصرارٍ ذهبت إليه فوجدته هو نفسه.. يعزف ترنيمة لم تسمعها من قبل، أرادت رفع تلك الأدوات التي في المقعد لتجلس بجانبه.. لكنه نهاها بإشارةٍ من يده دون أن يتكلم، لم تنطق ببنت شفةٍ فقط جلبت مقعداً آخر وجلست أمامه لتلفت إنتباهه لكنه لم يرفع حتى عينيه لرؤيتها، ساورها الشك بأنه ليس هو لكنها صمدت حتى أنهى معزوفته وأغنيته التي تلتها، وبعدها رفع تلك الحافظة والكتاب الذي بجانبها من المقعد وأشار لها بالجلوس، فهذا الكتاب هو نفسه الذي رأته في تلك الليلة.

تأملته جيداً، قلبت صفحاته بشرودٍ وهي تردد في داخلها "ماذا يعني له هذا الكتاب؟ لما يهتم به لهذه الدرجة؟". أغلقت المكتبة وخرجت متجهمةً نحوه ولا تتردد في عقلها سوى هذه الكلمات، ولجت إليه في الشرفة لتسأله.. لكن

تلاشت جميع تلك الأسئلة من مفكرتها، تفاجأت عندما وجدته يرسم ملامحاً أخرى لفتاةٍ أخرى وإبنته بجانبه مضطجعة على بطنها.. مستندةً بذراعيها الصغيران.. واضعةً كوعها تحت ذقنها وكفيها على خديها مستمتعةً بمشاهدة ما يرسمه والدها، وقفت هي مذهولةٍ وقد امتلأ داخلها من الغيظ والغيرة، لقد وعدها برسم لوحةٍ لها.. لكنه الآن يرسم إمرأةً أخرى؟ كادت أن تصرخ في وجهه، لكن تجاهلته من أجل إبنتهما.. فتمالكت أعصابها واقتربت منه ببطئ، جلست بجانبه.. لترى صورة في هاتفه ينقل منها تلك الملامح، سألته عنها بحذرٍ، فأجابتها الصغيرة بأن هذه هي أستاذتها "يُسر" التي تدرسهم " التربية الإسلامية" وأنها ستغادر في _الأسبوع القادم_ برفقة أخاها إلى وطنها "فلسطين" وستعود بعد الإجازة السنوية، فطلبت من والدها أن يرسم لها لوحة تهديها لها؛ سألتها في دهشةٍ

_وهل كنتِ تعلمين من قبل بأن أباكِ يجيد الرسم؟

نظرت إليه فوجدته مبتسما يرهبها بنظراته، فقطبت هي حاجبيها بدلالٍ وانفجرا من الضحك، لم تفهم لورين ما يحدث، ظلت ترمقهما ببلاهة وتردد بإبتسامةٍ تلقائيةٍ "ما الذي يحدث" نظرت لإبنتها، أخذتها على حجرها، تأملت وجهها البشوش وثغرها الذي لا يكف عن الضحك، راوغتها قليلا ثم قالت لها

_هيا أخبريني يا دلوعتي

التفتت نحو والدها مرةً أخرى فوجدته غارقاً في ضحكةٍ صامتةٍ وهو يتابع الرسم، فقالت لأمها بنبرتها الضاحكة

_لقد كان يجلب لي كل يومٍ لوحاً من "الشوكولاه" حتى لا أخبرك

ثم غرقت في نوبةٍ هيستيرية من الضحك، نظرت لورين نحو مالك وابتسمت بودٍ تخبره مدى إمتنانها وشكرها لما يفعله من أجل إسعادها، فبادلها النظر هو أيضا، واحتضنها برومانسية داخل إبتسامته الواسعة.. ثم واصل الرسم

***

ليلٌ هادئٌ، غيومٌ سوداء، صقيعٌ قارص، غمامٌ يغطي جميع البنايات، أنوارٌ حمراء خافتةً تتلاشى في الممرات، طرقاتٌ خاليةٌ من كل شيءٍ.. إلا بعض الأشخاص والسيارات التي تمر بها بشكل متقطع، بعد يومٍ طويلٍ شاقٍ قضياه في ال "هايد بارك" هو وزوجته برفقة صغيرتهما فاجأته به لورين على غير العادة، فمنذ أن فاجأها هو بمعرض الصور الخاص بهما في الأسبوع الماضي.. وهي تخطط لمفاجأةٍ سارةٍ تسعده بها حتى وصلت إلى تلك الفكرة.. ذالك الملهى الذي أعاد أشرطة الماضي على عقله

بعد أن غفى جميعهم.. وقف هو على حائط تلك الشرفة وبيده فنجانُ قهوةٍ يراوغُ وحدته بتأمل مفاتن تلك المدينة الساحرة

بعض الأشخاص يستمتعون بالأجواء الجميلة بإشعال سيجارة والإصغاء لأغانيهم المفضلة، لكنه يكتفي بفنجان قهوته.. مناجات هدوئه، والغوصُ في وديان الذكريات، ظل يصارع أمواج الذكرى حتى قذفته على شاطئ تلك الليلة، لما دعته "لميس" لقضاءِ يومٍ ممتعٍ للقراءة ومطالعة الكتب النادرة في مكتبة "بوكتينو" بمدينة "بحري"كان وقتها شغوفاً بالقراءة ومثله كانت هي، إنتقت له رواية من إختيارها لعلمها بأنه مهووسُ الروايات، لكنه سرعان ما اكتست ملامحه الحيرة عندما قرأ ذالك الإسم الغريب على الكتاب "بعض هذا القرنفل"، لم يسبق له أن سمع به حتى، دائماً ما تأتي له بأغرب الأشياء، نظر إليها بعجبٍ مستفسراً، فاقتربت منه وهمست في أذنه

_القراءة هي المعرفة، ولأجل المعرفة يجب أن تنوع إطلاعاتك، فلن تتوسع قريحتك ما دمت تقرأ لفئةٍ معيّنةٍ من الكُتاب، سينال إعجابك.. إقرأه

بدأ في قراءته، وقبل أن ينتهي من أولى صفحاته.. رسا على خاطره سؤالا يبدوا هاماً إلى درجةٍ ما، رفع رأسه ناحيتها وأراد سؤالها، لكن قبل أن ينطق وضعت هي إصبعها على فمها مشيرةً للصمت، قطعت قصاصةٌ ورقٍ من دفترها وكتبت له فيها أن الكلام هنا ممنوع ويجب أن يغلق هاتفه أيضاً إن نسي ذالك، خضع

لها، و لما أنهى الكتاب _بعد ساعتين_ قطع ورقةً صغيرةً من دفتره الذي لخص فيه بعض الإقتباسات يخبرها بأنه سينتظرها في الخارج
إنضمت إليه بعد نصف ساعةٍ في كافيه المكتبة، أشاحت بيدها قبالة عينيه.. بعدها أفاق، فقد كان غارقاً في تأملها كأنه يراها لأول مرة، وهذا ما كان يحدث معهما كل ما يلتقيان، قالت له مازحةً
_أما زلت تظن أني خيالا؟
قال: لست أدري، لكن في كل مرةٍ تراكِ عيناي مختلفةً عن ذي قِبَل
فابتسمت وقالت مداعبةً إياه وهي تضع أغراضها بجانبها
_تسلم عيناك لي
فباغتها فوراً مازحاً بحيرةٍ مصطنعة
_فقط.؟
ضحكت من طريقته، ثم أردفت قائلةً
_عن ماذا كنت ستسألني عندما كنا في الداخل
قال: عن ال "هايد بارك"
قطبت حاجبيها وهزت رأسها مستفهمةً، فقال
_لقد أخبرتِيني أنكِ كنتِ في لندن قبل سنتان، هل زُرتِ ذالك المنتزه الذي يكرره الكتاب كثيراً في قصصهم؟
أجابته بهزةٍ من رأسها بينما كانت ترتشف قهوتها، فقال لها
_أخبريني عنه
أخبرته بأنه أكبر الحدائق الملكية في "المملكة المتحدة" وأقدمها، وأخبرته أيضاً بأنه يوجد بداخله العديد من التماثيل والنصب التذكارية وحكت له عنه بكل تفاصليه.
أوقف براق الذكرى الذي عاد به إلى نحو خمسة عشر عاماً وهزّ رأسه بإبتسامةٍ مريرةٍ متعجباً.. ثم احتشى رشفةً من فنجانه، فرغم مرور كل تلك الأعوام.. إلا

أنه قد وجد اليوم كل ما وصفته له "لميس" في تلك الحديقة الغناء، وكم تمنى لو كانت برفقته في هذا اليوم ليتنزها معاً ويتأملا تلك الحديقة العتيقة التي لم يتغير فيها شيءٌ.. لم تزل كما هي، وربما لم يحدُث فيها أي تغيير منذ تأسيسها في القرن السادس عشر، فالغربيون شديدي التمسك بالتراث، ما زالت النصب التذكارية لـ "حيوانات الحرب" قابعة في مكانها كما هي، ونافورة الملكة "ديانا" كما وصفتها "لميس" لم يحدث فيها أي تغيير، و"the reforms tre" حيث اكتمل الإبداع المعماري، خارطة تقاطع طرق مستديرة بداخلها رسمةٌ على هيئةِ شجرةٍ تحفها الممرات، وبجانبها أسهمٌ معمارية مثلثة مكتوب بداخلها اسم لكل ممر تشير إليه، وكل طريقٍ منها يأخذك إلى وجهةٍ مختلفة، وهناك ذالك التمثال حالك السواد لبطل معركة "طروادة" "إخيليس" شامخاً في هيئته مثلما هو، وحتى ألعاب ال "wonder land" ما زالت تقام سنوياً فيها

كان يتمشى فيها بهدوءٍ، معلقاً كاميرته في رقبته يتأمل تلك المعالم التي رسمتها له "لميس" في يومٍ ما، يلتقط بعض الصور لأسرته الصغيرة وهو يحلق بعقله في تلك الأرض البعيدة.. مدينة "أم درمان" مدينة الشمس تلك وليس الضباب، وشتان ما بين ضبابٍ وشمس، ربما أدرك أخيراً صِحةَ قول "أبي تمام"

"كم منزلٍ في الأرض يألفه الفتى.. ويبقى حنينه لأولِ منزلِ"

لقد اشتاق لتلك الديار وأيّما شوق، بالرغم من أنه يعيش منعماً في دولةٍ من أعظم الدول.. إلا أن حنينه لدياره شوّه روعة تلك الرفاهية، ورغم أن "hayed bark" كانت أكبر وأجمل من "ماجيك لاند" فإنه كان يراها باهتةً لو لا تعلقه بتلك المعالم والنصب التذكارية التي وصفتها له فقيدته الراحلة، شعر بحاجةٍ ماسّةٍ للعودة عندما رأى صديقه القديم "الفاتح" في الحديقة، والذي كان نقطةً فارقةً في حياته، كان جالساً في إحدى مقاعد الإستراحةِ أمام نافورة "joy of life" يتأملها في وجومٍ لكن لا تبدوا عليه السعادة، فكانت ملامحه مكبوتةٌ تكسوها الحيرة والألم، يبدوا أنه شارداً في اللامكان.. في تلك البقعة المحذوفة من جغرافيا السعادة.. والتي تُدعى "السودان"

تهلل وجه مالك عندما رآه، في البداية ظن أنه شبهٌ فقط.. لكنه ضحك ساخراً عندما أسر في نفسه قائلا "وإن كان له شبيهاً.. فلن يكن بمثل هذه القامة القصيرة" وقبل أن يهرع إليه.. هطلت في ذهنه عدة أسألة، كيف وصل هذا الشاب الفقير البائس إلى هنا؟ فقد كان لا يملك حتى قوت يومه، هل يمكن أنه فعلها؟ فقد كان دائما ما يحدثه عن "السمبك".. طريق "الهجرة الغير شرعية" تلك المغامرة الشنيعة التي أودت بحياة الكثير من شباب أفريقيا اليائسين الذي قامروا بحياتهم مع المحيط من أجل الوصول إلى "أوروبا".. فخسرو الرهان، لكن هل يمكن أنه فعلها أيضاً وانتصر على تلك الأمواج بحظه؟ نعم لقد فعلها، أجابه عن كل أسئلته تلك، أخبره بكل شيء، حكى له عن رحلته من" مصر" إلى "ليبيا" وكمّ المشقات التي تلقاها بعبوره تلك الشواهق الجبلية الفاصلة بين الدولتين زحفاً وتدحرجاً، وكيف قضى سنتان في "ليبيا" ما بين المذلة والعذاب، إلى أن ركب "السمبك" ذالك القارب الأنبوبي الذي كان يحمل قرابة المئتان شخصاً، رُميَ معظمهم عنوةً في البحر للتخفيف من ثقل حمله، لكنه كان موفقاً فوصل إلى هنا، كان ذالك منذ ستة أعوامٍ، والآن.. الآن يُفكر في العودة، والذي أثار رغبة مالك الجامحة للعودة والحنين إلى ذالك الوطن، عندما قال له الفاتح بأسفٍ "خرجت من وطني لأجل المال غير مبالٍ بالوطن، والآن أنوي العودة إليه من أجل الوطنية ولا يهمني المال، لقد أدركت حقاً معنى أننا لا نعرف قيمة الأشياء إلا بعد فقدانها"

أفاق مالك من ذكرياته تلك وأفكاره الممزوجة بالحنين إلى الوطن واتجه إلى داخل المنزل، عاد يحمل بين يديه حافظته الحرارية وأدوات الرسم، جلس على أريكة الشرفة، وضع ورقةً عريضةً طويلةً على الحمالة الخشبية وبدأ يلونها بفرشاته

حينما يضطرم سعير الحنية في جوفك فإنك لن تتمكن من إجلاءه إلا بإحتضان موقده أو إسكانه بهاتين الوسيلتيْن "الرسم و الكتابة" فحتى الإصغاء لموسيقانا المفضلة _أحياناً_ لا يُخمد دوِيّ الفوضى التي يُلهبها الحنين بداخلنا، الكتابة

توسع آفاقنا وتفرغ مجابهات صدورنا من إكتظاظ المشاعر المكبوتة فيها.. من الأشجان وتهوّرات الفؤاد اللا إرادية؛ والرسم يستخرج تلك البُقع المتنوعة القابعة في زوايا دواخلنا من آلامٍ وأشواقٍ وغيرها.. ثم ينسجها في لوحةٍ يظن المتفرجون أنها فناً حسياً دقيقاً لتنوعها وفخامة روعتها.. ولا يدرون أن تلك التشكيلة من الألوان تكونت بداخلنا، لذالك لم يهرع للكتابة هو، فقد كان متيماً بالقراءة، ومن يقرأ كثيرا _في الغالب_ لا يكتب.. أو يكتب عن أشياءٍ أخرى غير آلامه، لأنه يشعر أن جميع تلك السطور التي قرأها تناجيه.. فتفرغ ما بجعبته من آلام، لكنه لم يستنجد الكتابة هذه المرة.. بل لجأ إلى الرسم، لأن تلك البُقع التي استوطنت أحشاؤه لن تمحوها سوى فرشاة الحنين، أراد أن يلون أوراقه تلك بكامل قوته ليرى ما كان يسكن قلبه من مدن وأشخاصٍ ومعالمٍ.. والكثير من الأشياء التي لم يتفرغ لها، مضى الوقت وكأنه يحسده على إخراج عبء ما يحمله فؤاده من أثقال، لم يستشعر بالصباح إلا حينما هرولت إبنته إليه، إنكفأت على ظهره، حاوطت يديها الرقيقتان على عنقه وهي تقول _صباح الخير بابا، هل أنت هنا منذ الفجر.؟ لقد بحثت عنك في غرفتك.. ومكتبتك ولم أجدك، تخيلت أنك ما زلت في المسجد

ولأن تلك المدينة لا يتخلى عنها الضباب.. فهو كان يرى الشروق في كلماتها، والشمس في ابتسامتها الملائكية تلك، علم أخيراً بأن الشمس لا تشرق في لندن لأن هناك شمسٌ أخرى تضاحيها.. لكنها لا تشرق إلا له. ردّ لها التحية.. راوغها قليلا، لكنه لم يخبرها بأنه لم يُصلي الفجر حتى الآن، وأنه قضى الليل بطوله هنا ينتزع العشوائيات من داخله ويرتبها هنا في هذه الأوراق، بادلها المرح عندما مازحته بشأن بعض تلك اللوحات الجميلة التي ظنت أنها من وحي خياله، لأنها لم يسبق أن رأتها لا في الخرائط ولا حتى في القنوات الفضائية، سألته إن كانت هذه اللوحات من وحي خياله، فأخبرها بأنها موجودةٌ بالفعل

نهضت الصغيرة من حجر والدها عندما تأملت لوحةً لشرفةٍ _تبدوا في الطابق الثاني_ تطل على مبنى واسعٍ تعلوه قُبّةٍ رصاصيةٍ بلونٍ ذهبيٍ محاطةٌ بسورٍ

طويلٍ في ساحته الكثير من الحمام وبعض المارة المتجهين إلى الداخل، وفي تلك النافذة يقف شخصاً ما يبدوا شاباً _لم تستطع تخمين من هو لغموض ملامحه_ يزيح ستائرها بيديه ويتأمل تلك القبة بإرتياح

وكان والدها من رسم تلك اللوحة في سهرته وكتب تحتها جملةً بخطٍ "أميريٍ" بديع

"تواضعت أحلامي كثيراً إلا واحداً منها.. أن أصلي الفجر في الأقصى بعد تحريره."

لقائلها

أخذت تلك اللوحة، جلست بجانبه، قالت بأسفٍ وهي تتأملها

_اه.. لو كنت قد أهديت هذه اللوحة للأستاذة "يُسر" كانت ستسعد كثيراً، لا محالة أنها ستنال إعجابها، فقد كانت ترينا الكثير من مثل هذه الصور من خلال هاتفها

ضمها على صدره برفقٍ يُمشّي كفه على خصلاتها تسربت دمعةً خفيّةً من عينيهِ، رفع بصره نحو السماء وردد في داخله قائلا "حفظك الله يا يُسر" قامت إبنته من حجره وركضت نحو اللوحات مرةً أخرى، فشرد قليلا بتفكيره في هذا الإسم، أمذكّرٌ هو أم مؤنثٌ؟! دخل في جدالٍ عنيفٍ مع عقله، قال في نفسه "إن كان مؤنثاً فيُفترضُ أن يكون" يُسرى" فلماذا "يُسر" إذن؟" لكنه أعاد ذهنه _بعيداً عن اللغة_ عندما أدرك أن _فلسطين_ تختلف كثيراً عن بقية البلدان، فالعالم أجمع تجد أن رجاله رجالٌ ونساءه نساءٌ وأطفالُه أطفال.. إلا فلسطين.. هناك الرجال والنساء والولدان كلهم سواء..رجال. لا يعرفون الإستسلام، يواجهون الطغاة ولا يهابون الموت، لا تلهيهم اتفاقيات ولا صفقات تطبيعٍ لبيع تلك الجوهرة التي يحمونها قبل الجسد.. بالأرواح

أعادته إبنته من نشوزه لما أقبلت عليه وهي تحمل لوحةً أخرى لمدينةٍ خضراء شاسعةً بمنازلٍ أرضيةٍ متواضعةٍ متّسعةٍ، أمام كل بيتٍ شجرتان أو أكثر.. وبعض شتول الزهور، يكسوها صفارُ الشمس المُعرب عن الغروب نوراً فيزيد من رونقها جمالا، وفي جانب الطريق العام يفترش الكثير من الناس "البسط"

و"الفرشات" الطويلة التي تشبه "سجادات المساجد" من ناحيتين ويتركون وسطها فارغاً، يجلس فيها بعضهم والبعض يأتون من هناك حاملين "الصواني" والأسطال وحافظات المياه.. ويضعونها في المكان الغارغ المخصص لها، بينما يقف البعض الآخر في وسط الطريق العام يلوحون بأيديهم للسيارات لتقف

سألته متحمسةً بشيءٍ من الفضول

_يا رباه، أبي هل هذه اللوحة حقيقية؟

أجابها بالإيجاب مبتسماً بإيماءةٍ من رأسه، فاسطردت قائلةً

_إذن ما إسم هذه المدينة؟ وما يفعل هؤلاء؟ هل يرتبون لتمثيل مسرحية؟ أم يؤدون تمثيل مشهدٍ لفيلمٍ؟

ابتسم لبراءتها، وأجابها شارحاً

_هذه مدينة "أم درمان" في شهر رمضان، وإنهم يحضرون للإفطار

نظرت إليه بدهشةٍ وقالت

_هل هي موجودةٌ بالفعل في هذا العالم؟ هل بإستطاعتنا زيارتها

ربما كانت العودة هي الملجأ الأخير الى ترانيم سعادته، لكنه حين يعيد بذاكرته النظر إلى تلك الأرض يرى وكأنها "إسرائيل" لا يجب له أن يضع خطوة في تربتها إلا عدوا، ضربا من الجنون أصاب عقله، أصبح يرى نفسه مختلا أحمقاً، لماذا لا يفكر بطريقة أخرى؟ لماذا لا يلتفت إلى الجانب الآخر منها؟! ولربما ذالك حقاً... "أننا عندما نكره شيئاً ما.. نكره كل ما يتعلق به لأننا نعتقد أنه حتماً سيؤذينا" يسب ذالك الوطن دائما ويلعنه.. لا.. بل يرغب في إحراقه، ولا يفكر لحظةً أن عائلته وأهله وجميع عشيرته في تلك البلاد، صار لا يهتم لأمرهم، لا يمرون حتى على ذاكرته التي امتلأت كلياً ب"لميس" إلا قليلا، لا فراغ لهم بها ولا لأحدٍ من البشر بعد "لميس" هي من سيطرت عليها، في حياتها وحتى بعد وفاتها، لا هي لم تمت، مالك ينكر ذالك، لأنها ما زالت هنا تحتل فؤاده وذاكرته التي اتسعت لها، إن كان الفقدان يظهر الناس على حقيقتهم.. فلقد فقد من قبلها الكثير، لكنه لم يصل إلى هذه الدرجة من اللامبالاة، أن لا يفتقر إلى أحد،

أن يكون وحيدا ولا يشعر بضعفه، لقد مده فقدانها بالكم الهائل من القوة الذهنية ومقاومة الإنخراط مع البشر والتأقلم مع التوحد واكتشاف ذاته.. شخصيته الأخرى التي كانت تختبئُ بداخله، لكن بالمقابل.. أهلكته.. أهلكته تماما، كان سيتخذ قراره الحتمي.. اللحاق بها.. لو لا ظهور لورين في طريقه المليء بالثقوب والجروف، كان سيفعلها، كان سينتحر لو لا أن أدركته في اللحظات الأخيرة والتقطته قبل وصوله إلى قاع تلك الهاوية، أعادته إلى طاولة الحب مرةً أخرى ودبت في قلبه الحياة، وبالمقابل أنسته جل ما كان يرغب بتفاديه، تزوجها وانضم لأسرتها، فانتمت إليه بدورها ولا تدري لمن هو ينتمي، كل ما تعرفه عنه.. هي تلك الذكريات المبيدة التي لا تعلم من أين نشبت وتحاول محوها بقدر الإمكان، بيد معرفتها المتأخرة أنه خليل صديقتها الراحلة، لم تسأله يوماً إلى أين يُنسب، حتى عندما أنجبت إبنتهما لم تبارح بسؤاله، فلقد أخبرها مسبقاً أنه هرب من داره لينسى.. ويكفيها أنه انغمر في النسيان، لم تكن هي غافلة عن سؤاله، لكن عقلها كان يسبح بها في فلكِ المقامرةِ بين الشك واليقين بأنه ربما سيعود إلى الذكريات وربما ستفتقده للأبد إن عادت تلك الذكرى العنود إليه مرةً أخرى، لذا التزمت الصمت

وها هو الآن جالساً في إحدى مقاعد الجُنينة الخضراء أمام الباب منتشيا من البهجة حد الثمالة في إنتظار إبنته التي خرجت لتوّها تلعب بالدراجات مع صديقاتها ليخبرها أن أمها قد وافقت بالرحيل إلى تلك الديار

لم تتردد لورين لحظة في إتخاذ قرارها بمرافقته والإقامة معه لما ولج إلى غرفتها بغتةً وصارحها دون مقدمة أو أي تلعثم، فكل ما يهمها هو أن تكون برفقته حتى وإن كان الجحيم منزلها، كانت تتلهف آملةً بكل حماسٍ لسماع هذه الكلمات منذ قدوم إبنتهما، أخبرته هي أيضاً بأنها كانت تتردد في كل مرة تنوي التحدث معه بشأن هذا الأمر مخافة أن يصفعها القدر بعودة لعنة الماضي إليه.. ويتخلى عنها من أجل نسيان الذكريات، وما المستحيل في ذالك؟! شخصٌ تخلى عن أسرته.. وأصدقائه.. بل هجر وطناً كاملا من أجل راحة نفسه.. فهل

ستُغنيه هي عن كل ذالك فقط لأنها أهدته قلبا؟ وهل يكفي لحبسه ذلك المثلث الناقص المُخفّى بيسار قفصها الصدريّ؟ وهل سيتمسك بها لأنه أحبها؟ بل وكيف يحدث ذالك وهي ما زالت تشك في حبه لها؟ ما زالت تظن بأنه مجرّد عابرٍ ملّ دياره وقرر.أن يطوف الدُّنى ليزيح ما عليهِ من ضجرٍ.. فكانت هي أول محطة يقف بها قطاره.. وحتما سيرحل عنها.!. لكنه أخرجها من فيض تساؤلاتها وباغتها بردٍ مبهَمٍ قائلا

_لا ماضيَ لي مع أسرتي، حياتي ابتدأت بولوج فقيدتي إلى دنياي وانتهت بمغادرتها، ثم ازدهرت مرةً أخرى بكِ

أثنت عليه بإبتسامة بها القليل من الحيرة، وللمت ما تبقى لها من عزمٍ.. ثم سألته

_لكن ولماذا أخفيت عني كل ذالك طيلة هذا الوقت؟

_لأني خشيت أن تعرفي أصلي وتتخلين عني

أجابها فوراً، مثلما كانت تخشى رحيله.. فقد كان هو أيضاً يخشى فقدانها، وذالك التوجّس المفرط في المشاعر هو ما يؤدي بنا يوماً ما إلى الهاوية إن لم نبح به، طال الحديث بينهما، أخبرته فيه بأنها تحلم بالعيش في أفريقيا، تعشق تلك المنازل الأرضية وأكواخ "القش" والأدغال الصغيرة والغابات كثيرة الشجر زاهية الإخضرار، أخبرته أن حلمها الوحيد هو أن تكون بعيدةً عن عالم الحداثة الملوث بالتكنولوجيا، وأن تقيم في بيتٍ صغيرٍ متواضعٍ تحفه رفوف الكتب من كل ناحيةٍ وتكون ترانيم الطيور موسيقاه، تحلم بالإقامة في مكانٍ هادئٍ تحضنه الطبيعة من كل الجوانب، وهذا لا يتوفر إلا هناك في"أفرِكا"

تصلب مالك من الدهشة، فجميع من هم مثلها أو في عمرها هناك يحلمون بالعيش في أوروبا _جنة الدنيا_ كما يطلقون عليها، وها هي حلمها الأوحد أن تمتلك كوخاً أرضياً من"القش" في تلك البلدة الظالمِ أهلها.. عجباً، هناك من يضحون بأرواحهم من أجل الوصول إلى هنا، وهنا من يبتاعون كل شيء من أجل الحصول على منزل أرضي هناك.. تباً لكل هذا الهُراء، الحياة ليست عادلة

كما يعتقد بعض الفلاسفة والكتّاب، الحياة قاهرةٌ جدا وظالمة، تنزع الأشياء مِن مَن يستحقها وتهبها لمن لا يستحق، ربما يمكننا القول بأن ذالك هو نصيبنا وحصتنا من أسهم الأقدار، لكنها الحياة أيضاً طاغية العبث بمن لا يرضى بقدره، انها تحث عواصف البؤس بعنفٍ لتلك الفئة من الذين يسفهون ما في شتولهم من أزهارٍ جميلةٍ.. ويقصّون بالرؤيا _بعيداً_ في حقول الآخرين، فيرونها زاهيةً خلابةً أجمل من التي عندهم.. وذالك لأنهم رأوها من بعيد، فحتى السراب يبدوا ماءً من بعيد، فيرغبون بتغيير وجهة أقدارهم عُنوةً ويتركون وراءهم جوهرة وهبها لهم الباسط الذي لا يمن للعباد إلا ما يفيد، فليس لأحد من الأمر والإختيار شيء.. عداه _سبحانه_ ويا سحق لمن ابتغى الخِيَرة على ما اختاره الله، فلا يمكننا أن ننجرف ونسعى خلف أحلامنا فقط لأننا تمنيناها.. ننسى التأمل في ما إذا كانت لم تُكتب لنا، نهرول بعَمىً إلى ما نشتهي.. وننسى أن لله شأنٌ فيما نريد، يجترنا القدر أحياناً إلى أحلامنا ببطءٍ دون عناءٍ، وبالمقابل يأخذ منا ما أردنا أن يشاركنا أمانينا.. فلن يصبح لبهجتنا انتشاء

رغم كل تلك النعم التي تحيط به.. إلا أنه يفتقر روعتها، يشعر بتزحلقه في دركِ الجحيم، تأكد أخيرا أن تلك البقعة من الأرض التي وصفها ب "الشؤم" وأنها تعويذة لعنته الشنيعة.. وحدها من تعيد له بشاشته المفتقدة

كانو يرصفون أمتعتهم تأهباً للرحيل، لم يتمكن مالك من الإنتظار كثيراً، فقد هبت عواصف الشوق المهلكة به وتركت بداخله فوضى عارمةً لا يرتبها سوى اللقاء بمن أحب، إننا أحياناً لا نستطيع الصمود كثيراً أمام وابل الأشواق.. تلك الوسيلة التي لا تعرف الرحمة، سرعان ما نصبح ضعفاء مهما كنا شداداً.. وسرعان ما نتلاشى، لا نقوى على تصدي تلك الإندفاعات الفتاكة التي يرسلها القدر عن طريقة الأشواق.

قادته قدماه دون إرادةٍ إلى غرفته لتوضيب خصوصياته، سار ناحية حقيبته القديمة التي ما زالت برفقته، برز ثغره البراق وأطلق ابتسامةً واسعةً لما رآها، هذه هي الحقيبة نفسها التي خرج بها من تلك الديار، اتسعت ابتسامته

مطولا، فتح الحقيبة وبدأ يتفقد أشياءه التي قد رسم الدهر على تمزقها عمراً ليس بقصير، وعلى حين غفلةٍ من تجزئة نظراته الباحثة المتقصية بلهفةٍ.. رأى صورةً رثة غطاها رماد السنين، كانت فيها تلك المجموعة أو عائلته الصغيرة التي رافقته يومها إلى المطار، هطلت الدموع من عينيه دون عزيمةٍ، كيف وصل إلى هذا الحد من التجاهل واللامبالاة؟ لقد التقطوا هذه الصورة يوم الرحيل معاً تخليداً لذكراهم.. لكنه لم يرها إلا حينما تأهب للعودة، ظل يتأملها مطولا يمسحها عدة مرات بكفه الرقيق، يهز رأسه أسفا وهو يتذكر تلك اللحظات ويعيد في ذهنه مقطع تلك الأغنية التي سمعها يوماً ما في كافيه "العمدة" _إحدى مقاهي "النهضة" بمصر_ والتي كان يقول فيها المغني الذي لم يتطرق لمعرفة إسمه، لم يكن يتذكرها بشكل جيدٍ.. لكنه أعاد منها هاتين الجملتين "كل اللي معاك في الصورة غاب، وطنك والأهل والصحاب..

كان مكتوب نمشي الطريق.. ونفارق كل ما نشيء.."

كرر الجملة الأخيرة في سره وهو يمسح بأصابعه وجهه في تلك الصورة، ذاك الوجه الذي لم يعد كما هو الآن، كان شاحب الوجه حزينا في حالةٍ يرثى لها، لم يستطع حتى الآن تفسير ذالك الحزن الذي يكسوا ملامحه بالكامل، أهو تأسفاً لفراقهم أم هو عربوناً تلقاه ضماناً لبيع سعادته حينها وحُظيَ بالبقية بعدها؟.. لا يدري، كل ما يعرفه هو أن حالته لم تزدد إلا سوءاً، حتى وإن خف ألمه.. فإن الذكريات ما زالت تلاحقه يقظةً ومناماً، وإن كانت رحلته بطولها تملؤها السعادة..فإنه لن تكتمل بهجته دون مشاركة الرفاق، إرتطم نظره مرةً أخرى بحقيبةٍ صغيرةٍ تبدوا مليئةً بالأشياء، وهنا قذفته الذكريات بوادٍ غير ذي زرعٍ، تاه مع زواحف الذكرى العنودِ التي لا تعرف الشفقة، صُلبَ في ميادين قسوتها عنوةً وبركت طيور الماضي على رأسه وشرعت تأكل من خبز عقله بلا رحمة، وما أقسى أن نصبح رهائن الماضي، عاد بذاكرته إلى تلك الأعوام اليابسة وتذكر أنها هي تلك التي أعطاها له "حمدان" في ذالك اليوم الأخير وأخبره بأن لا يفتحها إلا عندما يشتاقهم بشدة.. وأيما شوقٍ قد شاقه الآن.. لكن بلا طائل،

فتح تلك الحقيبة المهترئة بحذرٍ خوفاً من أن تتمزق، وجد بها الكثير من قصاصات الورق التي تبدوا وكأنها وصايا، تلك القصاصات هي الوحيدة التي استطاعت عائلته الصغيرة أن تهديها له، قدموها له لما رأوا أنهم سيرافقونه لكل مكانٍ ان احتفظ بها، عرضت لهم لمى تلك الفكرة عندما كان مالك يتابع إجراءاته داخل الصالة يومها، وقالت لهم أن "الكتابة هي الوحيدة التي تصدق شهادتها في كل شيء.. فلتأمنوها ما لم تستطيعوا البوح به إليه"

أُودعت تلك الرسائل في الحقيبة دونما يعلم، والآن عندما عبثت به أعاصير الحنين.. قاده الشوق إليها بغتةً دونما يعلم، كان متلهفاً لرؤية ما بداخل تلك الأوراق، فتح أولها فوجد مكتوباً فيها بخطٍ ربما تذكر صاحبه، قرأها بصوتٍ هامسٍ

"أنا لا أثق في الكتابةِ لأنها تفضح ما بداخلنا للآخرين، ولا أئتمنها.. لأنها غالباً لا تأتي في الوقت المناسب، لكني أشكرها لأنها تهبنا الجرأة الكافية لنودع من لا نستطيع أن نسمعهم كلمة"وداع" بالسلامة يا صديقي، أنا في إنتظارك إن كُتب لنا اللقاء..«حمدان»"

لم يستطع كبح أدمعه هذه المرة، تمردت دون ارادته.. فثلاثون عاماً من الحبس عقاباً تكفي حتى ولو كان المذنب قاتلا، لم يكمل هو حتى العشرون في غربته، لكنها تضاعفت في قلبه السنوات، انفضت أدمعه على تلك الورقة وسكبت فيها فيضانا من الحزن حتى ذاب حبرها، آمَن الآن أن الحروف ليست آمِنة، لماذا اختبأت كل هذه السنوات، لماذا لم تخبره أن هناك ثمة أشخاصٍ ينتظرونه؟ هذه الخائنة التي تُدعى "الحروف" تجمعت هنا في هذه الورقة اللعينة وتوارت بعيدا عن أنظاره، لو لم تناديه هذه الحقيبة لما رآها، تباً لها، صدقت يا حمدان فيما قلت وكذب الفلاسفة والمؤيدون. وضع تلك الورقة جانبا.. وشرع بفتح التي بعدها ليرى ما الذي تخفيه هذه الحروف من أسرار، وبلا وعيٍ وجد نفسه يكرر قراءة هذه الرسالة للمرة الثالثة دون فتور، تراخى شيءٌ ما بداخله، لقد سيطر الندم على عقله وأدمعه الحارقة تسيل بمرارةٍ عابرةً وجنتيه مسرعةً

كجبلٍ جليديٍ التهبت في ذروته الحرائق، ظل يكرر بأسفٍ بالغٍ وهو يطوي الورقة التي لمً يكن فيها سوى بضعة أسطر، "صدقتِ، ليتني لم أفعل" وكان في تلك الورقة هذه الكلمات التي خاطبته بها لمى قائلةً:

"ورغم أني لم أتعرف عليك بعد فقدان ذاكرتي.. إلا أنني لا أشكك في عظمةِ حبك الذي تكنه لرفيقتي، ولذالك فلن أصدق أنك راحلٌ من أجل نسيانها، لن أقول هذا لأبقيك بجانب ذكرياتها، لكن أقول هذا لأنك لن تستطيع نسيانها، أتمنى لك رحلةً سعيدة.. لِمى"

وضعها بجانب الورقة السابقة لأنها كانت أكثر بللا، لم تنحرها الدموع.. لكنها عُجنت بطوفان حسرته وسيول الندم الذي ينهش اطراف عقله ويأكل جزءاً من جسده، بخلاف الدموع التي تنقي العقل وتغسل الاوجاع. التقط ورقة أخرى من بين الثلاثة التي بقيت، وشرع في قراءتها

"لطالما عرضت لنا "لمى" هذه الفكرة قائلة أن الكتابة هي أصدق وسيلة للشهادة، فأردت أن أأَمنها أسراري إليك وأُشهدها على أشياءٍ ربما تغافلت عنها أو ليس لها مجالا بداخلك، أولا فإن السفر والبُعد ليساًٍ ترياقاً مثلما تعتقد، فإنهما لا يزيدان الإنسان إلا صبابةً وتعلقا، فمن تنسيه الغربة أحبابه.. هو الذي يشحن قلبه بالبغض والكراهية، أما المحب فلا ينسى من أحب أبداً، وسأخبرك بشيءٍ آخرٍ لم تُحط به علماً، لقد تعلقت شغفاً بهذه الفتاة.. لن أعكر صفوك، أعلم يقيناً أنك ستعود.. لذالك سأنتظرك لنكمل معاً ما تبقى من قصتي.. أتمنى لك رحلة سعيدة.. جمعة"

إبتسم بتلقائية وهو يعيد شريط الذاكرة لتلك الأيام الغوالي، فهذه دائما هي طريقة "جمعة" في الحديث، دائما هو كذالك، حتى عندما كانوا يلتقون في زياراتهم المتعددة لرفاقهم في "عمارة عم الخير" كانت هذه طريقته في الحديث.. أشبه بالمسلسلات الهندية، يقف في منتصف القصة أو في حدثٍ مهم ليجعلك تأتي في الغد مبكراً، لكن في هذه المرة يبدوا اللغز غريبا، ربما سيكون

سهلا لكنه في غاية التعقيد، أي فتاةٍ يقصدها؟.. لا يهم، وضع ورقته وحدها وبدأ يتأمل الإثنان الباقيان متردداً يأخذ أياً منهما أولا؟

أغمض عينيه والتقط واحدةً ثم شرع في قراءتها بملامحٍ شاردة

"إن أكثر الذين نحبهم يغادرون دون وداع، وأغلب الذين يرحلون دون وداعٍ لا يعودون.. لذالك فأنا أيضاً كنت أخشى أن تولد تلك المسافة بيننا رحيلا دون وداعٍ.. ووداعاً دون عودةٍ.. وقد حدث ما كنت أخشاه، لقد تخلى عني كل من أحببتهم، فابتعدتُ بدوري عن كل من تعلق بي، حتى وجدت ضالتي فيك.. تشبثت بك حد الجنون، كنت أنت الوحيد الذي أخشى فقدانه، وها أنت اليوم تفارقني بكامل إرادتك ولا تدري كم يحرقني غيابك، كنت انت الوحيد الذي ملأني وسد فراغاتي، أسكنتك في مكان لم يقطنه قبلك سوى رجلٌ واحدٌ.. ورحل، وكنتُ أتمسك بك لنفسي سرا، لكن اتضح لي أن كل من يختارهم قلبي.. يتقنون الرحيل بدقةٍ، لا أدري.. هل أنهم يشعرون بالحبس فيه.. أم أن قلبي لا يعشق إلا العابرين، لكن على أيةُ حالٍ.. ولأنما الكتابة هي المأمن الوحيد للأسرار، أردت أن أبوح لك بسر كنت أخفيه بداخلي خشية فقدانك، لكن ولطالما عزمت على الرحيل.. فخذه معك ولا تعد به أبداً، حتى وإن عدت فيتسنى لك أن تنساه، لأنك لن تجد حينها تلك التي أفشت لك به، وسري هو أني" أحبك" أحببتك لكنك لم تكن بذالك القدر كما تخيلت، ولن ألوم سوى نفسي، لأني ظننتك تستحق مشاعري.. فوهبتك إياها دفعةً واحدةً دون تردد، لكن لا عليك حرج، فأنا من أخطأ الوجهة.. رافقتك السلامة أينما كنت،! "أميمة"

الألم الحقيقي هو أن تعاني الهجران من إنسان كنت تظن أنه يشعر بكل ما تكن له من مشاعرٍ لم تبح بها، فلقد أغلقت تلك الأرملة الوحيدة كل الأبواب والطرق التي تؤدي إلى قلبها، ورفضت الكثير من الذين تقدموا للزواج منها لترميم الجراح التي علقت بروحها.. لكنها رفضت، لأنها تدرك أن جراح الروح لا ترممها التقاليد، ما كانت تسمح لأحدٍ أن يقترب من قفص فؤادها، حتى أنها رفضت وظيفتها وعملت "ست شاي" تركت بيت ذويها مقيمةً مع شقيقها في

منزل زوجها المرحوم فقط لتتحاشى طلبات الزواج التي تأتيها بدافع الشفقة، فما حدث لها بعد وفاة زوجها وإبنها كان مثيرا للشفقة، لكنها رفضت، لأنها ما كانت تبحث عن الزواج أو الحب، بل كانت تبحث عن شخصٍ تؤمنه ممتلكاتها العاطفية أولا.. فوجدتها فيه، وحيثما وجد الأمان نشأ الحب، لكن أحياناً نأتمن الأشخاص الخطأ.. والكتمان أسوأ من كل شيء

ما كان "مالك" يعلم بشأن تلك القصة الخفية التي أسرتها في نفسها، وإن كانت تراوغه أحيانا ببعض الكلمات الدافئة، لكنه لم يكن يعتبر علاقتهما أكثر من ذالك الحد، لكن لطالما احتفظت بها لنفسها.. يجب أن تحتمل الجزاء، التقط الورقة الأخيرة التي أُطبقت صغيرةً للغاية والتي خمن قبل قراءتها من هو صاحبها، فتحها وتابع القراءة

"يقول غابريل غارسيا ماركيز.

"كان هناك رجلٌ ألقى بنفسه إلى الشارع من الطابق العاشر وأثناء سقوطه راح يرى عبر النوافذ حيوات جيرانه، المآسي المنزلية، علاقات الحب السرية، لحظات السعادة الخاطفة، أم تداعب طفلا، حضن أبوى، قبلات حارة، وفي اللحظة التي تهشم فيها رأسه على رصيف الشارع كان قد غير نظرته للعالم كلياً، وكان قد اقتنع بأن تلك الحياة التي هجرها عن طريق الباب الخاطئ، كان فيها ما يستحق أن يُعاش"

وأنا أعلم تماماً أن التجول حول العالم لن ينسيك شيئاً، ربما سيلهيك قليلا ويخفض عنك مآسي الذكريات، لكنه لن يزيدك إلا لهفةً لمن تعلقت بهم، لذالك وافقتك بلهفةٍ عندما عرضت علي فكرة الرحيل، لا لتزداد صبابةً.. ولكن ليتسع ذهنك، لترى بأم عينيك وتعلم أن في هذه الحياة لست وحدك المحزون، وأن هذ الوطن الشنيع الذي هجرته كان فيه ما يستحق أن تبقى لأجله، لكن النصائح التي نقدمها أحيانا لا تفيد شيئاً لأولئك الذين نفذ مخزون الصبر لديهم، لذالك اردتك أن ترى لتتعلم، لأنك إن مكثت هنا فلن تصيغ لنصائحي

وحينها لن تكون نهايتك أبعد من الإنتحار، لذالك عش نقيا ولا تنسى أن تذكرني في دعواتك، حفظك الله"

ما إن أنهى قراءة تلك الورقة حتى شرع يتمتم بالدعوات للعم صالح، لقد لخص جميع معاناته التي حدثت في تلك الورقة قبل أن تحدث، وكأنه كان على درايةٍ بخُطى أقداره، لكنه لم يصل إلى الحكمة من تطيبق الورقة بهذا الحجم الصغير

وأخيراً جمع كل تلك الرسائل في ظرفٍ واحدٍ وكتب فيه

"من أجلكم سأعود"

الفصل الخامس والأخير "ليس".

"يعقل المرء عندما يحب، ويكبر عندما يبتعد عن من يحب، لكنه يشيخ عندما يتعلق ذالك الحب بوطنه"

"مصطفى نمر"

كنت صغيرة جداً عندما أخبرني والدي أن "الطيبون لم يُخلقوا للبقاء" قال لي ذالك لما سألته عندما توفت جدتي وكانت أمي لا تكف عن البكاء، ورغم صغر سني حينها لم ترسخ تلك الكلمات في ذهني، كنت أراها مجرد كذبة شعواء.. رغم أني لم أعتد تكذيب أبي، لكني كنت أقيس طيبة الراحلين بعناء الباقين من ذويهم، لأنهم لو كانو طيبون حقا لما رحلوا، لما تركو الألم يهشم قلوب عائلاتهم والدموع تسيل أنهاراً من مُقل أحبتهم، وأيضاً لم استوعب ذالك لأن جميع من حولي طيبون.. وكلهم أحياء، لذالك اعتقدت أن الذين يموت هم أشرار، وأن "الأشرار هم الذين لم يخلقوا للبقاء" كنت أفسر الأمور بقدر عقليتي وفي حد ما أراه، لكن الآن وبعد مضي تسع سنوات على تلك الحادثة اتضح لي أن تلك الحياة ما هي إلا سيناريو لمسلسلٍ لم تكتمل حلقاته، كل الطيبون حولي، الأصدقاء والأقارب الذين يقابلوني بوجهٍ بشوشٍ باسمٍ، يقبّلوني عندما أجتاز اختباراتي المدرسية، ويقْبلون عليّ بالهدايا والحلويات عندما آتي بمجموعٍ جيدٍ في المدرسة... ما هم إلا ممثلي ذالك المسلسل، يؤدون أدوارهم.. ومن ثم يتلاشون، عندما كبرت علمت أن الحياة كانت عكس توقعاتي تماماً، كل شيءٍ تغير، حتى أنا لم أعد تلك الطفلة البريئة التي تحب الكل، تعانق الجميع وتتشبث بأعناقهم، صرت حبيسة البيت متناقلةً بين جامعتي ورفوف مكتبتي التي وجدتها مفعمة بالكتب العربية التي أخبرني أبي أنه قد أعدها لي مسبقاً قبل انتقالنا من لندن وإقامتنا بهذا المنزل البسيط، أدمنت القراءة حتى أصبحت جزءاً من حياتي، أشعر بالنقص إن لم أفتح كتاباً على مدار اليوم، ولا يكف أبي عن تزويدي بالكتب أبداً، ناهيك عن صديقتي "لميس" التي لا تتغيب عني يوما، تأتيني في كل مساءٍ لنقرأ الروايات ونراجع الدروس معاً، فهي جارتي ورفيقتي منذ الثانوية والآن نقرأ في نفس الكلية، وأحياناً تشاركنا القراءة والدتها لبعض الوقت برفقة أمي اللتان لا يفترقان إلا في الضرورة، حيث أن كل واحدةٍ منهما خصصت للأخرى غرفةً بمنزلها، والكثير من صديقاتي اللواتي

يأتينني في فترة الإمتحانات من أجل المراجعة، ناهيك عن النسوة اللواتي يأتين في كل جمعةٍ يُقمن حلقةً دائريةً يختمن فيها القرءان، ثم يندفعن إلى المكتبة ويقضين فيها بعض الوقت من القراءة، لكن لا يقرأن إلا من تلك الكتب القديمة التي تمزقت أغلفة بعضها، يوصينني بشكلٍ دائمٍ أن أحافظ عليها من التمزيق، كنّ لطافٌ معي، لكن لم أراهن يوماً يلمسن كتبي أو الكتب الجديدة التي يقتنيها لي أبي، ولم أفهم ذالك اللغز حتى الآن، انسكبت على أبي بشكوكي وأسئلتي حول أولئك النسوة وحلقة القرءان تلك التي لا يتغيبن عنها في كل جمعة، فأجابني مرتبكاً أنهن صديقات عمتي الراحلة، ويفعلن ذالك هبةً لروحها، رأيت الضيق في عينينه وهو يتحدث.. فهززت رأسي وسكت، لكن لم يرضخ ذهني لتلك الإجابة، لأنه من المستحيل أن يكون لي عمةٌ ولن أعرف عنها شيئاً سوى أنها متوفاة وصديقاتها يوفين بالعهد، حتى وإن لم يكن لها أبناء أو لم تكن متزوجةً.. فإنها ستكون لها عائلة، ولم أعرف في عائلة أبي التي أزورها مرتين في كل شهرٍ سوى أختين له وكلاهما على قيد الحياة، بل لم يتحدث عنها أحد، حتى اللواتي يأتين في كل جمعةٍ يكتفين فقط بالقراءة، لا أدري هل أنهم لا يتحدثون عنها مطلقاً، أم أنهم يتحاشون التحدث عنها أمامي، أم أنها توفت منذ وقت بعيدٍ وأصبح الأمر روتينيا...؟ لا أعلم، لكني سأصعَق إن لم أتعرف على عمتي هذه، لم أبارح أحداً بالأسئلة في هذا الموضوع بعدها، لكني أصبحت شديدة التركيز في الأحاديث مرهفة السمع، أتصنع اللامبالاة.. لكني أتطرق بتركيز دقيقٍ لأي حديثٍ عابرٍ لأبي أو أمي أو أي أحد تربطه بهما علاقة، وصلت مؤخراً الى فكرة ربما ستقودني إلى تحقيق نبوءاتي، استنتجت بعد مجابهةٍ وجدالٍ عنيفٍ مع عقلي.. أن عمتي _هذه المتوفاة_ لها علاقة شبه متينة بهذه المكتبة، فكل من يأتي لأجلها يقضي بعض الوقت فيها ثم يغادر، وربما ذالك الذي أخبرني به والدي بشأن المكتبة ليس صحيحاً، فجميع رفوفها مليئةٌ بالكتب والروايات النادرة والقديمة للأدباء القدامى، والتي تبدوا مستعملةً مما يدل على أن أحداً ما كان يقرأ منها، وأن هذا القارئ من الجيل الماضي، فإن لم يكن

والدي، فستكون هي.. عمتي التي لا أعرف عنها شيئا، لذالك هممت بتقليب المكتبة وتفتيشها بعيداً عن أعين والدي، لكنني أجلت أمري إلى أن أتأكد بأنه ليس أبي من رتبها حتى لا يكون بحثي هباء، قررت أن أراوغه بحيلةٍ تجعله يخبرني دونما يشعر، إنتظرته حتى المساء عندما عاد من العمل، تشبثت بحضنه كالمعتاد وأنا أتمتم بالحمد، ومن بعيدٍ عانقتني أمي بنظراتها ورمقتني متصنعةً الغضبً وهي تقلب كفيها وتتوعدني بإبتسامةٍ تحاول أن تجعلنا صفراء، لكنها تخرج بيضاء متلألأةً من ثغرها البرقي، فقد حذرتني أكثر من مرة بأن لا أتصرف بطفولية مع أبي لأني كبرت، ومعها الحق في ذالك، نعم أنا كبرت لكني امرأة في كل شيء إلا في حضن أبي، بين ضلوعه أصبح طفلة في الخامسة

في صباح اليوم التالي دخلت المكتبة وبدأت أبحث، أقلب الكتب والروايات التي رُصفت على الرفوف بإنتظامٍ، أقلب كل ما تطلع عليه عيني بعدما علمت من والدي أنه ليس هو من أنشأ المكتبة، لم يخبرني بنفسه، لكنني عرفت من طريقة حديثه معي، فلقد قرأت يوما في أحد كتب "علم النفس" أنه "عندما تطرح على شخصٍ ما سؤالا وتجد أنّه يجيب عليه بالكثير من التفاصيل عديمة الفائدة، فهو على الأرجح يكذب" وأبي كان كذالك، لا أجزم أنه يكذب حقاً، لكنني على يقين بأنه يخفي عني شيئا بشأن هذه المكتبة، بحثت في ذالك اليوم لكني لم أجد شيئاً يحقق لي نبوءاتي، حتى يئست وبدأت أراجع ما قاله لي والدي ربما كان على صوابٍ، جلست في مقعدٍ على الطاولة الطويلة، اتكأت عليها بذراعيّ وأخرجت هاتفي أتصفح منشورات "الفيسبوك" وبغتةً وقعت عيني على منشورات عزاءٍ متتالية من صديقاتي ينعون فيها وفاة أستاذتي "يسر" تلك التي تعلمت منها الكثير من أساسيات الدين والحياة، لقيت حتفها شهيدةً في أرضها التي عادت إليها منذ سنواتٍ شوقاً للشهادة، لم أرها منذ تسع سنوات وها أنا الآن أقرأ تاريخ وفاتها، لقد رحلت شهيدة من بين ٣٣ شهيداً آخر، منهم ثمانية أطفال وإثنا عشر سيدة من ضمنهم هي، كان ذالك على إثر ضربات جويةٍ إسرائيلية تم تنفيذها في يوم الأحد السادس عشر من أيار/مايو على

قطاع غزة في الأسبوع الثاني من بدء القصف بين إسرائيل وحركة "حماس" الفلسطينية، حينها فقط أدركت صِحّة قول أبي أن "الطيبون لم يُخلَقوا للبقاء" رحمها الله أستاذتي الفاضلة ولعن الله الحروب ومسببيها، أنا لا أنتمي لطائفةٍ ولا أؤيد غير الحق، لكن أيا كان.. فأنا ضد الحروب، لأن الحرب ليست مادة للإستخفاف، فعندما تندلع الحروب يفر الأثرياء بأموالهم.. ويموت الفقراء جوعا وحسرةً تحت ركام الخوف وحطام البنايات

إتكأت على مقعدي وأنا أختنق حزناً وأسفاً، وعلى حين غفلةٍ لمحت عيناي درجاً عريضا ملتصقاً بالطاولة شدني فضولي إليه ففتحته دون تفكيرٍ علّي أجد شيئاً يدلني نحو مرادي، وجدت فيه الكثير من أقلام التلوين والدفاتر والأوراق يعلوها دفتراً صغيراً يبدوا قديماً شيئاً ما، لقد امتلأ غبرةً وكساه التراب، رفعته فوجدته مذكرةً كتب صاحبها على الغلاف بخطٍ عريضٍ "إن دامتِ الأيام" وكانت ملفوفة بخيطٍ رفيعٍ، فتحتها مسرعةً وانغمست في قراءة بعض كتاباتها...

"عندما قامرت عصابة الجنجويد مع دول "الخليج" و "الأمريكان" على الدولة _رغم علمهم بخسارتها_ حينها نهض الشعب ثائراً من تحت الطاولة وأنهى اللعبة"

"من يرتجي العدل من الطغاة كمن ينتظر مرور نهر في بيداءٍ قاحلة"

"مليون ميل ألف مربع، نيلان يمتدان من جنوبه وحتى أقصى شماله، مشاريعاً زراعيةٍ تمتد أميالا لا حدود لها، وما زلنا نعاني الفقر، الجوع، قلة الماء وقطوعات الكهرباء، ناهيك عن الحروبات القبلية التي تتوالد وأبدا لا تخف، ويحاولون إقناعنا بأنها حكومة "الإنقاذ"

"الكثير من رجال الدولة.. الكثير من مخافر الشرطة .. الكثير من الجنود.. ولا شيء من العدالة"

"تحققت كل أحلامي إلا واحداً منها.. أن أحيا في وطنٍ مسالم وجميل"

"اطلقو علينا ما شئتم من أسماء، ابناء الشوارع، متمردين، نقرز، شماسة.. أي اسم ترغبون به، لكننا لن ننناديكم الا باسمكم الحقيقي "جنجويد"

ظلت أقرأ وأقرأ وفي كل مرة تتسع دهشتي أكثر، قلبتها من الناحية الأخرى فوجدت مكتوباً فيها "سأكون أماً لصغارك إن دامت الأيام.. لميس" صُعقت عندما قرأت إسمي في خلفيتها.. ما هذا، أعدت قراءتها مرةً.. لكني ذُهلتُ حقاً، فهي مكتوب إسمي عليها.. لكنها ليست من مقتنياتي ولا حتى الخط يشبه خطي ناهيك عن أنها قديمةٌ رثةٌ وكأنها لم يلمسها أحدٌ منذ سنوات، شغلت بالي هذه المذكرة، لمن تعود هذه المذكرة ومن هي "لميس" هذه؟ أيُعقَلُ أن تكون صديقتي إبنةُ "لمى"؟ لا، لا أظن ذالك، هي بالكاد تفوقني بثلاث سنوات، ويعود تاريخ هذه المذكرة إلى ما قبل عشرون عاماً أو أكثر، يا ترى من هي؟!.. ربما ستكون تلك التي تُدعى "عمتي".!؟... ربما.

وضعت المذكرة جانباً وبدأت أقلب ما تبقى من الأوراق والدفاتر في الدرج، بدأت في إخراج جميعها، أقرأ سطراً من كل ورقةٍ أمسكها.. ثم أضعها جانبا، حتى أمسكت بورقة "بريستول" عريضةٍ كانت مقلوبة وبها بعض العبارات لكني تعجلت وعدلتها قبل قراءة تلك النصوص فوجدت فيها رسمة لشابٍ برداءٍ أبيضٍ جالساً على مقعدٍ طويلٍ واضعاً حقيبة كتفٍ رجاليةٍ على حجرهِ وعليها دفتراً صغيراً ممسكاً بيده اليمنى قلماً ومنحنيا نحو الدفتر كأنه يلخص شيئاً مهماً، وبجانبه فتاةٌ مبتسمةٌ ترتدي الأبيض هي أيضاً واضعةً رجلها على الأخرى، تمسك بيدها اليُسرى كتاباً تتأمله بهمةٍ وباليُمنى كوباً أبيضاً يبدوا أنها ترتشف منه شيئاً ما، وأمامهما أطفال يلعبون بالكرة الهوائية ومجموعة شبابٍ يجلسون على حصيرةٍ والكثير من الناس التي تتزين بالرداء الأحمر. لا أدري هل أنها تهيؤات أم أنني حقاً رأيت هذا المكان، تأملتها مطولا ثم قلبتها من الناحية الأخرى وقرأت ذالك النص المكتوب بخطٍ ديوانيٍ جميلٍ

"ما كنت أؤمن أبداً بحب النظرة الأولى، لكنني في هذا اليوم أيقنت حقاً وعرفت أن كل شيء يثبت مقامه في اللحظةِ الأولى.. فأحببتك من أول نظرةٍ"

ربما كانت تلك اللحظة هي الأجمل في تاريخها ولا شك في ذالك، فالأنثى هي دائما في المقام الأول للحفاظ على الذكريات الجميلة، عكس الرجل.. فإنه يركز

دائما على الجانب السلبي، مثلا: إن كان هناك رجلٌ وامرأةٌ وبينهما علاقة حب متينةٍ عاشوا أجمل اللحظات معاً ثم افترقا بصورةٍ بشعةٍ، فستحتفظ الأنثى بذكرى اللحظات الرائعة من العلاقة، ويكون الرجل وريث لحظة الفراق النهائية للأبد، حيث أن بعض الرجال ينهون الإرتباط والبدء في علاقةٍ جديدة، لكن مهما كان ألم الجرح عميقاً.. فإن المرأة لا تملك قلبا تحمل فيه قساوةً بقدر صلابة قلب الرجل، سرعان ما تتقبل الوضع عند الإنفصال وتتقبل حقيقة أنها كانت مع الرجل الخطأ، وتشارك ذالك مع المحيطين بها مما يجعلها أكثر ثقةً وتقبلا وسهولة البدء في علاقة أخرى جديدة.. ولا تنسى جميل تلك العلاقة، لكن الرجل يكتم بداخله وذالك الكتمان يجعل منه شخصاً آخر، فيمضي الكثير من الوقت ليتقبل فكرة الإرتباط لأنه رسخت في عقله أواخر تلك اللحظات القاسية فيغير نظرته للنساء ويراهن جميعاً مثل التي افترق معها.. فيتطلب منه الكثير من الوقت لينسى، لذالك ربما كانت تلك هي أول أيامها في معارك الحب.. فأرادت الحفاظ عليها، أو ربما قد تكن هذه ليست سوى إحدى لوحاتها، إن كانت هي عمتي حقاً فمن الممكن أن تكون مثل أبي.. عاشقة لفن الرسم والكتابة، وما أعظم أن يكون الكاتب رساماً أو الرسام كاتباً، سيصبح ذالك مزيجاً من عمق الثقافة، وإن كانت هي أياً منهما _كاتبةً.. أو رسامة_ فلابد من أن تكن قارئة أيضاً، وإن كانت كذالك فستكون هي من أنشأت هذه المكتبة وليس أبي؛ لا يهم إن كانت حقاً عمتي هي أم لا.. المهم أن أصل إلى مبدأ هذه اللُعبة

وضعت تلك اللوحة جانبا وشرعت في تقليب بقية الأوراق، وجدتُ الكثير من الرسومات والأوراق المليئة بالتلخيصات والإقتباسات وبعض الآيات القرءانية والأحاديث وكلمات الأغاني المكتوبة بخط اليد، حتى وجدت أخيراً رسمتين لفتن إنتباهي بشدة، خِلتُني رأيتهما في مكانٍ ما، كانت إحداهما لمقعدين في قمة الروعة يطلان على البحر، عُلق على ظهر أحدهما معطفاً شتوياًّ والآخر فارغٌ

أمامهما طاولةٌ مستطيلةٌ بها سلةُ وردٍ وجيتار وحقيبة يدٍ نسائيةٍ وكُتب خلفها "أخشى أن أرسمنا فيمتنع" المقرن" من أن يدخله سوانا"
وفي الثانية باحةٌ كبيرة شاسعةٌ للغايةِ بها قباب ومنارات تبدوا وكأنها معلماً أثرياً بالغاً للغاية، شردت مطولا بعقلي وأنا أفتكر أين رأيتها، حتى تيقنت أخيراً عندما وجدت مكتوباً في خلفيتها "لأجلك يا وطني.. مسجد الخليفة" عرفت حينها أين هو، وتذكرت أيامي الأولى في هذه البلدة، حينها كنتُ لم أتعدى العاشرة بعد، تذكرت عندما خرجنا جولةً سياحية أنا ووالدي وبرفقتنا العمة "لمى" كنت أنا جالسةً بقرب أبي وهو يقود السيارة ملتصقةً بزجاج النافذة أراقب روعة تلك المدينة بصمتٍ ودهشة، رغم أنها فقيرةٌ وسيئةٌ إلا أنها جميلةٌ ببساطتها، كجمال ساكنيها وطيبتهم، كانت العمة لمي تجلس في الخلف بجانب "أمي" تذكرت لما سألتها أمي ونحن نعبر أمام هذا المبنى قائلةً
_واوو.. ما أروع هذا المبنى وأعظمه؟ لمن ينتمي هذا المبنى الأثري الجميل
قالت العمة لمى
_للتاريخ
قالت أمي
_ماذا تقصدين
إبتسمت العمة لمى وقالت
_أقصد أن هذا المبنى هو "مسجد الخليفة" أو "حوش الخليفة" كما يطلق عليه الكثير من الناس
نظرت إليها أمي في عدم إستيعابٍ وهي تناشدها بإستكمال التفاصيل، فقالت وهي تشدها لإفراغ المزيد من المعلومات عن هذا المبنى العتيق
_لكن لماذا سُميَ بهذا الإسم؟ ألا ترينّ أنه من المفترض أن يُسمى مثلا ب "مسجد أم درمان"؟ لأنه أبرزُ المعالم فيها؟
_ لا، بل من المفترض أن تُسمى" أم درمان" ب"مدينة الخليفة" لأنه هو الأساس فيها.. لكن لم يحدث ذالك، ولرأيكِ أيضاً وجهة نظر، لكن هناك مسجدٌ آخرٌ

يحمل هذا الإسم وهو "مسجد أم درمان الكبير" ولكلٍ منهما قصةٌ تلخص تاريخه، فـ "مسجد أم درمان" _مثلا_ يعود تاريخه إلى قصةٍ ربما تبدوا خيالية نوعاً ما، ذكر الأستاذ "حسن نجيلة" في كتابه "ملامح سودانية" أن الفضل في حث الناس لإكمال هذا المسجد يعودُ لشاعر مسيحي، وأوضح أنه قد توقف العمل فيه مطولا بعد بداية تأسيسه، وفي احتفال عيد الهجرة 1341 اعتلى المنبر شاعر مسيحيٌ يُدعى "صالح بطرس" وألقى قصيدةً.. شجعت أهالي المدينة على إكماله في وقتٍ قياسي وفي عام 1925 افتُتح رسمياً وسُمى "مسجد أم درمان العتيق" نسبة للمدينة وأهليها

رمقتها أمي بنظرة إعجابٍ وذهولٍ، هزت رأسها من أعلى إلى أسفل متفهمةً، فصمتت العمة لمى قليلا.. ثم همّت بالمواصلة..فقاطعتها أمي قائلة

_حسنا، لكن هناك سؤالٌ يلحّ علي، لماذا سميت أم درمان بهذا الإسم؟

_حتى أنا لا أعلم، فهناك الكثير من الروايات في تفسير معنى هذا الإسم وأصله، وأكثرها رواجاً هي تلك التي تشير على أن هذا الإسم يعود إلى امرأةٍ تنتمي إلى أسرةٍ مالكةٍ كانت تسكن المكان الذي قامت عليه المدينة بالقرب من ملتقى النيلين الأبيض والأزرق وكان لها ولداً اسمه "درمان" وكانت تسكن منزلا مبنياً من الحجر ومحاط بسور متين ظلت أثاره باقية حتى عهد قريب في حي "بيت المال" الحالي، وإلى أم هذا الولد نُسب اسم المكان، وثمة رواية أخرى مماثلة تقول بأن المرأة هي التي كانت تسمى "درمان" وأن منزلها كان مكاناً آمناً بسبب ما يحيط به من سور وكانت المرأة تلقب بأنها "أم دار الأمان" والذي تحرف وأصبح "أم درمان" وهنالك رواية ثالثة تذهب إلى أن أمدرمان (بفتح الهمزة والميم) لفظٌ عربيٌ قحطاني الأصل ويعني المرتفع من الأرض، ولأم درمان إسمٌ آخر قديم هو "وشل" ويعني المكان الكثير الماء، وقد أطلق عليها المهدي بعد أن اتخذها عاصمة للدولة اسم البقعة الطاهرة، هذا كل ما أعرفه عنها، ولكن هذا الإسم قديمٌ في تاريخه، قد يعود إلى ما يعرف بعصر "العنج" السابق لعصر "الفونج" في القرن السادس عشر الميلادي بالسودان

كانت أمي مندمجة بتركيزٍ شديد، هزت رأسها ببطئٍ واستيعابٍ وقالت
_رائع.. شكراً لكِ على هذه المعلومات، ما كنتُ أعتقد أن لهذا الإسم معنىً عميقاً لهذه الدرجة، حسناً أكملي ما كنا نتحدث عنه
_بالطبع، الكثير من الناس يستهزئ بهذا الإسم ويسخر منه لغرابته، وذالك لأنهم لا يعرفون عن تاريخه شيئاً؛ أما بالنسبة لهذا المسجد "الخليفة" فسُمي بهذا الإسم نسبةً لمقر الخليفة "عبدالله التعايشي" وخليفة قائد الثورة المهدية الإمام "محمد أحمد المهدي" وكان أول مسجد شُيّد في مدينة "أم درمان" عام 1887 والذي وضع حجر أساسه الخليفة بنفسه، بل كان هو من يؤم المصلين فيه بنفسه، كما كانت تُحكم الدولة من داخله، وفي عام 1928حُوّل إلى متحفٍ تاريخي لإحتوائه العديد من المقتنيات النادرة التي تعود إلى تاريخ المهدية وما قبلها
قاطعتها أمي قائلةً بعد صمتٍ قليلٍ
_ من هو محمد أحمد المهدي؟ ومن هم المهدية
نظرت إليها العمة "لمى" مذهولةً بشرودٍ وكأنها أرادت أن تقول لها "هل أنتِ جادة" لكنها كتمت تساؤلاتها بداخلها وشرعت في تعريف أمي بهم قائلة
_"محمد أحمد المهدي" هو زعيمٌ سوداني وقائدٌ عسكريٌ قاد الثورة المهدية ضد الحكم التركي في السودان ونجح بتحرير "الخرطوم" عاصمة البلاد وقتل الجنرال البريطاني "تشارلز غوردون" الحاكم العام للسودان في العام ١٨٨٥ ثم قام بتحويل العاصمة إلى "أم درمان" والمهدية هم أنصاره، وكما عُرفوا بـ "الحواريون" أيضاً
لا أنكر امتعاض أمي حينها وتغير ملامحها، لا أدري لماذا؟ ولكن ربما لذكر العمة "لمى" قتل "غوردون" على يد المهدي، فذالك يدل على خسارته، والغرب لا يرضى بذكر الخسارة وما زالت بداخل أمي نسخةٌ لإمرأةٍ غربية، فقامت أمي بتغيير ضفة الحديث متجاهلةً ما قالته العمة "لمى" ومدعيةً اللا مبالاة وقالت

_رغم قدمه وكبره إلا أنه يبدوا رائعاً من حيث التصميم والبناء، هل أنشأه المهدي بنفسه؟ وكيف يبدوا من الداخل؟

_لا، قام بإنشائه رجلٌ من الأنصار يدعي "حمد عبد النور" ووضع خارطته مهندسٌ إيطالي يدعي "بيترو"، يُقسم البيت إلى عدة أقسام من الداخل، منها غرفة الزائرين، ديوان الشورى، غرف الوزراء، سكن زوجات الخليفة، ويحتوي أيضاً على عدة أبواب منها: باب لزوجاته وأطفاله، وباب للزوار، وباب المسجد، وباب يدخل به الأمير يعقوب شقيق الخليفة عبد الله، وكان لايسمح بدخول أي شخص إلا من الباب المخصص له

هزت أمي رأسها متفهمةً وصمتا قليلا، ثم بدءا بالثرثرة مرةً أخرى وأبي صامتٌ لا يقول شيئاً يكتفي بمراقبتهن فقط بالمرآة العاكسة ويبتسم عندما يقلن شيئاً مضحكاً، عبرنا تلك الأماكن كلها ودخلنا بشارعٍ صغير لا يستع لأكثر من سيارتين كان مغموراً برائحة المسك والعطور، وكان مزدحماً بالسيارات أيضاً والكثير من الحشود المتجمهرة التي ترتدي ملابساً وقبعات وشالات باللون الأزرق وآخرون بالأبيض، يغنون وينشدون معاً أغنيةً واحدةً بصوتٍ واحدٍ في إيقاعٍ واحدٍ بلحنٍ جميل، يتتبعون سوياً في صفٍ طويلٍ كالنمل ويدخلون إلى مبنى ضخم، كنا نتأملهم بدهشةٍ وشرود، أوقف أبي السيارة بجانب ذالك المبنى واستأذننا لدقيقة، حينها سألتْ أمي العمة "لمى" وهي تتابع التأمل في ذالك المبنى والحشود

_ما هذا المكان؟ ولماذا كل هؤلاء الناس؟

_إنه إستاد نادي "الهلال" الرياضي، واليوم هو موعد المباراة بين "الهلال" و"مازيمبي الكنغولي" في بطولة "الكونفدرالية"

هزت أمي رأسها وقالت وهي تتأمل ذالك الجمع من الحشود العظيمة

_لابد أنه يتمتع بشعبيةٍ عظيمة

_بالتأكيد

أجابت العمة "لمى" وفي هذه اللحظة اتجهت أمي بنظراتها ناحية والدي الذي كان يقف أمام مبنىً أرضي يبدوا أثرياً، قديماً ومهترئاً، واضعاً كفيه في جيوب بنطاله ورافعاً رأسه بشموخٍ وحنيةٍ يتأمل تلك اللافتة التي عُلقت بفوقِ البوابة والتي مكتوبٌ عليها بخطٍ واضحٍ وعريض"جامعة أم درمان الإسلامية، كلية اللغة العربية" انتبهت العمة "لمى" إلى شرود أمي التي صمتت ملياً وهي تنظر بشرودٍ إلى أبي الواقف أمام تلك البناية فالتفتت تراقبه معها وهي تجيب أمي على تساؤلاتها قبل نطقها

_هذه كليته التي قرأ فيها وتخرج منها قبل خمسٍ وعشرون عاماً

فوراً تناولت أمي "الكاميرا" من حقيبتها دون أن تنطق أخفضت زجاج النافذة قليلا والتقطت له عدة صورٍ ثم أعادتها إلى حقيبتها ومن ثم عادت تتأمله.. ولم تنطق بكلمة، دُهشت عمتي من تصرفها ذالك، لكنها أيضا احترمت صمتها فتريث جميعاً يتأملنه في صمتٍ مخيف، لا أدري هل أرادت والدتي أن توثق تلك اللحظة حين التقطت له صورةً أم أنها..

_لميس.. حبيبتي لميس.. هل أنت هنا

إنتفضتُ من مقعدي مذعورةً على صوت أمي ووقع خطواتها التي تقترب بالقليل من المكتبة، غفلتني وأخافتني، قطعتْ شرودي في الماضي، إرتبكتُ.. ماذا تريد أمي؟ إنها تعلم بمواعيد مذاكرتي ولم تزعجني يوماً.. فلماذا اليوم؟ وماذا أفعل الآن؟!.؛ بلا تفكيرٍ وضعت تلك اللوحة وشرعت في لملمت الأوراق بسرعةٍ دون نظامٍ وبدأت بإعادتها إلى الدرج بفوق التي لم أتأملها، وقبل أن أنهيها سمعت صوت المكتبة يُفتح وأمي تتقدم نحوي وهي تتمتم حائرةً بنبرة إستعطافيةٍ بعدما رأت إحدى تلك الرسومات

_لميس؟ ماذا تفعلين؟ هل ترسمين؟

***

إن ذالك اليوم كان أعظم كابوساً مر بي في حياتي، لم أتمكن من النوم بسبب التفكير بعد القصة التي حكاها لي والدي بشأن هذه المكتبة وصور البطاقات الجامعية التي تعود إلى ما قبل ربع قرن وأكثرٍ لفتاةٍ عشرينيةٍ وبعض الرسومات واللوحات العديدة التي وجدتها في ذالك اليوم، في البداية ظننت أنها مجرد رسماتٌ شدت ذهنها..لكن أخبرني والدي أنها واقعية وليست من صنع الخيال في ذالك اليوم عندما باغتتني أمي في المكتبة رأت كل شيء، وأخبرتها بكل شيء، حتى أنها انضمت إلي في البحث وهي التي كانت تنهاني عن السؤال عن أي شيءٍ يخص عمتي.. شدها فضولها ودون شعورٍ منها وجدت نفسها تقلب تلك الأغراض فرأيت معها بقية الأشياء التي لم أرها، وبينما نحن نبحث في المزيد وجدنا صورةً جميلةً مرسومة بألوان زاهيةٍ لشابٍ عشريني حسُن الملامح ذو إبتسامةٍ واسعةٍ عسليةٌ عيناه، يرتدي قميصاً أبيضاً مربعاً ذراعيه على صدره ممسكاً بطرف يده اليسرى قبعةٌ مستديرة سوداء، وكُتب تحتها هذه الجملة "تعلمت الرسم من أجلك، من أجل أن أحتفظ بك في أوراقي إن غبت يوماً عني، لأني مثلما آمنت بلطافة القدر أؤمن بشؤمه أيضاً" بكت أمي كثيراً حتى ابتل ردائها من غدقِ الدموع، وبكيت أنا أيضاً كثيراً وأنا أحاول تهدئتها لما رأيتها بتلك الحالة، لكن لم يكن نحيبي دموعاً فقط.. بل حيرةً وذهولا، أرى أمي تبكي فأبكي ولا أدري ما السبب الذي يبكينا، رمقتني بنظرة شفقةٍ وأسفٍ ثم احتضنتني بقوةٍ وأنا الغارق ذهني في التشتت، سألتها

_ما الذي يبكيك يا أمي؟

صمتت قليلا، ثم استعادت شجاعتها وجمعت كل قواها وقالت مبتسمةً وهي تشير لتلك الصورة

_أتعرفين من هذا

أجبتها: لا

قالت: هذا والدكِ

لم تضف بعد ذالك كلمةً، شرعتْ في جمع بقية الأوراق ووضْعها بترتيب في مخبئِها، لكني صُدمت، وضعتُ كفيّ على خدّيّ، رفعت حاجبيّ، وقوست فمي من الحيرة والصدمة، هل هذا هو حقا؟ أم هذه فقط تهيؤات؟. أرادت أمي جمع تلك الصورة أيضاً لكني التقطتها من يدها بعنجهية رافضة جمعها، ظللت أتأملها وأتأملها وغرقتُ في تفاصيلها، لقد كان أبي في ذالك الوقت شاباً وسيماً رائعاً، وكان قوي البنية كما يبدوا في الصورة، وبعد ساعةٍ من التفكير والتأمل وصلت إلى فكرة.. أن أباغت أبي وأريه تلك الصورة.. وفعلتها، فاجأت أبي وهو جالسٌ في الجنينة أمام البيت يصغي إلى موسيقي "الوداع الأخير" وبيده كتابا يقرأه، داهمته من ظهره بطفوليةٍ ومددت ذراعيّ أمامه بتلك الصورة وقلت

_أتعرف هذا الشاب الوسيم؟

لم يتفاجأ حينها بقدر ما تخيلت، بل ظل ساكنا عاديا لم يحركه شيء، أمسك تلك الصورة وظل يتأملها بإبتسامة بيضاء واسعة تجيب عن سؤالي وترد له في آنٍ واحدٍ، ثم قال ممازحاً وهو يقلب الصورة

_لا أظن أني أعرفه، من هذا؟

لكنه انتفض هلعاً عندما رأى تلك الكتابة على ظهرها حتى أخافني، ظل نبضه يخفق عاليا وبسرعةٍ، مرت بجسده قشعريرة عابرةً وأصابته الحرارة الزائدة، لا أدري ما الذي حل به لكنني أول مرة أراه بمثل تلك الحالة، بدأت أتطمأن عليه لكنه تظاهر بالتمسك وأخبرني أن لا شيء يقلق، ثم سألني بتردد وهو ينظر إلى غلاف تلك الصورة

_أين وجدتها؟

_في المكتبة

فاتجه إليها، لا أدري لماذا يهزه غلاف الصورة أكثر من الصورة نفسها، أم أن ما هزه هي تلك السطور التي خُطت في خلفيتها؟ كنتُ مترددةً في أن أسأله أو لا، لأنه لم يكن على طبيعته في ذالك الوقت، وبينما كنت غارقة في تساؤلاتي تلك كان هو قد غادر مسرعاً للمكتبة، لم أتبعه.. ظللت جالسةً في مكاني، غارقةً في

تساؤلاتي، أخرجت هاتفي وبدأت أتصفح منشورات "الفيسبوك" فوجدت كتاباً جديدا بعنوان "كانت تشبهه" لتلك الكاتبة الفلبينة التي صادقتها في العام السابق عندما ذهبت إلى "معرض الخرطوم" لإقتناء بعض الكتب والروايات، جئتُ عابرةً أتأمل بعض الكتب وكان الناس يصطفون بإنتظامٍ أمام داراً للنشر عندما رأيت تلك الحشود وكل واحد منهم بعد أن يأخذ كتاباً يتصفحه مبتسما وهو خارج عرفت أن هناك كاتبٌ عظيم، ساقني الفضول إلى رؤيته ومعرفة من هو.. فوجدتها امرأةً جميلةً إستطعت تمييزها من عينيها بأنها "آسيويةٌ" تبلغ نحو الأربعين من العمر، ترتدي نضارةً بعدستين واسعتين وتجلس في مقعدٍ أمامها الكثير من الكتب توقع عليها، اقتنيت كتابا وقدمت نحوها لآخذ توقيعها، لكنها انتفضت حيرةً بمجرد رؤيتي وبدأت تتأملني بتفحصٍ، بدأت تتذكر وكأنها تعرفني، وقّعت على كتابي وأخبرتني بأن أنتظرها قليلا حتى تفرغ لأنها ترغب بالحديث معي، لم أعلم ما الذي تريده مني.. لكني انتظرتها حتى تفرغت أقبلت علي قائلةً

_أعتذر قد تأخرت عليكِ

قلتُ: لا يهمك أستاذتي

تعرفنا ببعضنا في وقفتنا تلك، أخبرتي أنها تُدعى "هيلجا" تسكن في إحدى المناطق الريفية من مدينة "بويرتو برنسيسا" الفلبينية ولديها العديد من الكتب مترجمةٌ للعديد من اللغات منها "الملايو، والعربية، والإنجليزية، والصينية" ولغات أخرى، ثم أخبرتها عني وحبي للقراءة، وعن حلمي بأن أكون كاتبةً وفنانةً تشكيلية، لا أدري ما الذي شدني هكذا نحوها، لكني شعرت بألفة تلقائية معها، أصبحتُ وكأني أعرفها منذ عشرون عاما وأنا التي لم أتعدّ العشرون بعد، وعندما رأيتُ أن مجرى حديثنا سيطول.. قلت لها

_هل تمانعين أن نشرب قهوة معاً

_لا مانع لدي

خرجنا من المعرض تمشينا بضع خطوات حتى وصلنا إلى مقهى "odiva cafe" تناولنا القهوة معاً ثم تآنسنا مطولا أخبرتني أنها زارت الكثير من البلدان، وُلدت موهبة الكتابة معها في وقت مبكر لكن حققتها في الوطن العربي لذالك فهي لا تدع معرضا في وطنٍ عربي إلا وزارته، وأخبرتني أيضاً أنها جاهدت كثيرا في بداية مشوارها لتكون كاتبة، فلم تكن تتحدث العربية حينها ولا تعرف الكلام إلا عندما تعرفت بأحدهم لما عملت خادمةً في إحدى الفنادق المصرية، وكان ذالك الشخص يعلمها العربية والإنجليزية ويتحدث معها بلغة الملايو ويقرءان معا بعض الروايات، والسبب الذي أرادت التحدث معي فيه.. هو أنني أشبه ذالك الشخص.

سألتها: ما إسمه

أجابتني: نسيت إسمه، لكنه كان شابا أسمراً يحب الغناء والبحر ويدمن الوحدة، أراقبه أحياناً عندما يخرج في منتصف الليل فأراه يجلس في الشاطئ وحده في ذالك الصقيع الذي لا يتحمله أحد، وحيانا تشاركه فتاة بريطانية...

_وما إسم هذه الفتاة

_لا أتذكر إسمها، أنا فقط أتذكر التفاصيل، لكني سميتهما بأسماءٍ مستعارةٍ وجعلتهما أبطال روايتي ستجدينهما إن قرأتيها

_واااو.. يا رباه، عظيمةٌ أنتِ، هل ذكرتيهما في روايتكِ؟

_ بالطبع، أنا أكتب عن كل مناسبةٍ أو لحظةٍ مررتُ بها وأخصص مذكرةً لكل مكانٍ أقيم به أو أعمل فيه

سألتها بدعابة أمازحها

_وهل ستكتبين عن جلستنا هذه؟

إبتسمت بعفويةٍ وقالت: ربما

فقلت: حسنا، حدثيني عن بطل روايتكِ.. هذا الشخص الذي يشبهني

_ حسنا، لقد كان مثلما أخبرتك يعشق الغناء ويقدس الوحدة.. لكني كنت أقضي معظم وقت فراغي معه، حدثني كثيرا عن حياته وذكرياته الأليمة التي كانت السبب في رحيله عن وطنه

_وماذا عن تلك الفتاة

_لقد تزوجها بعد أن أسلمت هي ووالدتها وجميعهم رحلوا.. لكن لا أدري إلى أين، وكان هو السبب في إسلامي أنا أيضاً

إحترت من ما قالته، كيف يمكن ذالك؟ هي تقول بأنه كان يعشق الوحدة والغناء، فكيف لشخصٍ لا يعمل بأخلاق الإسلام أن يتسبب في إسلام الآخرين؟ سألتها في حيرةٍ من أمري بكلمةٍ واحدةً

_كيف؟

وقد قرأت هي تلك التساؤلات التي أحاطت بي وأعجزني نطقها، فردّت لي قائلةً

_أعلم أنك تستغربين ربما.. لكن ذالك شيءٌ آخر، بعضنا يرتكب أخطاءً وذنوبا لا تتماشى مع الدين، وذالك ليس عمداً ولا إستخفافاً بالله _سبحانه_ لكن هو من ضعف أنفسنا، وأياً كان فالأصيل يبقى أصيلا ويعود إلى الطريق الأصحّ مهما طال الأمد، إن الذي يبتغي هدى الله.. سيقوده الله يوماً إليه، وعلاقة المرء بربه لا تخص سواه، فهو رغم قصر تلك الفترة التي قضاها هناك والفترة التي كنتُ أقضيها معه ما علمت بأنه مسلمٌ إلا في ذالك اليوم عندما أفقت في الثانية فجراً وذهبت لأتأمله في الشاطئ.. فلم أجده، وقفت ملياً أساءل نفسي أين يكون قد ذهب ونور شُقّته غير مضاء؟ فهو لا يغلقه إلا عندما يكون غير متواجد، جئت عائدةً ومررت بجانب شقته.. فسمعت صوتا يخرج منها، هلعت في بداية الأمر وانتابتني بعض الظنون السيئة، لكني تقرّبت ببطءٍ على أطراف أصابعي واسترقت النظر من النافذة التي لم تكن مغلقة بشكلٍ جيد فرأيته واقفاً مربعاً يديه على صدره _لم أتعرف على الصلاة حينها_ ويقرأ تلك الآيات التي جعلتني أعيد حساباتي ألفيْ مرّةً، قرأ في الركعة الأولى من بداية سورة "آل عمران" حتى وصل إلي هذه الآية "شهد الله أنه لا إله إلا هو" إلى

آخر الآية " "19ثم ركع، وما بين تلك الركعة والأخرى.. غيرتُ معتقداتي، فكرت في ما بينهما قليلا وقارنت بين ديانتي وهذا الدين.. فوجدت أني قد أهدرت عشرون عاما من العمر هباءً

_ولأي ديانةٍ كنتِ تنتمين

فاجأها سؤالي، فصمتت قليلا ثم أجابت بإمتعاضٍ وكأنها تتحسر على تلك العشرون الماضية

_أنا ما كنتُ أنتمي لديانةٍ، أنا كنتُ أنتمي لأشخاصٍ تافهون يؤمنون بالطقوس التقليدية.. كانو أرذل من حمقى الجاهلية الأولى، ففي تلك الديانة يمكن لأي شخص أن يعيّن آلهته ويعبدها بطريقته الخاصة

ضحكت عند جملتها الأخيرة فبادلتني الضحكة هي أيضاً.. لكن بمرارةٍ، لاحظت ذالك، فقلبت ضحكتي إلى ابتسامةٍ وأخذتُ جرعة من قهوتي.. صمت قليلا ثم سألتها

_وما إسم هذه الديانة

أجابت: إسمها "الشامانية" نشأت في "الصين" ثم تناقلت رويداً رويداً إلى الفلبين والهند وبعض الدول المجاورة

هززت رأسي بالموافقة، ثم قلت لها وأنا متشوّقة لمعرفة كيف أسلمت

_هل كنتِ من قبل تنوين الدخول إلى الإسلام، أم أنها محض صدفة

_لا.. ليست صدفة، أنا من قبل لم أكن مهتمةً كثيراً بديانتي وطقوسها التقليدية، فكنت ألبس الصليب أحياناً لحبي للمسيحية، وأزور الكنيسة أحياناً، كنت على وشك الدخول فيها.. لكن في ذالك اليوم تغيرت وجهة نظري، تركت كل شيءٍ.. كل ما كان يشغلني، أخذت إجازة لمدة يومين من العمل وبدأت أبحث عن هذا الدين، عرفت الكثير عنه عندما جلبت بعض الكتب وبحثت عن تلك الآية التي سمعته يقرأها فوجدتها.. قرأتها وقرأت تفسيرها، عرفت سبب نزولها، والذي جعلني أذهب إلى "المسجد" وأتلقن الشهادة فيه.. هي قصة تلك الآية "إن الدين عند الله الإسلام" التي قرأتها في تفسير إبن كثير والتي

ترد بين "غالب القطان" و "الأعمش" رضي الله عنهما، هي قصة طويلة لكن مختصرها، أن ("غالب القطان" سمع الأعمش يوماً يرددها ثلاث مرات في التهجد فسأله عنها، فأخبره أن النبي عليه السلام قال "يُجاء بصاحبها يوم القيامة، فيقول الله عز وجل: عبدي عهد إلي، وأنا أحق من وفى بالعهد، أدخلوا عبدي الجنة) حينها أدركت أن "الدين عند الله الإسلام" فأسلمت وجهي لله الواحد القهار، لكني عندما عُدتُ في اليوم الثالث إلى العمل لم أجد ذالك الشاب، أخبروني أنه...

"ولو أردنا إنساناً لا يغضب لطلبنا حجراً أو لطلبنا جماداً، الغضب جزءً من تكوين البشرِ، لكن الغضب إذا تعدى صار مذموما، وهذا الذي نهى عنه النبي ﷺ أما الغضب المحمود.. ففي سبيل الله وإذا انتُهكت محارم الله.... "

قطعت حديثها وهي تستمع إلى ذالك الصوت الذي كان يخرج بصوتٍ منخفضٍ من جهاز السماعة في الكافيه وفجأةً على الصوت.. فأصغت له، سألتني بدهشةٍ

_من هذا الداعية

إحترت من سؤالها كنتُ أظن أنها تمزح، لكن بدا لي أنها جادةٌ فارتبكت الأفكار بداخلي وأنا أتساءل "هل ما زال هناك أناسٌ لا يعرفونه" أجبتها بعد ثوانٍ

_إنه الداعية "محمد سيد حاج" ألم تسمعي عنه من قبل؟

_لا، هذه أول مرةٍ أسمعه فيها

_.....

_من هذه؟ أرني لميس.!

لم ألاحظ وقوف والدي بجانبي بقدر ما كنت تائهة في ذكرى لقائي بها، يبدوا أنه كان واقفا منذ مدة، مددت له الهاتف.. تأمل والدي تلك الصورة ملياً وقال

_هل تعرفينها؟

قلت: نعم، إنها كاتبةٌ فلبينية إسمها "هيلجا" وجدتها في معرض "الخرطوم" السنة الماضية وتعرفت عليها، أخذت توقيعها وأعطتني بعض كتبها دون مقابلٍ لأني أشبه أحدهم كان سببا في إسلامها

رمقني أبي مليا، ظل يتأملني بدقة كأنه يراني لأول مرةٍ أو أنه يبحث عن شيءٍ ما في وجهي يصدق له كلماتي، سألته بدعابة

_ما هذه النظرة الغريبة يا أبي، ألا تصدقني؟

_لا، لا شيء، فقط كنتُ أتساءل هل هناك شخصاً يشبهكِ حقاً؟ وإن كنتِ تشبهين أحداً فكيف يمكنه مقابلة تلك الكاتبة الفذة؟

قال أبي ذالك مازحاً بسخريةٍ وهو يبتسم بقهقهةٍ، إستدار ناحية مشغل الموسيقي غير تلك المقطوعة الموسيقية بأغنيةٍ، أخذ جريدته وعاد بجانبي إلى المقعد جالساً وما زال ثغره بارقاً بإبتسامة من بقايا تلك الضحكة ليغيظني بها، لكن ملامحه تخبرني بأنه يُخبئ شيئاً ما عني، فقلت له وأنا أحاول مداعبته

_أنا أشبه أحدهم بالطبع

_من هو.؟

رد مبتسما دون أن يزيح عينيه عن الجريدة، فأجبته بطفوليةٍ..

_أنت

ثم ضحكت، نظر إلي بطرف عينيه رافعاً حاجبيه بطريقة بهلوانية دون أن يلتفت، وهز رأسه ضاحكا بطريقةٍ كوميدية جعلتني أسقط على كتفه مغمورةً بنوبة ضحكٍ هيستيريةٍ أنستني كل شيء، إن أبي رجلا فريداً يختلف بكثيرٍ عن بقية كل الرجال، هو شخص يمتلك قدرات سحرية لتغيير مزاج الآخرين صفواً وتعكيراً، يمتلك قوى خارقةً لتغيير مجرى الحديث، فأحياناً عندما أتحدث معه أشعر بأني أتحدث لإحدى صديقاتي، يجذبني في الحديث أحيانا ويجعلني أفرغ كل ما أحمل في داخلي من الحكايا حتى أصبحت صريحة مع الجميع، لا أخفي أمرا من أحد، وأحيانا عندما يراني أشرع في إلقاء أسئلة ربما ستعكر مزاجه.. يخدرني بأسلوبه السحري فينسيني كل ما أريد قوله، أبي رجلا من صنفٍ آخرٍ.. هو ليس بشري، دائم الصمت.. لكنه إن نطق يجبرك على الكلام حتى لو لم ترغب بالحديث، طال الصمت فيما بيننا، مضت حوالي عشرة دقائق لم يتحدث

فيها أحدنا إلى الآخر، هو يقرأ في جريدته.. وأنا غارقةً في تأمل كلمات أواخر تلك الأغنية الحزينة والتي يقول فيها مغنيها

"لمتين وراك سفر الشقا.. قول لي متين.. لي متين يكون
كأني مديون للعذاب.. وادفع سنين من عمري دين"

قطعت على أبي صمته وسألته

_من هذا المغني يا أبي

_محمود عبد العزيز، توفى منذ تسعِ سنوات

أجابني ثم طبق تلك الجريدة ووضعها على المنضدة بجانب ذالك الكتاب، هززت أنا رأسي موافقةً ومددت يدي على المنضدة أيضا لأتناول هاتفي، وبمجرد رؤية ذاك الكتاب خطر على بالي سؤال، فوجهته مباشرة لأبي وقلت

_أتدري يا أبي، عندما أخبرتني تلك الكاتبة أني أشبه أحدهم.. فكرت بك فوراً، وقلت أنا لا أشبه أحداً سواك، وخصوصا لما أخبرتني بقصة هذا الكتاب، لقد حكت لي عنه وأخبرتني أن ذالك الشخص كان يمتلك كتاباً بهذا الإسم "بوليفونيا 4078 يوم" وكان لا يفارقه أبدا، وإني لم أجد هذا الكتاب إلا لديك، ألا يمكن أن يكون ذالك الشخص هو أنت

تنحنح أبي، أخذ نفسا عميقاً كمن خرج لتوه من قاعِ محيطٍ عميقٍ وقال بغموضٍ

_لا، لست أنا ذالك الشخص

تأملته بنظرةٍ طويلةٍ لبرهةٍ حتى ارتبك فعرفت أنه لم يكن صادقا معي، لأول مرةٍ أكسب والدي بخدعةٍ علمني هو إياها، فقلت له بجدية هذه المرة وبصوتٍ حزينٍ مرتجيٍ أحاول الصمود أمام هيبته

_هل تخفي عني شيئاً يا أبي؟ إنك تتصرف بطريقةٍ غريبة منذ أن سألتك عن عمتي المرحومة، هل هناك سرٌ لا تريدني أن أعرفه؟ ولماذا.. أخبرني يا أبي

أسند أبي ظهره على كرسيه، أغمض عينيه، وضع كفيه على وجهه، ظل ساكنا في تلك الوضعية لبضع دقائق دون أن يرد علي، حتى أني سكتُ أيضاً لما ظننت

أنني قد أغضبته فعاقبني بالصمت هذه المرة، لقد اتفقنا مسبقا بأني لو أغضبته إما أن أراضيه بفنجان قهوةٍ أو ساعةٌ من الصمت حتى يعتدل مزاجه، وهو إن أغضبني إما أن يرضيني بعلبة شوكولاه أو شتلة وردٍ، لذالك أصبح بيتنا ممتلئاً بالورود، بغتةً أزاح يديه من على وجهه، تأمل زرقة تلك السماء قليلا ثم نظر نحوي وقال

_بل أخفي عنكِ الكثير من الأشياء، لكن كنتُ أنتظر الوقت المناسب لأخبرك بها.. وها قد حان الأوان

تطرّقتُ جيداً بتمعنٍ لكلماته تلك، لأنني أخاف ذالك الصمت وأخشى تكراره مرةً أخرى، فإنني لا أقوى على الجلوس دون مآنسة أبي، ولا أحب مقاطعة صمته المفاجئ، فهو في الغالب لا يصمت عبثاً، قلت بصوتٍ منخفضٍ وبحذرٍ

_وما هو ذالك السر؟!

***

أكثر الناس ألما وتحمّلا هم أولئك الصامتون، المزاجيون، الذين إذا تحدثوا أضحكوا، وإذا صمتوا أحزنوا، أولئك الذين لا يشاركون تفاصيل حياتهم مع أحد، الذين يفضلون الصمت والوحدة بعيدا عن الثرثرة والجلوس وسط القطيع، لم يكن أبي واحداً منهم، بل كان مزيجا من كل شيء، بداخله قطعٌ من كل أصناف البشر، لن تستطيع أن تنسبه لأيٍ منهم، في لحظةٍ تجده دنيوياً يستمع الأغاني، يعزف ويُغني، وبعد دقيقتان تجده معتكفا بداخل غرفته يتهجد ويبتهل الله عابداً متضرعاً، لا أعلم بشأن نفسيته، لكني لم أرى مثل أبي رجلا منذ أن عرفت الرجال، ما تخيلت يوماً أنه يحمل بمثل ذالك القدر من الأسرار بداخله، لقد حكى لي في الإسبوع الماضي عن كل شيء، أراني مذكراته ودفاتره القديمة التي استنتجت منها هذه الرواية، وأخبرني بكل شيء، ما كنتُ أعلم أنه عانى بذالك القدر، ما زال حتى الآن يتألم لفقدانها، سنةً واحدة من الحب ونصف قرنٍ من العذاب، من منكم يتحمل ذالك؟! لقد فقد أبي كل أعزائه، سُميَ مالك لكنه لم يمتلك شيئا من ما ملك، لقد

عرفت اليوم لماذا أهداني تلك المكتبة ولماذا كان يخبئ عني سرها، علمت قصته مع تلك الكاتبة "هيلجا" علمت قصته مع أمي ولماذا سمّياني "لميس" علمت قصة رحيله من وطنه وعودته، علمت عن قصة عمتي المرحومة "لميس" وعمتي "لمى" التي فقدت عقلها عند اغتيال صديقة عمرها، وعن قصة زوجها "جمعة" الذي رآها يوم رحيل أبي فأحبها وتزوجها بعد ذالك بعامٍ واحد وأنجبا طفلةً في العام الثاني فسمياها "لميس" وفاءً لتلك الراحلة التي غدرت السلطات بها.. فرحلت بقلب أحدهم وحياته.. وابتدأ بعدها عمره الثاني.. عمر العذاب، هي التي لم يكن حلمها سوى أن تحيا في وطنٍ مسالم وجميل، لكنها لم تكن تعلم بأن هناك خنازيراً لا يعشقون سوى القبح ولا يرضون إلا بالظلام، آهٍ يا "لميس" ليتهم ما قتلوكِ، أتدرين كم عانى بعدكِ وطني؟ مات الجميع فيه، لم يتذوق الحياة بعدكِ أحدٌ يا لميس، لقد سُلبت الحياة في وطني، لم تتبقى سوى أرواحاً عائمةٌ في أجسادٍ وهبها أصحابها فداءً لبناءه، لكن لوث القناصون بها الأرض..فاحمر حتى نيليْها ولم تعد صالحة سوى للموت، مساكينُ هم أبناء وطني، يحلمون ببناء وطن جميلٍ ولا يملكون ،سوى الأمل زاداً لبناءه لأنهم ابتلوا بعصابةٍ تعمل جاهدةً لتذيقهم خيبة حلم هم

هرب الكثير وقُتل الكثير ولم يتبقى سواك يا أبي، وحدك من استطعت مقاومة تلك المشاعر وعدت إلى هنا، لذالك فإن قصتك هذه هي الأسطورة الوحيدة التي تستحق أن تُحكى للآخرين، لقد عوضك الله بعائلة كاملةٍ، لكنها ما استطاعت ملئ تلك الفراغات.. لأن الحُب لا يُعوض، لقد أخبرتني أن أمنيتها الوحيدة هي أن تكون كاتبة، أعلم أني لن أملأ فراغها بداخلك مهما حدث، لكنني حاولت أن أحقق أمنيتها.. فرويت قصتها وقصتك وقصتنا جميعاً هنا، لذالك فلن أضع لهذا الكتاب إسما سوى *"لميس"*

" لمَتَ"

"2022/7/12"

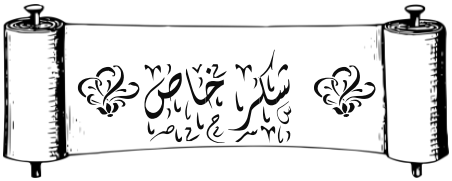

أما الشكر فإلى أولئك الذين لم يتعرفوا علي بعد، إلى أصدقائي "الفاتح.. إيكاردي.. برعي.. محسن.. ود يونس" أولئك الحمقى الذين ينعتونني بالملموس لأنني لا أفارق هاتفي، ولا يعلمون بأني أكتب به هذه الرواية، أشكركم ليس مجاملة ولا لأنكم تستحقون الشكر.. ولكن لأنكم أصدقائي ولولاكم لما خرج هذا العمل للنور، ولأعلمكم أيضـ بأني لا أستخدم هاتفي "عبث ".

إلى عم" عماد" وعم "عبده" أولئك الرجلان اللذان يوبخانني دائما لطول استعمالي للهاتف، أود أن أشكركم على تلك النصائح وأخبركم أيضـ بأني لست كما تظنون

إلى أصدقاء إنجاك.. وجميع الذين يعتقدونني من مرضى السوشيال

والشكر جزيل الشكر إلى "مجمع التقوى" الذي حفظت القرءان به

إلى أستاذتي "سلمى"

"وإلى أخويّ، جبريل و روضة"

المحتويات

الإهداء ٥
المقدمة ٧
الفصل الأول "صدفةٌ رتبها القدر" ٩
الفصل الثاني " العودة والرحيل" ٤٥
الفصل الثالث الشتاء فصل الذكريات.....٨١
الفصل الرابع "صُدفة" ١٢٧
الفصل الخامس والأخير "لميس".....١٧١
شكر خاص ١٩٥